د. نورمان فنكلستين

صناعة الهولوكوست

تأمّلات في استِغلَال المعَاناةِ اليهوُديَّة

ترجَمَة:
د. سَمَاح إدريسْ
بمُشاركة أيمن ح. حَدّاد



دار الآداب

صناعة الهولوكوست

تأملات في استغلال المعاناة اليهودية

صناعة الهولوكوست
تأمُّلات في استغلال المُعاناة اليهوديَّة
د. نورمَنْ فنلكستين / مؤلِّف أميركيّ
ترجمة: د. سماح إدريس، ومشاركة أيمن حنَّا حدَّاد
الطبعة الأولى عام 2001
الطبعة الثانية عام 2021
ISBN 978-9953-89-651-9

دار الآداب للنشر والتوزيع

Daraladab @Daraladab daraladab.com

"يُخيَّل إليَّ أنَّ الهولوكوست تُباع ـــ ولا تُعلَّم"

الحاخام آرنولد جايكوب وُلْف، مدير هِيلِلْ، جامعة يال*

* ـ مايكل بِرِنباوم: بعد الكارثة والنصر (كامبريدج، ١٩٩٠)، ص ٤٥.

المحتويات

مقدمة الترجمة

تعرّفتُ إلى نورمن فنكلستين منذ أكثر من عشرة أعوام، حين كنتُ طالبًا في جامعة كولومبيا في نيويورك. ومع الوقت توطّدتْ علاقتنا، برغم الخلافات الصغيرة التي تعترض كلَّ شخصَيْن يَعْملان في النشاط السياسيّ أو التعبويّ. وأستطيع أن أقول بيقين إنّ نورمن هو مِنْ أعدل الأشخاص الذين رأيتُهم، أو قرأتُ لهم، في حياتي، وأفْخر بصداقتي له، وبصداقة جميع العرب في الولايات المتحدة له. وأودّ أن أقول أيضًا إنّني نادرًا ما عرفتُ شخصًا كنورمن لا يهزّه الإجماعُ أو الإرهابُ «الثقافيّ» الصهيونيّ المنتشر في الولايات المتحدة، بل يجهر بالحقيقة دائمًا حتى لو كَسَبَ عداءَ الغالبية المطلقة من التيار الأكاديميّ التقليديّ.

عَرَضَ عليّ الصديق الأستاذ أيمن حدّاد هذا الكتاب، وقام بترجمة الفصل الثاني منه، باستثناء بعض الحواشي، فأكملتُ ما نقص منها وراجعتُ ترجمته. وقامت كيرستن شايد بقراءة الترجمة عن الإنكليزيّة مباشرةً، واستغرق ذلك ساعات طوالاً. فلهما الشكر. وأشكر أيضًا نورمن فنكلستين نفسه الذي أجابني ـ عبر البريد الإلكتروني ـ عن عشرات الأسئلة التي وجهتُها إليه.

حاولتُ أنا، وحاول الأستاذ حداد، إزالة اللَّبْسِ أحيانًا عبر وضع إيضاحٍ بين مُعقَّفين [ ]، أو عبر تقديم بعض التعريفات في الهوامش التي كنّا ننهيها بحرف (م) للدلالة على تدخُّلنا. ويهمُّني أن أنبِّه القارئ إلى أنَّ عبارات «الهولوكوست» و«المحرقة اليهوديَّة» و«شووا» و«الحلّ النهائيّ» تُستخدم للمعنى نفسه.

وختامًا، أطمح أن يقدِّم هذا الكتابُ فائدةً جليلةً إلى القارئ العربيّ، والمناضل العربيّ. وآمل أن يشكِّل فاتحةً لسلسلةٍ من الأعمال المترجمة الصادرة عن دار الآداب تحت عنوان «معارضون أميركيُّون».

س.إ.

بيروت ٢٢/١٠/٢٠٠٠

شكر

كولن روبنسون من دار نشر «ڤرسو» هو صاحب فكرة هذا الكتاب. وصاغت روان كاري تأمُّلاتي في سردٍ منسجمٍ. وقدّم كلٌّ من نعوم تشومسكي وشيڤرا ستِرْن المعونةَ في كل مرحلةٍ من مراحل إنتاج هذا الكتاب. وانتقدتْ جنيفر لوونْستَايْن وإيڤا شڤايتزرْ مسوَّداتٍ مختلفةً منه. ووفّر رودولف بالديو دعمًا وتشجيعًا شخصييْن. وأنا مدين لهم جميعًا. في الصفحات التالية أحاول أن أصوِّر ميراثَ أبويَّ. ولهذا فإنَّ هذا الكتاب مهدًى إلى أخويَّ، ريتشارد وهنري، وإلى ابن أخي: دايڤيد.

ن.ف.

مقدِّمة

هذا الكتاب هو تشريحٌ لصناعة الهولوكوست [المحرقة اليهوديّة] وشَجْبٌ لهذه الصناعة في الوقت نفسه. وفي الصفحات التالية سوف أحاول أن أبرهن أنّ «الـ هولوكوست» [بألـ التعريف] إنّما هي تصويرٌ مؤدلَج للهولوكوست النّازيّة(١). وهي، شأنها شأن معظم الإيديولوجيّات، ذاتُ صلة، وإنْ واهيةٍ، بالحقيقة. إنّ الـ هولوكوست ليست مُنْشأً [أو مركّبًا] اعتباطيًا، وإنّما هي مُنْشأٌ ذو انسجامٍ داخليّ، ومبادئُها المركزيّة تُسنِد مصالحَ سياسيّةً وطبقيّةً هامة. بل إنّ الـ هولوكوست قد أثبَتَتْ أنّها سلاحٌ إيديولوجيّ لا غنى عنه. فباستخدام هذا السلاح فإنّ واحدةً من أقوى دول العالم في المجال العسكريّ، وذاتَ سجلٍّ مريعٍ في انتهاك حقوق الإنسان، قد صوّرتْ نفسَها دولةً «ضحيّةً»، واكتستْ بالمِثْل مجموعةٌ عِرقيّةٌ من أنجح المجموعات في الولايات المتحدة صفةَ «الضحيّة» هي أيضًا*. والحقّ أنّ أرباحًا مهمّة تنشأ عن هذه الضُّحَوِيّة** الخادعة، ولاسيّما

١ - في هذا الكتاب ستشير «الهولوكوست النازيّة» إلى الحادثة التاريخيّة الحقيقيّة [أيْ إعدام أعدادٍ كبيرة من اليهود في المانيا زمنَ هتلر]. وأما «الـ هولوكوست» فتشير إلى تصوير تلك الحادثة إيديولوجيًا.

* - المقصود بالدولة «الضحيّة»، كما لا يخفى، دولةُ إسرائيل؛ والمقصود بالمجموعة العِرقية الاميركية الجاليةُ اليهودية طبعًا. (المترجم).

** - إزاء: victimhood، وهي اسمٌ منسوبٌ إلى «الضّحيّة». (م)

اكتسابُ مُدَّعيها حصانةً من النقد، أيًا كان هذا النقدُ مبرَّرًا. ولعلّي أضيف أنّ المتمتعين بهذه الحصانة لم يَنجُوا من المفاسد الأخلاقيّة التي تُلازِمُها عادةً. ومن هذا المنظور ليس أداءُ إيلي ڤيزِل Wiesel* كمؤوِّلٍ رَسميٍّ لـ «الـ ـهولوكوست» مصادفةً بحتة. فهو ببساطة لم يأتِ إلى هذا المنصب بفضل التزاماته الإنسانيّة، ولا بفضل مواهبه الأدبيّة[1]، بل هو يؤدِّي هذا الدورَ الرئيسيَّ لأنّه يعبِّر بوضوحٍ عن مبادئ «الـ ـهولوكوست» ويُسْنِد - من ثَمَّ - المصالحَ التي شكّلتْ دعائمها.

كان الحافزُ الأوليّ لكتابي هذا هو دراسةَ پيتر نوڤِك Novick التي تستحثّ أعمالاً أخرى: **الهولوكوست في الحياة الأميركيّة**، وهو كتابٌ قمتُ بمراجعته لمجلة أدبيّة بريطانيّة[2]. في صفحات كتابي هنا سيتمّ توسيعُ الحوار النقديّ الذي خُضتُه مع نوڤِك؛ ومن هنا إحالاتي الكثيرةُ على كتابه المذكور. والحال أنّ **الهولوكوست في**

---

* - أحد الناجين من المحرقة اليهوديّة [الهولوكوست] و«ناطِقٌ رسميٌّ» أميركيٌّ باسمها. (م)

١ - من أجل كشف سِجلِّ ڤيزل المعيب في الاعتذار عن [جرائم] إسرائيل، راجعْ: نورمَنْ ج. فنكلستين وروث بتّينا بيرن Birn: **محاكمة امة: اطروحة غولدهاغن والحقيقة التاريخيّة** (نيويورك، ١٩٩٨، ص ٩١ هامش ٨٣ وص ٩٦ هامش ٩٠). كما أنّ سجلّه في قضايا أخرى ليست افضل حالاً. ففي مذكّرات صادرةٍ حديثًا بعنوان **والبحر ليس مليئًا ابدًا** (نيويورك، ١٩٩٩) يقدِّم ڤيزل التفسيرَ التالي لصمته حيال المعاناة الفلسطينيّة: «برغم الضغط الهائل رفضتُ على الدوام أن أتّخذ موقفًا علنيًا من الصراع الإسرائيليّ - العربيّ» (ص ١٢٥). ولقد قام الناقدُ الأدبيّ إرْڤِين هاو Howe، في مَسْحِه الذي يُفَصِّل تفصيلاً انيقًا أدبَ الـ ـهولوكوست، بالإجهاز على إنتاج ڤيزِل الضخم في فقرةٍ واحدة لا غير ضَمَّنها مديحًا واهيًا بأنّ «عَمَلَ إيلي ڤيزِل الأوّل، وعنوانُه الليل، مكتوبٌ بشكل بسيطٍ ودونما انغماسٍ في اللغو الخطابيّ». ويوافقه في ذلك الناقدُ الأدبيُّ الفرد قازن Kazin إذ قال: «منذ كتاب الليل لم يَعُدْ [لڤيزل] ما تَجدر قراءتُه. لقد غدا إيلي الآن ممثِّلاً من راسه حتى أخمص قدميه. وقد وَصَفَ نَفْسَهُ لي بأنّه محاضِرٌ في الكَرْب» (راجعْ مقالة هاو: «الكتابة والهولوكوست» في مجلة **نيوريپبليك** [٢٧ تشرين الأول/اكتوبر ١٩٨٦]؛ وكتاب قازن: **حياة باكملها تحترقُ كلّ لحظة**، [نيويورك ١٩٩٦]، ص ١٧٩).

٢ - صدر كتاب نوڤك في نيويورك عام ١٩٩٩. والمراجعة لنورمن فنكلستين بعنوان «استخدامات الهولوكوست»، في **لندن ريڤيو اوف بوكس** (٦ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٠).

الحياة الأميركيّة ينتمي إلى تقليدٍ أميركيّ مَهيب مِنَ التَّشْهير الفضائحيّ، لكونِهِ مجموعةً من التلميحات الاستفزازيّة أكثر منه نقدًا متماسكًا.

ولكنّ نوفِك، شأنه شأن معظم المشهِّرين الفضائحيِّين، يركِّز فقط على الفضائح الأشدّ فظاعةً. وكتابُهُ، برغم كونه في الغالب لاذعًا ومنعِشًا، ليس نقدًا جذريًا. فالافتراضات الأوليّة الأساسيّة يُسَلَّمُ بها دون تحدٍّ. إنّ كتابه ليس بانخًا ولا هرطقيًا، ولهذا فهو موجَّهٌ إلى الطَّرفِ الخِلافيّ من مجموع أطياف الاتّجاه الفكريّ التقليديّ. وكما يمكن أن يَتَنَبَّأَ المرءُ، فقد ذُكِرَ كتابُه كثيرًا في وسائل الإعلام الأميركيّة، وإنْ على تضارُبٍ في الموقف منه.

إنّ أداة نوفِك التحليليّة المركزيّة هي «الذاكرة». و«الذاكرة» هي الموضة الكاسحة هذه الأيام في البرج العاجيّ، ولكنّها بالتأكيد أكثرُ المفاهيم التي بلغتْ بوّابةَ الأكاديميا بؤسًا منذ أمدٍ بعيد. وبعد أن يومئ نوفِكْ برأسه إلى موريس هالبواخس Halbawachs مُستحسِنًا، كما يَجْدر به أن يفعل، يتّجه إلى أن يبيِّن كيف تَصُوغ «المشاغلُ الراهنةُ ذاكرةَ الـ هولوكوست». في قديم الزمان كان المثقّفون المنشقّون يَسْتَخدمون أدواتٍ سياسيّةً فَحْلَةً مثل «القوّة» و«المصالح» من جهة، و«الإيديولوجيا» من جهة أخرى. وأما اليوم فكلُّ ما تبقى هو لغة «المشاغل» و«الذاكرة» ـ وهي لغةٌ مانعة نُزعتْ منها السياسة. ولكنْ مع البراهين التي يقدِّمها نوفِك فإنّ ذاكرة الـ هولوكوست هي فعلاً مُنْشأٌ إيديولوجيٌّ صَنَعتْه مصالحُ محدَّدة. يقول نوفِك إنّ تذكّر الـ هولوكوست، برغم كونه أمرًا متعمَّدًا، «يَغْلب أن يكون» اعتباطيًا، ويؤكّد أنّ ذلك التعمُّد لم يستند إلى «حساباتٍ في الفوائد والأضرار» وإنّما جاء «دونما تفكير كبير... في النتائج»[1]. ومع ذلك، فإنّ البراهين تبيِّن استنتاجًا معاكسًا [لمقولة نوفِك].

كان مبعثُ اهتمامي الأول بالهولوكوست النازيّة شخصيًا. فأبي وأمي كانا، كلاهما، من الناجين من غيتو وارسو ومن معسكرات الاعتقال النازيّة. وباستثناء

---

١ ـ نوفِك: **الهولوكوست**، ص ٢ ـ ٦.

والديَّ، أبَاد النازيُّون جميعَ أفراد عائلتي من جهة أبي وأمي معًا. وقد كانت ذاكرتي الأولى، إذا جاز التعبير، عن الهولوكوست النازيّة هي رؤية أمي، عند عودتي إلى المنزل قادمًا من المدرسة، مُسَمَّرةً إلى التلفزيون تشاهد محاكمةَ أدولف أيخمان* (١٩٦١). فعلى الرغم من أنّ والديَّ كانا قد حُرِّرا من معسكرات الاعتقال ست عشرة سنة فحسب قبل تلك المحاكمة، فقد ظلّت ثمةَ هاويةٌ لا تُردَم في ذهني تَفْصل الوالديْن اللذيْن عرفتُهما عن ذلك الشيء [الذي يُحاكَمُ أيخمان من أجله]. كانت هناك صورٌ لأفراد عائلة أمي معلّقةٌ على حائط غرفة الجلوس (لم تنجُ صورةٌ من صور عائلة أبي من الحرب). لم استطع أبدًا أن افهم تمامًا صلتي بهم، دَعْ عنكَ إدراكَ ما حدثَ حقًا. كانت تلك الصورُ صورَ أخواتِ أمي وأخيها ووالديها هي، لا صورَ خالاتي وخالي وأجدادي أنا.

أَذْكر أنني قرأتُ حين كنتُ طفلاً كتابَ الحائط لجون هيرسي Hersey وكتابَ ليون يورس Uris ميلا ١٨، وكلاهما تقريران تخييليان عن غيتو وارسو. (ماأزال أَذْكر أمي تشكو من أنّ محطة قطار النفق، حيث كان عليها أن تَنْزل للذهاب إلى عملها، قد فاتتها ذاتَ يوم لأنّها كانت منهمكةً في قراءة الحائط). ولقد بذلتُ كلَّ طاقتي دون أن أستطيع، وإنْ للحظة، أن أقوم بقفزةٍ في الخيال تَجْمع أهلي - بكل أمورهم العادية - إلى ذلك الماضي. وبصراحة، مازلتُ عاجزًا عن ذلك حتى هذه اللحظة.

ولكنّ هناك نقطةً أكثر أهميّة، وهي التالية. فخلا هذا الحضورَ الطيفيّ لا أَذْكر أنّ الهولوكوست النازيّة قد اقتحمتْ طفولتي قطّ. والسبب الرئيسيّ في ذلك هو أنّ أحدًا من خارج عائلتي لم يَبْدُ أنّه اهتمّ بما كان قد حَدَثَ. ومع أنّ أصدقائي زمنَ طفولتي كانوا يقرأون كثيرًا ويناقشون بحماسٍ أحداثَ ذلك الزمن، فإنّني بكلّ أمانةٍ

* - أدولف أيخمان (١٩٠٦ - ١٩٦٢): ضابط نازيّ مسؤول عن إعدام الكثير من اليهود. هرب إلى الأرجنتين بعد نهاية الحرب العالميّة الثانية، فاختطفه جهازُ الاستخبارات الإسرائيليّة وحاكمتْه المحكمةُ الإسرائيليّةُ، ثم شُنِق. (م)

لا أذْكر أنّ صديقًا واحدًا (او والديْ صديقٍ واحد) سألوني وإنْ سؤالاً واحدًا عمّا عانته أمي أوْ عاناه أبي. لم يكن ذلك الصمتُ نابعًا من التهذيب. كان، ببساطة، لامبالاةً. ولهذا لا يُمْكن المرءَ إلاّ أن يتشكك في تدفقات الكَرْب في العقود التي تلت، بعد أن ترسَّخَتْ دعائمُ صناعةِ الـ هولوكوست.

أحياناً أفكِّر أنّ «اكتشاف» اليهود الأميركيِّين للهولوكوست النازيّة كان أسوأ من نسيانها. صحيحٌ أنّ والديّ أخفيا كآبَتَهما عن الأنظار؛ فالألم الذي عانياه لم يقدَّرْ علنًا. ولكنْ ألم يكن ذلك أفضلَ من الاستغلال الحاليّ الفظّ للعذابات اليهوديّة؟ فالحق أنه قبل أن تصبح الهولوكوست النازيّة هي «الـ هولوكوست»، لم يَكن قد نُشر عن هذا الموضوع إلاّ عددٌ قليل من الدراسات الأكاديميّة مثل كتاب راوول هيلبرغ Hilberg: **تدمير اليهود الأوروبيِّين**، ومذكرات كتلك التي كتبها ڤيكتور فرانكل Frankl: **بحث الإنسان عن المعنى** أو التي كتبتها إلاّ لينغِنز ـ راينر Lingens-Reiner: **سجناء الخوف**[1]. ولكنّ هذه المجموعة الصغيرة من الجواهر النفيسة لَهِيَ أفضلُ من رفوفٍ فوق رفوف من البضائع الرخيصة التي تمتلئ بها المكتباتُ ومحلاّتُ بيع الكتب.

وعلى الرغم من أنّ والديّ كليهما ظلاّ يعيشان الماضي إلى يوم وفاتهما، فإنّهما في نهاية حياتهما فقدا الاهتمامَ بـ «الـ هولوكوست» مَشْهدًا علنيًا. كان أحدَ أصدقاء أبي مدى الحياة زميلٌ له في معسكر الاعتقال في آوشڤيتز، وهو كما بدا يساريٌّ مثاليٌّ لا يمكن إفسادُه، وقد رَفَضَ التعويضَ الألمانيّ بعد نهاية الحرب العالميّة الثانية انصياعًا لمبدإ اعتَنَقَه. ولكنّه في نهاية المطاف صار مديرًا لـ «متحف الهولوكوست الإسرائيليّ» (ياد ڤاشيم). فأقرّ أبي في النهاية، على مضضٍ وبشعورٍ أصيلٍ بالخيبة، بأنّ هذا الرجل نفسَه قد أفسدتْه صناعةُ الـ هولوكوست وفصّلَتْ قناعاتِه على قياس القوّة والمنافع. وإذ راح تصويرُ الـ هولوكوست يَتّخذ أشكالاً أكثر

---

١ ـ الأول صدر في نيويورك عام ١٩٦١. والثاني في نيويورك أيضًا عام ١٩٥٩. والثالث في لندن عام ١٩٤٨.

عبثيّةً من ذلك، كانت أمّي تحبّ أن تَسْتشهد (بسخريةٍ متعمّدة) بهنري فورد* حين قال: «التاريخ هراء». لقد كانت حكاياتُ «الناجين من الهولوكوست» ـ وكلهم نزلاءُ معسكرات اعتقال، وكلهم أبطالُ مقاومة ـ مصدرًا خاصًا من مصادر التسلية المُرّة في منزلي. وقد أَدْرَك جون ستيوارت مِلْ منذ زمن بعيد أنّ الحقائق التي لا توضَعُ موضعَ التحدّي المستمرّ ستتوقف في نهاية المطاف «عن أن تَمْتلك وَقْعَ الحقيقة، لأنّ تلك الحقائق ضُخِّمتْ حتى غدتْ باطلاً».

غالبًا ما تساءل والداي لماذا صرتُ ناقمًا إلى هذا الحدّ على تزوير عمليات الإبادة النازيّة واستغلالها. والجواب الأفصح أنّ هذه الإبادة قد استُخدمتْ لتبرير السياسات الإجراميّة لدولة إسرائيل ولدعم الولايات المتحدة لهذه السياسات. ولكنّ هناك حافزًا شخصيًا أيضًا لنقمتي تلك. وهو أنّني اهتمّ حقًّا بذاكرة اضطهاد عائلتي. فالحملة الحالية التي تقوم بها صناعةُ الهولوكوست من أجل ابتزاز الأموال من أوروبا باسم «ضحايا الهولوكوست المحرومين» قد قلّصتِ القيمةَ الأخلاقيّة لمعاناتهم إلى قيمة كازينو في مونت كارلو. ولكنْ حتى لو نَحّينا جانبًا هذه المشاغل، فإنّني أبقى مُؤْمنًا بأنّه من المهم أن نحافِظَ ـ بل أن نقاتِلَ ـ من أجل أمانة السجلّ التاريخيّ. وسأقترح في نهاية كتابي هذا أننا بدراستنا الهولوكوست النازيّةَ نستطيع أن نتعلّم كثيرًا لا عن «الألمان» أو «الأغيار» فقط، بل عنّا جميعًا أيضًا. ولكنّي أعتقد أنّه لكي يكون بمقدورنا أن نفعل ذلك، أيْ أن نتعلّم حقًّا من الهولوكوست النازيّة، فإنّه يجب تقليصُ مجموع الموارد الماديّة التي استُثمرتْ من أجل إحياء ذكرى الهولوكوست، وتوسيعُ أبعادها الأخلاقية. لقد استُثمرتْ مصادرُ خاصةٌ وعامةٌ أكثرَ ممّا ينبغي في إحياء ذكرى الإبادة النازية. ومعظمُ النتائج كانت بلا قيمة، وتكريمًا لا للمعاناة اليهوديّة بل للتعظيم من شأن اليهود. ولقد آن الأوان منذ زمن بعيد لكي نَفتح قلوبنا على معاناة البشر الآخرين. وذلك هو الدرس الأساسيّ الذي منحتني إياه أمي. لم أسمعها مرةً تقول لي: «لا

* ـ صناعيٌّ شهير، ومعادٍ للسامية. (م)

تقارنْ»، بل كانت أمي تقارن على الدوام. ولا شك أنّ من الضروريّ التمييزَ بين الأحداث التاريخيّة. ولكن أنْ نُقيم تمايزاتٍ اخلاقيّةً بين عذاب «نا» وعذابِ «هم» لَهُوَ محاكاةٌ منحطّة للأخلاق. لقد لاحظ أفلاطون ملاحظةً إنسانيّةً حين قال: «أنت لا تستطيع أن تقارنَ بين شخصين بانسين ثم تقول إنّ أحدهما أسعدُ من الآخر». وإزاء عذابات الأفارقة الأميركيّين والفيتناميين والفلسطينيين كانت عقيدةُ أمي دائمًا هي: كلنا ضحايا هولوكستيُّون!

نورمان ج. فنكلستين

نيسان/أبريل ٢٠٠٠
مدينة نيويورك

الفصل الأول

تحويل الهولوكوست [النازيّة] إلى «الـ ـهولوكوست»

في تبادلٍ للاتّهامات جديرٍ بالتذكُّر جرى منذ بضع سنوات، اتّهم غور ڤيدال رئيسَ تحرير مجلة كومنتري (التي تُصدرها «اللجنةُ الاميركيَّةُ اليهوديّةُ») نورمَنْ پودهورتز Podhoretz بأنّه ليس اميركيًا[1]. ودليله أنّ پودهورتز علّقَ اهميةً اقلَّ على الحرب الأهليّة الأميركيّة ـ التي وصفها ڤيدال بأنّها الحدثُ التراجيديُّ الأعظم الذي لا يني يجد صداه في جمهوريتنا ـ من المشاغل اليهوديّة. ومع ذلك، فلربّما كان پودهورتز أميركيًا أكثرَ من مُتَّهِمِه. ففي ذلك الوقت كانت «الحربُ ضد اليهود» لا «الحربُ بين الولايات الأميركيّة» هي التي بدت أكثرَ مركزيّةً في الحياة الثقافيّة الأميركيّة. وبمقدور معظم أساتذة الجامعات أن يَشْهدوا أنّ الطلاّب اللامتخرِّجين undergraduates الذين يَعْرفون في أيّ قرن حَصَلَتِ الهولوكوست النازيّةُ، ويَذْكرون عادةً رقمَ الضحايا الذين قُتِلوا، يَفُوقون نظراءَهم في ما يخصّ حادثةَ الحرب الأهليّة الأميركيّة. بل الحقّ أنّ الهولوكوست النازيّة هي المرجع التاريخيّ الأوحد تقريبًا الذي يتجاوب معه طلابُ الجامعات الأميركيّة اليوم. وتشير الاستطلاعات إلى أنّ عدد الأميركيّين الذين يمكنهم أن يعيِّنوا هويةَ الـ ـهولوكوست

---

١ ـ غور ڤيدال Vidal: «عُشّاق الإمبراطوريّة يردُّون»، في مجلة نايْشِن (٢٢ آذار/مارس ١٩٨٦).

يفُوقون أولئك الذين يمكنهم أن يعيِّنوا حادثةَ پيرل هاربور أو قصفَ اليابان بالقنابل النوويّة.

غير أنّ الهولوكوست النازيّة لم تُذكرْ إلاّ بصعوبة في الحياة الأميركيّة قبل عهد قريبٍ نسبيًا. فبين نهاية الحرب العالميّة الثانية وأواخر الستينيّات من القرن العشرين لم تلامِسْ ذلك الموضوعَ إلاّ حفنةٌ من الكتب والأفلام. ولم يكن هناك إلاّ مساقٌ جامعيٌّ واحد عن هذا الموضوع في الولايات المتحدة[١]. وحين نَشَرتْ حنّه ارنت كتابَها ايخمان في القدس عامَ ١٩٦٣ لم تستطع أن تَعْتمد إلاّ على بحثَيْن أكاديميَيْن كُتبا باللُّغة الإنجليزيّة في هذا المجال، وهما: الحلّ النهائيّ [الهولوكوست] لجيرالد رايتلنغر وتدمير اليهود الأوروبيِّين لراوول هيلبرغ[٢]. بل إنّ تحفة هيلبرغ نفسَها كانت توشك ألا ترى النورَ أصلاً؛ وكان المُشْرفُ على أطروحته في جامعة كولومبيا المنظِّرُ الاجتماعيُّ الألمانيُّ اليهوديُّ فرانتز نُومان Neumann قد حاول بقوّةٍ أن يُثنيَه عن الكتابة في هذا الموضوع (قائلاً له: «سيكون ذلك ماتمك!»)؛ ولم يَقْبل أيُّ ناشرٍ جامعيٍّ أو تقليديٍّ أن يَلْمس المخطوطةَ المكتملة. وحين نُشرتْ دراسةُ هيلبرغ هذه في النهاية، لم تحْظَ إلاّ بإشاراتٍ قليلة معظمُها انتقاديٌّ[٣].

---

١ ـ روشل ج. سايدِلْ Saidel: ليس التذكُّر بالأمر المتأخِّر أبدًا (نيويورك، ١٩٩٦)، ص ٣٢.

٢ ـ حنا أرنت Arendt: ايخمان في القدس: تقرير عن تفاهة الشر، طبعة موسّعة ومنقَّحة (نيويورك، ١٩٦٥) ص ٢٨٢. ولم يكن الوضع في ألمانيا مختلفًا كثيرًا: فعلى سبيل المثال تكرِّس سيرةُ هتلر التي كتبها يواكيم فست Fest، وهي سيرةٌ تستحقّ الإعجابَ حقًا ونُشرتْ في ألمانيا عام ١٩٧٣، أربعَ صفحاتٍ فقط من أصل ٧٥٠ صفحة للحديث عن إبادة اليهود، وفقرةً واحدةً فحسْبُ للحديث عن أوشفيتز وغيرِه من معسكرات الاعتقال. (يواكيم فست: هتلر، [نيويورك، ١٩٧٥]، ص ٦٧٩ ـ ٦٨٢).

٣ ـ راوول هيلبرغ Hilberg: سياسات الذاكرة (شيكاغو، ١٩٩٦)، ص ٦٦، ١٠٥ ـ ١٣٧. وأما نوعية الأفلام التي عُنيتْ بالهولوكوست النازيّة فقد كانت، على قلّتها، جيدة هي الأخرى. وإنّه لَمِمّا يثير العجب أن يُشير «محاكمة في نورمبرغ» لستانلي كرايمر Kramer (١٩٦١) بشكلٍ واضح إلى قرار قاضي المحكمة العليا أوليڤر وندل هولمز عام ١٩٢٧ إجازةَ تعقيم «غير الصّالحين عقليًا» بوصف ذلك القرار شكلاً أوليًا للبرامج النازيّة في تحسين النسل؛ ويشير أيضًا بشكل واضح إلى مديح ونستون تشرشل لهتلر حتى مع حلول عام ١٩٣٨؛ وإلى تسليح هتلر من قبل المصنِّعين الاستغلاليِّين الأميركيِّين؛ وإلى قرار التبرئة الانتهازيّ الذي اتخذتْه المحكمةُ العسكريّة الأميركيّة بعد الحرب العالميّة الثانية بحق المصنِّعين الألمان.

لم يُعرِ الهولوكوستَ النازيّةَ كبيرَ اهتمامٍ الأميركيُّون بشكلٍ عام فحسب، بل كانت تلك أيضًا حالَ الأميركيِّين اليهود بمن فيهم المثقفون اليهود. وفي هذا الصدد يورد عالِمُ الاجتماع نايثان غلايزر في مسحٍ موثوقٍ عام ١٩٥٧ أنَّ «الحلّ النهائيّ النازيّ» [الهولوكوست] (كما إسرائيل) «قد حَظيا بمؤثِّراتٍ طفيفة جدًا في الحياة الداخليّة لليهود الأميركيِّين». وفي حلقة نقاشية أجرتْها مجلةُ كومنتري عام ١٩٦١ بعنوان «الهويّة اليهوديّة والمثقّفون الشباب» اثنان فقط من واحدٍ وثلاثين مشاركًا ركّزا على أثر الهولوكوست النازيّة. وكذلك كان شأنُ طاولةٍ مستديرة عقدتْها عام ١٩٦١ مجلة جودايزمْ، إذ تجاهلتْ هذه الطاولة - وعنوانُها «تأكيدي اليهوديّ»، وشارك فيها واحدٌ وعشرون يهوديًا أميركيًا متديِّنًا - هذا الموضوعَ تجاهلاً تامًا تقريبًا[1]. ولم تكن ثمّة أنصاب تذكاريّة ولا أعمال اعتباريّة تشير إلى الهولوكوست النازيّة في الولايات المتحدة. بل على العكس من ذلك، عارضتْ تنظيماتٌ يهوديّةٌ أساسيّةٌ مثلَ ذلك الإحياء التذكاريّ. والسؤال هو: لماذا؟

الجواب المألوف هو أنَّ اليهود كانوا يعانون صدمةً عنيفةً من جرّاء الهولوكوست النازيّة، ولهذا كَبَتوا ذكراها. ولكنّ الحقّ أنْ ليس ثمّة دليلٌ يَدْعم هذا الاستنتاج. فلا شك أنّ بعض الناجين لم يريدوا آنذاك، بل لم يريدوا في السنوات التالية أيضًا، أن يتحدَّثوا عمّا حدث. ولكنّ آخرين كثُرًا أرادوا بشدّة أن يتحدّثوا عن ذلك، وحين سَنَحتِ الفرصةُ لم يتوقّفوا عن الكلام[2]. غير أنّ المشكلة هي أنَّ الأميركيِّين لم يريدوا أن يَسْمعوا.

إنّ السبب الحقيقيّ للصمت العلنيّ على الإبادة النازيّة كان السياسات الامتثاليّة التي انْتَهجتْها القيادةُ اليهوديّةُ الأميركيّةُ والمناخ السياسيّ الذي ساد أميركا بعد الحرب العالميّة الثانية. فقد التزمتِ النخبُ اليهوديّةُ الأميركيّة[3]، في

---

١ - نايثان غلايزر Glazer: [الحياة] اليهوديّة الأميركيّة (شيكاغو، ١٩٥٧)، ص ١١٤. ستيفان ج. ويتفيلد Whitfield: «الهولوكوست والمثقف اليهوديّ الأميركيّ»، في مجلة جودايزم (خريف ١٩٧٩).

٢ - لتعليقٍ مرهف الحساسيّة على هذَيْن النمطَيْن المتقابلَيْن من الناجين، راجعْ بريمو ليڤي Levy: اليقظة المتجدِّدة، مع ملحق جديد (نيويورك، ١٩٨٦)، ص ٢٠٧.

٣ - تشير عبارة «النخب اليهوديّة الأميركيّة» في كتابي هذا إلى الأفراد البارزين في الحياة الثقافيّة والتنظيميّة للتيار التقليديّ في الجالية اليهوديّة الأميركيّة.

الشؤون المحليّة والدوليّة، التزامًا ضيقًا السياسةَ الرسميّةَ الأميركيّة. وهذا في حقيقة الأمر سهّل الأهدافَ التقليديّة لتلك النخب في الانهضام [داخل المجتمع الأميركيّ] وفي النفاذ إلى مراكز القوّة. ومع ابتداءِ الحرب الباردة دخلت المنظماتُ اليهوديّةُ التقليديّة ساحةَ الحرب. فـ «نسيت» النخبُ الأميركيّةُ اليهوديّةُ الهولوكوستَ النازيّةَ لأنّ ألمانيا ـ أو ألمانيا الغربية بحلول عام ١٩٤٩ ـ أصبحتْ حليفةً حاسمة لأميركا بعد الحرب العالميّة الثانية في المواجهة التي كانت الولاياتُ المتحدة تخوضها ضدّ الاتحاد السوڤياتيّ. وقد رأت تلك النخبُ أنّ نَبْشَ الماضي لن يفيد شيئًا، بل كان سيعقّد الأمورَ في الواقع.

ومع تحفُّظات طفيفة (ما لبثَتْ ان طُرحتْ جانبًا) سرعان ما اصطفّت تنظيماتٌ يهوديّة أميركيّة رئيسيّة إلى جانب دعم الولايات المتحدة لألمانيا مسلّحةٍ من جديد ومجرّدةٍ على نحوٍ هزيلٍ من نزعاتها النازيّة. وتخوّفت «اللجنةُ الأميركيّةُ اليهوديّةُ» من «أن تؤدّي أيُّ معارضةٍ منظّمة من جانب اليهود الأميركيّين ضدّ السياسة الخارجيّة الجديدة والتوجُّهِ الاستراتيجيّ الجديدِ للولايات المتحدة إلى عزلهم في عين الغالبية الأميركيّة غير اليهوديّة، وإلى تهديد الإنجازات التي حققوها على الساحة المحليّة في فترةِ ما بعد الحرب العالميّة الثانية». فكانت تلك اللجنةُ هي أولَ مَنْ دعا إلى فضائل العودة إلى اصطفافٍ جديد [مع ألمانيا]. وهكذا أَسقط «المؤتمرُ اليهوديّ العالميّ» (المؤيِّد للصهيونيّة) وتابِعُهُ الأميركيّ رايةَ المعارضة بعد توقيع معاهداتِ تعويضٍ مع ألمانيا في أوائل الخمسينيّات. وكانت «الرابطة المعادية للتشهير» هي أولَ منظمةٍ يهوديّةٍ رئيسيّة تُرسِل وفدًا رسميًا إلى ألمانيا، وذلك في عام ١٩٥٤. وقد تعاونتْ هذه المنظمات اليهوديّة جميعُها مع حكومة بون من أجل احتواء «موجة العداء لألمانيا» التي سادت المشاعرَ الشعبيّةَ اليهوديّة[١].

وكان «الحلّ النهائيّ» [الهولوكوست] موضوعًا محرّمًا بالنسبة إلى النخب اليهوديّة الأميركيّة لسببٍ آخر أيضًا. فاليهود اليساريّون، الذين عارضوا التحالفَ مع

---

١ ـ شلومو شافير Shafir: علاقات غامضة: الجالية الأميركيّة اليهوديّة وألمانيا منذ عام ١٩٤٥ (ديترويت، ١٩٩٩)، ص ٨٨، ٩٨، ١٠٠ ـ ١٠١، ١١١، ١١٣، ١١٤، ١٧٧، ١٩٢، ٢١٥، ٢٣١، ٢٥١.

ألمانيا ضدّ الاتّحاد السوڤياتيّ في زمن الحرب الباردة، لم يكفّوا عن الضرب على وتر الهولوكوست. وهكذا بات تذكُّرُ الهولوكوست النازية مدموغًا بأنّه من اهتمامات الشيوعيّة. ولمّا كانت النخبُ اليهوديّةُ الأميركيّة قد شُدّتْ إلى تنميطٍ يَدْمج اليهودَ باليسار ـ وحقيقةُ الأمر أنّ اليهود شكّلوا فعلاً ثلثَ الذين اقترعوا للمرشح التقدميّ إلى الرئاسة عام ١٩٤٨ هنري والاس ـ فإنّها لم تتردّد في التضحية باليهود الآخرين على مذبح «العداء للشيوعيّة». بل إنّ «اللجنة الأميركيّة اليهوديّة» و«الرابطةَ المعادية للتشهير» تعاونتا بنشاط [مع الإدارة الأميركيّة] في حقبة ماكارثي التي تميّزتْ بمطاردة المنشقّين والمعارضين، فقدّمتا إلى الوكالات الحكوميّة أنذاك ملفّاتٍ كانت بحوزتهما عمّن زُعِم أنّهم مخرِّبون يهود. وقد صادقت «اللُّجنةُ الأميركيّة اليهوديّة» على عقوبة الإعدام بحق جوليوس وإيثل روزنْبرغ، وعبّرتْ نشرتُها الشهرية **كومنتري** عن رأيها في إحدى الافتتاحيات بالقول إنّ الزوجيْن روزنبرغ لم يكونا يهوديّيْن حقًّا*.

وإذ خشيت المنظماتُ اليهوديّةُ التقليديّةُ أن يَرْتبط اسمُها باليسار السياسيّ في الخارج وفي الولايات المتحدة نفسِها، فقد عارضتِ التعاونَ مع الألمان الديموقراطيّين الاجتماعيّين المعادين للنازية، وعارضتْ أيضًا حملاتِ مقاطعة المنتوجات الألمانيّة والتظاهراتِ العامةَ ضدّ النازيّين السابقين الذين كانوا يطوفون في الولايات المتحدة. وفي المقابل عانى منشقّون ألمانيُّون بارزون كانوا يزورون الولايات المتحدة، أمثال راعي الأبرشية البروتستانتيّ مارتن نيمولر Niemöler، قَدْحَ الزعماء الأميركيّين اليهود، وهو الذي أمضى ثمانيةَ أعوام في معسكرات الاعتقال النازيّة وصار معارضًا للحملة الرسميّة الأميركيّة المناهضة للشيوعية. بل إنّ النخب اليهوديّة الأميركيّة، التي كانت تتلهف إلى رفع رصيدها المعادي للشيوعيّة، انتسبتْ إلى منظمات يمينيّة متطرّفة ـ مثل «مؤتمر عموم أميركا لمحاربة الشيوعيّة» ـ

---

* ـ كان جوليوس روزنبرغ مهندسًا تابعًا للجيش الأميركيّ. وكان، فيما يبدو، عضوًا ناشطًا في الحزب الشيوعيّ. وقد اتُّهم بأنّه قدّم هو وزوجته أسرارًا عسكريّة إلى الاتّحاد السوڤياتيّ، وبأنّ أخا إيثل قدّم لهما معلوماتٍ عن الأسلحة النوويّة لأنّه كان يعمل في مشروعٍ نوويّ في لوس الاموس. وقد حوكم الزوجان في نيويورك في ٦ آذار/مارس ١٩٥١، ثم أُعدِما في سجنهما. (م)

ودعمتْها ماديًا، في حين أنّها غضّت النظرَ عن دخول أعضاء سابقين في جهاز SS النازيّ إلى الولايات المتحدة![1].

ولمّا كانت الحركة الأميركيّة اليهوديّة المنظّمة تتوق أبدًا إلى الفوز بحظْوة النخب الحاكمة في الولايات المتحدة، وإلى التبرُّؤ من اليسار اليهوديّ، فإنّها استحضرتِ الهولوكوستَ النازيةَ في سياقٍ خاصٍ واحد: وهو إدانة الاتحاد السوفياتيّ. ويَستَشهد نوفِك بمذكّرةٍ داخلية صدرتْ عن «اللجنة الأميركيّة اليهوديّة»، لاحظتْ جَذْلَى «أنّ السياسة السوفياتيّة [المعادية لليهود] تَفْتح مجالاتٍ لا ينبغي تجاهُلُها من أجل تعزيز سماتٍ معيّنة في خطة العمل المحليّة للّجنة الأميركيّة اليهوديّة». وذلك يعني تصنيفَ «الحلّ النهائيّ» النازيّ [الهولوكوست] والنزعةِ الروسيّةِ المعاديةِ للساميّة في خانةٍ واحدة. وتنبأتْ مجلةُ **كومنتري** تَنبُّؤًا كارثيًا حين قالت «إنّ ستالين سوف يَنْجح حيث فَشِلَ هتلر». وتابعتْ تقول: «سوف يمحو في النهاية يهودَ أوروبا الشرقيّة والوسطى... وبذلك تكون السياسةُ الموازيةُ لسياسة الإبادة النازية [بحق اليهود] قد اكتملتْ». وذهبتْ بعضُ المنظمات الأميركيّة الرئيسيّة إلى شجب الغزو السوفياتيّ لهنغاريا لكونه «المحطةَ الأولى على طريق أوشفيتز روسيّة» [أيْ على طريق إبادةٍ روسيّة لليهود][2].

* * *

---

١ ـ المصدر السابق، ص ٩٨، ١٠٦، ١٢٢، ١٣٧، ٢٠٥، ٢١٥، ٢١٦، ٢٤٩. روبرت وارشو War-shaw: «'مثالية' جوليوس وإيثل روزنبرغ»، في مجلة **كومنتري** (تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٣). هل كان مصادفةً بحتةً أنّ المنظمات اليهوديّة التقليديّة اضطَهَدَتْ في ذلك الوقت تمامًا حنة أرنت بسبب إشارتها إلى تعاون نخب يهوديّة تسعى إلى العظمة مع النازيِّين أثناء الحقبة النازيّة؟ ويتذكّر إسحاق زوكرمان، وهو أحد قياديِّي انتفاضة غيتو وارسو، الدورَ الخادعَ الذي أدّته الشرطةُ التابعة لـ «المجلس اليهوديّ»، فيلاحِظ أنّه «لم يكن هناك رجالُ شرطةٍ محترمون لأنّ الرجال المحترمين خلعوا زيّهم الرسميَّ وباتوا يهوديِّين فقط» (**فائض من الذكريات**، [أوكسفورد، ١٩٩٣]، ص ٢٤٤).

٢ ـ نوفِك: **الهولوكوست**...، ص ٩٨ ـ ١٠٠. وهناك عوامل أخرى، بالإضافة إلى الحرب الباردة، أدّت دورًا مساعِدًا في تقليل اليهود الأميركيِّين من شأن الهولوكوست النازيّة ـ كالخوف من العداء للسامية، والروح الأميركيّة التفاؤليّة في الخمسينيّات النزّاعة إلى هضم كل الأعراق. ويتحرّى نوفك هذه الأمور في الفصول ٤ ـ ٧ من كتابه **الهولوكوست**.

لكنَّ كلَّ شيء تَغَيَّر مع حرب حزيران ١٩٦٧ العربيّة ـ الإسرائيليّة. ووفقًا لكلّ الحسابات تقريبًا لم تصبح «الـ هولوكوست» عنصرًا ثابتًا في الحياة اليهوديّة الاميركيّة إلاّ بعد تلك المواجهة[1]. والتفسير المألوف لهذا التحوُّل هو أنّ عزلة إسرائيل الشديدة وهشاشتَها أثناء حرب حزيران قد أَحْيتا ذكرياتِ الإبادة النازيّة. غير أنّ هذا التحليل في الواقع يسيء تمثيلَ امرين معًا: حقيقةِ علاقات القوّة في الشرق الأوسط في ذلك الزمن، وطبيعةِ العلاقات المتطوِّرة بين النخب اليهوديّة الاميركيّة وإسرائيل.

وكما قَلَّلت المنظماتُ اليهوديّةُ الاميركيّةُ التقليديّة من شأن الهولوكوست النازيّة في الأعوام التي تلت الحربَ العالميّة الثانية من اجل التكيُّف مع اولويات حكومة الولايات المتحدة في الحرب الباردة، فإنّها التزمتْ ايضًا سياسةَ الولايات المتحدة في ما يخصّ نظرتَها إلى إسرائيل. فمنذ وقت مبكّر أَضْمرت النخبُ الاميركيّة اليهوديّة مشاعرَ ريبةٍ عميقة حيال دولة يهوديّة. وكان خوفُ تلك المنظمات الأولُ ناجمًا عن أن مثل هذه الدولة قد تُعطي مصداقيةً لتهمة «الولاء المزدوج»*. ومع اشتداد حدّة الحرب الباردة تضاعفتْ تلك المخاوف. بل كان القادة الاميركيُّون اليهود حتى قبل إنشاء إسرائيل قد صَرّحوا بخشيتهم أن تنضمّ قيادةُ إسرائيل اليساريةُ ذاتُ الأصول الأوروبيّة الشرقيّة إلى المعسكر السوفياتيّ. ومع أنّ المنظمات الاميركيّة اليهوديّة تبنّت في النهاية الحملةَ التي قادتْها الصهيونيّةُ من اجل قيام دولة إسرائيل، فإنّها كانت تَرْصد الإشاراتِ القادمةَ من واشنطن وتتكيّف معها بدقّة. والحقّ أنّ «اللجنة الاميركيّة اليهوديّة» دعمتْ قيامَ إسرائيل لخوفها أساسًا من أن تَنْتج ردةُ فعلٍ بين المواطنين ضدّ اليهود إنْ لم يُوطَّنِ المهجَّرون اليهودُ في أوروبا بسرعة[2]. وعلى الرغم

---

١ ـ يبدو أنّ الوحيد الذي أنْكر هذه الصلّة هو إيلي ڤيزل الذي زعم أنّ نشوء «الـ هولوكوست» في الحياة الاميركيّة قد كان مِنْ صُنْعه هو اساسًا. (سايدل: **ليس التذكر بالأمر المتأخر أبدًا**، ص ٣٣ ـ ٣٤).

* ـ المقصود: التهمة التي يُرمى بها اليهودُ تاريخيًا بأنّهم يوالون دولتَهم التي يسكنون فيها، ويوالون الجاليةَ اليهوديّةَ في العالم ايضًا. (م)

٢ ـ مناحيم كوفمان Kaufman: **شراكة غامضة** (القدس، ١٩٩١)، ص ٢١٨، ٢٧٦ ـ ٢٧٧.

من أنّ إسـرائيل اصطفّتْ مع الغـرب بُعيْـد إنشـاء دولتـهـا، فـإنّ عـددًا كـبيـرًا من الإسـرائيليّين داخل الحكومة وخارجَـها احتفظوا بمشاعر عطفٍ قويّة تجاه الاتّحاد السوڤياتيّ ؛ وأمّا القادةُ الأميركيُّون اليهود فقد أبْقَوا ـ كما هو متوقَّع ـ إسرائيلَ على مبعدةٍ منهم.

لم تَبْرزْ إسرائيلُ في قلب التخطيط الاستراتيجيّ الأميركيّ منذ زمنِ تأسيسها عـام ١٩٤٨ إلى وقوع حرب حزيران عـام ١٩٦٧. وإذ تهيّأت القيادةُ اليهوديّةُ في فلسطين لإعلان الدولة، تردّد الرئيسُ الأميركيّ ترومان، وراح يوازن بين الاعتبارات المحليّة (صوتِ الناخب اليهوديّ) وإنذارِ وزارة الخارجيّة الأميركيّة (بأنّ دعمَ دولة يهوديّة قد يُبْعد العالَمَ العربيَّ عن أميركا). ومن أجل تأمينِ مصالح الولايات المتحدة في الشرق الأوسط وازنتْ إدارةُ آيزنهاور بين دعم إسرائيل ودعم الدول العربيّة، مُؤْثِرَةً العربَ.

بلغت الصداماتُ الإسرائيليّةُ المتقطِّعة مع الولايات المتحدة على أمورِ السياسة ذروتَها مع أزمة السويس عام ١٩٥٦، حين تواطأتْ إسرائيل مع بريطانيا وفرنسا على مهاجمة زعيم مصر القوميّ جمال عبد الناصر. ومع أنّ انتصار إسرائيل الخاطفَ واحتلالَها شبهَ جزيرة سيناءَ جذبا انتباهًا عامًا إلى إمكانياتها الاستراتيجيّة، فإنّ الولايات المتحدة واصلتْ عَدَّها رصيدًا إقليميًا واحدًا بين أرصدة إقليميّة متعدِّدة. وتبعًا لذلك أَجبر الرئيسُ آيزنهاور إسرائيلَ على الانسحاب من سيناء انسحابًا تامًا وغيرَ مشروط . وخلال الأزمة دَعَمَ القادةُ الأميركيُّون اليهودُ، ولفترةٍ وجيزةٍ، الجهودَ الإسرائيليّةَ لانتزاع تنازلاتٍ أميركيّةٍ، ولكنّهم في خاتمة المطاف ـ على نحوِ ما يتذكّر آرثر هرتزبرغ ـ «آثروا أن يَنْصحوا إسرائيل بأن تُراعي [آيزنهاور] بدلاً من أن تُعادي رغباتِ زعيمِ الولايات المتحدة»[1].

---

١ ـ آرثر هرتزبرغ Hertzberg: **الجدل اليهوديّ** (نيويورك، ١٩٩٢)، ص ٣٣؛ وانظر: «آيزنهاور واليهود الأميركيُّون وإسرائيل» لإسحق آلتِراس Alteras في **الملفات الأميركيّة اليهوديّة** (تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٥)، ومايكل راينر Reiner: «ردّ فعل المنظمات اليهوديّة في الولايات المتحدة على حرب سيناء وما تلاها»، في مجلة **فوروم** (شتاء ١٩٨٠ ـ ١٩٨١)، على رغم كون المقالين يبرِّران لإسرائيل أعمالها على نحوٍ مضلِّل.

لقد اختفت إسرائيلُ عمليًا عن الأنظار في الحياة اليهوديّة الأميركيّة بعيْد إنشاء الدولة، باستثناء ذِكْرها عَرَضًا بوصفها موضوعًا خيريًا. والحقّ أنّ إسرائيل لم تكن مهمةً للأميركيِّين اليهود. ويقرِّر نايثان غلايزر في مسحه عام ١٩٥٧ أنّ إسرائيل «كانت ذات تأثيراتٍ طفيفة في حياة اليهود الأميركيِّين الداخليّة»[١]. وتراجَعَ عددُ أعضاء «المنظمة الصهيونيّة في أميركا» من مئات الآلاف عام ١٩٤٨ إلى عشرات الآلاف في الستينيّات. ولم يكترثْ إلاّ واحدٌ من أصل عشرين يهوديًا قبل حزيران ١٩٦٧ لزيارة إسرائيل. وازداد الدعمُ اليهوديُّ (الذي كان قويًا في الأصل) لآيزنهاور حين أُعيد انتخابُه عام ١٩٥٦، وحَدَثَ ذلك مباشرةً بعد أن أَجْبر إسرائيلَ على الانسحاب المذِلّ من سيناء. بل إنّ إسرائيل واجهتْ في بداية الستينيّات حين اختَطَفَتْ أيخمان تقريعًا من بعض أوساط النخبة اليهوديّة أمثال جوزيف پروسكاور Proskawer (الرئيسِ السابق لـ «اللجنة الأميركيّة اليهوديّة») واوسكار هاندلن Handlin (أستاذِ التاريخ في جامعة هارفرد) وجريدةِ واشنطن پوست التي يَمْلكها يهود؛ ورأى أريك فروم Fromm أنّ «اختطاف أيخمان عملٌ غيرُ قانونيّ وينتمي تمامًا إلى صنف الأعمال التي ارتكبها النازيُّون أنفسُهم»[٢].

وعلى امتداد الطيف السياسيّ في الولايات المتحدة أثْبت المثقفون الأميركيُّون اليهود على نحوٍ خاص أنّهم لم يبالوا بمصير إسرائيل. وها إنّ دراساتٍ مفصّلةً عن المشهد الثقافيّ اليهوديّ الليبراليّ واليساريّ في نيويورك خلال الستينيّات لا تكاد تَذْكر إسرائيل[٣]. وقبيل حرب حزيران ١٩٦٧ رعت «اللُّجنة الأميركيّة اليهوديّة» حلقةً دراسيّةً بعنوان «الهويّة اليهوديّة... هنا والآن»، ولكنّ ثلاثةً فقط من أصل واحدٍ وثلاثين هم «أفضلُ العقول في الجالية اليهوديّة» أشاروا إشارةً مداورةً إلى إسرائيل؛ بل إنّ اثنين من أولئك الثلاثة لم يفعلوا ذلك إلاّ ليَصْرفوا النظرَ عن أهميّة

---

١ ـ نايثان غلايزر: [الحياة] اليهوديّة الأميركيّة، ص ١١٤. ويُكمل غلايزر: «لم تكد إسرائيل تعني شيئًا [للحياة] اليهوديّة الأميركيّة. إنّ القول بأنّ إسرائيل... قادرةٌ بأيّ شكلٍ جديّ على التأثير في الحياة اليهوديّة في اميركا... يُعتبر قولاً خادعًا» (ص ١١٥).

٢ ـ شافير: علاقات غامضة، ص ٢٢٢.

٣ ـ انظرْ مثلاً: ألِكزندرْ بلوم Bloom: الأبْناء المبذَّرون (نيويورك، ١٩٨٦).

إسرائيل لتلك الهويّة[1]. وهاكم المفارقة اللاذعة: المثقفان اليهوديّان العموميّان الوحيدان تقريبًا اللّذان أقاما صلةً مع إسرائيل قبل حزيران ١٩٦٧ كانا حنة أَرِنْت ونوم [نعوم] تشومسكي![2].

ثم جاءت حربُ حزيران. وإذ تأثّرت الولاياتُ المتحدة بعرض إسرائيل الهائل لقوّتها، تحرّكتْ لإدخالها ضمن رصيدها الاستراتيجيّ. (وكانت الولايات المتحدة حتى قبل حرب حزيران قد مالت بحذرٍ إلى ناحية إسرائيل، في الوقت الذي كان فيه النظامان المصريّ والسوريّ يخطّطان سبيلاً راح يزداد استقلاليةً في أواسط الستينيّات). وشرَعت المساعداتُ العسكريّة والاقتصاديّة بالتدفّق على إسرائيل مع تحوّل هذه الأخيرة إلى وكيلٍ للقوّة الأميركيّة في الشرق الأوسط.

كان خضوعُ إسرائيل لقوّة الولايات المتحدة، بالنسبة إلى النخب اليهوديّة الأميركيّة، كسبًا غيرَ متوقّع. فقد نشأت الصهيونيّة من مقدِّمة [منطقيّة] تقول بأنّ الاندماج حُلُمٌ خُلّبيّ، وأنّ اليهود سيُعتبرون على الدوام أناسًا مرشّحين لأن يكونوا غرباء عديمي الولاء [للدولة التي يسكنون فيها]. ولحلّ هذا المأزق سعى الصهاينةُ إلى تأسيس وطنٍ قوميّ لليهود. ولكنّ الحقيقة هي أنّ تأسيس كيان إسرائيل فاقَمَ المشكلة، على الأقلّ بالنسبة إلى يهود الشتات : فهو قد أعطى تهمةَ «ولاء اليهود المزدوِج» تعبيرًا مؤسساتيًا. والمفارقة أنّ إسرائيل بعد حزيران ١٩٦٧ سهّلتِ اندماجَ

---

١ ـ لوسي داڤيدوڤيتش Davidowics وميلتون هيملفارب Himmelfarb (محرِّران): **مؤتمر عن الهويّة اليهوديّة هنا والآن** (اللّجنة الأميركيّة اليهوديّة، ١٩٦٧).

٢ ـ بعد أن هاجرتْ حنة ارنت من المانيا عام ١٩٣٣ صارت ناشطةً في الحركة الصهيونيّة الفرنسيّة : وخلال الحرب العالميّة الثانية وتأسيس إسرائيل كتبت الكثيرَ عن الصهيونيّة. وأما تشومسكي، وهو ابن مُسْتعبر [عالمٍ بالدراسات العبريّة] اميركيٍّ بارز، فقد نشأ في منزل صهيونيّ، وبعيْد نشوء إسرائيل قضى زمنًا في احد الكيبوتزات. وكانت «اللّجنة الأميركيّة اليهوديّة» هي رأسَ حربة الحملتَيْن العلنيَّتَيْن اللتَيْن ذمّتا ارنت في أوائل الستينيّات، وتشومسكي في السبعينيّات. (اليزابيث يونغ ـ برويل Young-Bruehl: **حنة ارنت**، [نيوهايڤن]، ١٩٨٢، ص ١٠٥ ـ ١٠٨، ١٣٨ ـ ١٣٩، ١٤٣ ـ ١٤٤، ١٨٢ ـ ١٨٤، ٢٢٣ ـ ٢٣٣، ٣٤٨؛ وروبرت ف. بارسكي Barsky: **نعوم تشومسكي**، [كامبريدج، ١٩٩٧]، ص ٩ ـ ٩٣؛ ودايڤيد بارساميان Barsamian محرِّرًا: **تاريخ الانشقاق**، [مونرو، ماين ١٩٩٢]، ص ٣٨).

اليهود في الولايات المتحدة : فبعد هذه الحرب صار اليهود يقفون على خط النار في الدفاع عن أميركا ـ بل عن «الحضارة الغربيّة» أيضًا ـ ضد القبائل العربيّة المتخلِّفة. وفي حين كانت إسرائيل قبل عام ١٩٦٧ تَسْتحضرُ في الأذهان بعبعَ «الولاء المزدوجِ»، صارت بعد ذلك العام تعني «الولاءَ الفائق» [لأميركا]. وفي نهاية المطاف لم يكن الأميركيُّون هم الذين يقاتلون ويموتون لحماية مصالح الولايات المتحدة، بل الإسرائيليُّون؛ كما أنّ المقاتلين الإسرائيليِّين لم يُذَلّوا على يد مُحْدَثي قوةٍ من العالم الثالث مثلما سبق أن حَدَثَ للمجنّدين الأميركيِّين في فيتنام ![1].

وتبعًا لذلك اكتشفت النخبُ اليهوديةُ الأميركيّةُ إسرائيلَ فجأةً. بعد حرب ١٩٦٧ صار يُمْكن الاحتفاءُ باندفاع إسرائيل العسكريَ لأنّ بنادقها باتت موجَّهةً في الاتّجاه الصحيح : في وجه أعداء أميركا. بل إنّ بسالتها العسكريّة قد تسهِّل الدخولَ إلى الحُرُمات الداخليّة لمراكز القوى الأميركيّة. في السابق لم يكن بمقدور النخب اليهوديّة إلاّ أن تقدِّم بضعَ قوائم من المخرِّبين اليهود؛ وأمّا الآن فباستطاعة تلك النخب أن تنصِّب نفسَها محاورًا طبيعيًا لرصيد أميركا الاستراتيجيَ الأحدث [إسرائيل]. ومن ممثِّلين يؤدُّون أدوارًا صغيرة، ارتقت تلك النخبُ إلى صدارة قائمة الممثِّلين في مسرحية الحرب الباردة. وهكذا باتت إسرائيل رصيدًا استراتيجيًا لليهود الأميركيِّين وللولايات المتحدة أيضًا.

يَذْكر نورمَنْ پودهورتز بسعادة مُسْكِرةٍ، في مذكّراتٍ نَشَرها قبيْل حرب حزيران، أنّه حَضَرَ حفلَ عشاءٍ في البيت الأبيض «لم يكن فيه شخصٌ واحد إلاّ ممتلِئًا بشكلٍ واضح ومطلَق بالفرح لكونه هناك»[2]. ومع أنّه كان آنذاك رئيسَ تحرير المجلة الأميركيّة اليهوديّة الأولى **كومنتري**، فإنّ مذكّراته تشير مرةً واحدةً فقط وبشكلٍ سريع إلى إسرائيل. فما تراه كان بمقدور إسرائيل أن تقدِّم لأمريكيَ يهوديَ طموح [مثله] ؟! وفي مذكّرات لاحقة تَذَكّر پودهورتز أنّ إسرائيل غدت بعد حزيران

---

١ ـ لتصويرٍ سَبْقيَ مبكِّر لفكرتي هنا، راجعْ حنة أرنت: «إعادة النظر في الصهيونيّة» (١٩٤٤)، في كتابٍ من تحرير رون فِلْدمان Feldman: **اليهوديُ منبوذًا** (نيويورك، ١٩٧٨)، ص ١٥٩.
٢ ـ **بلوغ الهدف** (نيويورك، ١٩٦٧)، ص ٢٣٦.

١٩٦٧ «دينَ اليهود الأميركيِّين»[١]. وبعد أن أضحى پودهورتز مسانِدًا بارزًا لإسرائيل، صارَ بإمكانه أن يتبجَّح لا بمجرَّد حضوره عشاءً في البيت الأبيض بل بلقائه وجهًا لوجه tête - à - tête بالرئيس الأميركيّ للتداول في «المصالح القوميّة» !

بعد حرب حزيران كَرّستِ المنظماتُ الأميركيَّةُ اليهوديّة التقليديّة كلَّ وقتها لترسيخ التحالف الأميركيّ - الإسرائيليّ. وهذا تَضَمَّنَ بالنسبة إلى «اللُّجنة الأميركيّة اليهوديَّة» مراقبةً محليَّةً واسعةَ النطاق وذاتَ ارتباطات بالمخابرات الإسرائيليَّة والجنوبأفريقيَّة[٢]. وزادت التغطيةُ الصحفيَّةُ لأخبار إسرائيل في **نيويورك تايمز** بشكل حادّ بعد حزيران ١٩٦٧. ففي فهرس هذه الجريدة لعامَيْ ١٩٥٥ و ١٩٦٥ كان طولُ عمود المَداخل المخصَّصة لـ «إسرائيل» ٦٠ إنشًا، ولكنّ هذا العمود بلغ ٢٦٠ إنشًا عام ١٩٧٥. «حين أُريدُ أن أَشْعر بالتحسّن»، قال ڤِيزل وهو يفكِّر مليًا، «أتوجَّه إلى الموضوعات الإسرائيليَّة في **نيويورك تايمز**!»[٣]. وهناك عددٌ كبير من المثقفين التقليديِّين الأميركيِّين اليهود اكتشفوا فجاةً، شأنهم في ذلك شأن پودهورتز، «الدينَ» [أيْ إسرائيل] بعد حرب حزيران. فنوفِك يورد مثلاً أنَّ لوسي داڤيدوڤيتش، عميدةَ أدب الهولوكوست، قد كانت ذاتَ يوم «ناقدةً حادةً لإسرائيل»؛ وقد شجبتْ بعنف سنةَ ١٩٥٣ مطالبةَ إسرائيل ألمانيا بتعويضات في حين تتهرّب إسرائيل من مسؤوليَّتها حيال الفلسطينيِّين المهجَّرين، قائلةً: «لا يُمكن أن تكون المبادئُ الأخلاقيَّةُ بمثل هذه الميوعة». ولكنَّ داڤيدوڤيتش بعيْدَ حرب حزيران أضحَتْ «داعمةً متّقدة لإسرائيل»، وراحت تهلِّل لها لكونها «النموذجَ الجمعيَّ للصورة المثاليّة لليهوديّ في العالم المعاصر»[٤].

---

١ - **الخروج من الدائرة المألوفة** (نيويورك، ١٩٧٩)، ص ٣٣٥.

٢ - روبرت. ا. فريدمان Friedman: «الرابطة المعادية للتشهير تتجسَّس عليكَ»، في أسبوعيَّة **ڤيلاج ڤويس** (١١ أيار/مايو ١٩٩٣). عابدين جبارة Jabara: «الرابطة المعادية للتشهير: الحقوق المدنيَّة والأخطاء المدنيَّة»، في **كوڤرت أكشن** (صيف ١٩٩٣). مات آيزاكس: «جاسوس مقابل حقد»، في أسبوعيّة **أسْ أفْ ويكلي** (٢ - ٨ شباط/فبراير ٢٠٠٠).

٣ - ايلي ڤيزِلْ: **ضد الصمت**، مجموعةُ مقالات اختارها وحرّرها ايرڤن أَبْراهمسون (نيويورك، ١٩٨٤)، المجلّد الأوّل، ص ٢٨٣.

٤ - نوفِك: **الهولوكوست**، ص ١٤٧. لوسي س. داڤيدوڤيتش: **الحضور اليهوديّ** (نيويورك، ١٩٧٧)، ص ٢٦.

من المواقف الأثيرة للصهاينة الجدد* بعد عام ١٩٦٧ أن يَضَعوا - ضمنًا - دعمَهم الصريحَ لإسرائيلٍ محاصرةٍ (بحسب زَعْمهم)، بجوار جُبْن اليهود الأميركيِّين أثناء الـ هولوكوست. والحقّ أنَّهم كانوا يفعلون تمامًا ما تَفْعله النخبُ الأميركيَّة اليهوديَّة على الدوام: وهو السير على خطى السلطة الأميركيَّة. وقد أثبتت الطبقاتُ المتعلِّمةُ بنوعٍ خاصٍ مهارتَها في اتخاذ وِضْعات [پوزات] بطوليَّة. تأمَّلِ الناقدَ الاجتماعيَّ اليساريَّ - الليبراليَّ البارز ايرڤين هاو. ففي العام ١٩٥٦ دانت مجلةُ ديسَنْت [الانشقاق]، التي كان هاو يرأس تحريرَها، «العدوانَ المشتركَ على مصر» ووصفتْه «باللاأخلاقيّ»؛ ووَبَّختْ إسرائيلَ - على الرغم من كونها تقف وحيدةً حقًا - لِـ «تعصُّبها القوميّ الثقافيّ» ولـ «شعورها شبهِ المسيحانيّ [الخلاصيّ] بالمصير الجليّ»** «ولنزعتها الخفيّة إلى التوسُّع»[١]. ولكنْ بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣، حين بلغ الدعمُ الأميركيُّ لإسرائيل ذروته، نَشَرَ هاو بيانًا شخصيًا «مليئًا بالقلق الحادّ» في الدفاع عن إسرائيل المعزولة. وفيه نَدَبَ - بمحاكاةٍ ساخرةٍ تُشْبه أسلوبَ [الممثل الأميركيّ اليهوديّ] وودي ألِنْ - عالَمَ الأغيار الطافحَ بمعاداة الساميّة. ورثى لحقيقة أنّ إسرائيل في المنطقة العليا من مانهاتن نفسِها «لم تَعُدْ chic [مطابِقَةً للزيّ الحديث]»؛ فالجميع، باستثنائه هو، صار - بزعمه - عبدًا لماوتسي تونغ وفانون وغيڤارا[٢].

على أنّ إسرائيل من حيث هي رصيدٌ استراتيجيٌّ لأميركا لم تنجُ من النقّاد تمامًا. فبالإضافة إلى الاستهجان الدوليّ المتزايد لرفضها التفاوضَ من أجل الوصول إلى تسوية مع العرب وفقًا لقرارات الأمم المتحدة، ولدعمها الضاري

* - المقصود: الَّذين تحوَّلوا - وبدوافع انتهازيَّة في الغالب - إلى «دين» جديد هو الصهيونيَّة. (م)

** - المصير الجليّ manifest destiny: عقيدة تؤْمن بأنّ ثمّة نظامًا للتاريخ واضحًا ومحتومًا يتيح لشعبٍ أو عِرْقٍ التوسُّعَ الجغرافيَّ إلى حدود تُعتبر مِنْ حقِّهما، أو تُتيح لهما بَسْطَ سيادتها على مساحةٍ غيرِ محدّدةٍ من الأرض. (م)

١ - «هيجان في الشرق الأوسط»، في مجلة ديسَنْت (شتاء ١٩٥٧).

٢ - «إسرائيل: التفكير في ما لا يُمْكن التفكيرُ به»، في نيويورك ماغازين (٢٤ كانون الأول/ديسمبر ١٩٧٣).

للمطامح الأميركيّة الكونيّة[1]، كان على إسرائيل أن تتغلّب على المعارضة داخل الولايات المتحدة أيضًا. ففي أوساط الدوائر الأميركيّة الحاكمة كان ما يُسَمّى بـ «المُستَعْربين» يؤكّدون أنْ وَضْعَ البَيْض كلّه في سلة إسرائيل وتجاهُلَ النخب العربيّة قد أضعفا المصالحَ القوميّةَ للولايات المتحدة.

واعتَبَرَ البعضُ أنّ خضوعَ إسرائيل لقوة الولايات المتحدة، واحتلالَها أجزاءً من البلدان العربيّة المجاورةِ لها، لم يكونا عمليْن خاطئيْن من حيث المبدأ فحسب، بل كانا يُلْحِقان الضررَ أيضًا بمصالحها ذاتِها، لأنّ إسرائيل ستغدو معسكَرةً أكثرَ فأكثرَ ومتغرِّبةً عن العالم العربيّ أكثرَ فأكثرَ. غير أنّ «أنصار» إسرائيل الجدد الأميركيّين اليهود اعتبروا أنّ مثل هذا الكلام يُقاربُ التجديفَ: فإسرائيل مستقلّةً وفي حالة سلامٍ مع جيرانها أمرٌ لا قيمة له في نظرهم؛ كما أنّ إسرائيل متحالفةً مع تياراتٍ ساعيةٍ داخل العالم العربيّ إلى الاستقلال عن الولايات المتحدة كارثةٌ في رأيهم. وحدها إسبارطةٌ إسرائيليّةٌ مَدينةٌ بالفضل للقوّة الأميركيّة ستكون مفيدة، لأنّه في مثل هذه الحال فقط سيكون بمقدور الزعماء اليهود في الولايات المتحدة أن يتصرّفوا بوصفهم ناطقين باسم المطامح الإمبرياليّة الأميركيّة. وقد اقترح نعوم تشومسكي أنّه سيكون أكثر ملاءمةً أن يُسمّى «أنصارُ إسرائيل» هؤلاء «أنصارَ انحطاطِ إسرائيل الخلقيّ ودمارِها النهائيّ»[2].

لقد «تذكّرت» النخبُ اليهوديّةُ الأميركيّة الـ هولوكوستَ من أجل حماية رصيدها الاستراتيجي[3]. والتفسير المألوف لتصرّفهم هذا هو أنّهم ظنّوا، حين وقعتْ حربُ حزيران، أنّ إسرائيل في خطر مميت، وتملّكتْهم المخاوف من حدوثِ «هولوكوست ثانية». غير أنّ هذا الادّعاء لا يَصْمُد أمام التمحيص.

---

١ ـ نورمَنْ ج. فِنْكِلستين: الصورة والحقيقة في الصراع الإسرائيليّ ـ العربيّ (نيويورك، ١٩٩٥)، الفصلان ٥ و ٦.

٢ ـ نعوم تشومسكي: المثلث الرهيب (بوسطن، ١٩٨٣)، ص ٤.

٣ ـ تُضْيء مهنةُ إيلي ڤيزل الرابطةَ بين الـ هولوكوست وحرب حزيران. فعلى الرغم من أن ڤيزل نشر مذكراته عن أوشڤيتز، فإنّه لم ينل مديحَ الناس إلاّ بعد أن كَتَبَ مجلدَيْن يحتفيان بانتصار إسرائيل. (ڤيزل: والبحر ليس مليئًا أبدًا، ص ١٦).

خذْ مثلاً الحربَ العربيّةَ ـ الإسرائيليّةَ الأولى. فعشيّةَ إعلان «الاستقلال» عام ١٩٨٤، بدا التهديدُ ضدَ اليهود في فلسطين أكثرَ شؤمًا بكثير، وأعْلن دايفيد بن غوريون أنَ «٧٠٠ ألف يهوديّ» قد «وُضعوا في مواجهة ٢٧ مليون عربيّ ـ أيْ ما نِسْبتُه واحدٌ إلى أربعين». وانضمّت الولاياتُ المتحدة إلى الأمم المتحدة في فرض حظر لتصدير السلاح إلى المنطقة، معزِّزةً بذلك تفوُّقًا عربيًا واضحًا في ميزان التسلُّح. وانتابتِ الأميركيِّين اليهودَ مخاوفُ من وقوع «حلّ نهائيّ» نازيّ آخر. وإذ استهجنت «اللجنةُ الأميركيّة اليهوديّة» أنْ تسلُّحَ الدولُ العربيّةُ «تابعَ هتلر، المفتي [أمين الحسيني]، في حين تَفْرض الولاياتُ المتحدة حظرَ تَسلُّح على المنطقة»، فقد توقعتِ «انتحارًا [يهوديًا] جماعيًا وهولوكوستًا كاملةً في فلسطين». بل إنّ وزير الخارجيّة الأميركيّة جورج مارشال وجهازَ الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة (CIA) توقّعا علنًا هزيمةً يهوديّةً مؤكّدةً في حال نشوب الحرب[1]. وعلى الرغم من أنّ «الطرف الأقوى هو الذي ربح في الحقيقة» (بحسب المؤرِّخ بَني موريس) فإنَّ الأمر لم يكن نزهةً بالنسبة إلى إسرائيل. وخلال الشهور الأولى من الحرب، أوائلَ عام ١٩٤٨، ولاسيّما مع إعلان الاستقلال في أيار/مايو، قَدَّر ايغال يادين (رئيسُ عمليات الهاغاناه) حظوظَ إسرائيل في البقاء على قيد الحياة بنسبة ٥٠٪. ولم يكن بمقدور إسرائيل النجاة على الأرجح لولا صفقةُ سلاحٍ تشيكيّة سريّة[2]. وقد خسرتْ إسرائيل خلال سنةٍ واحدةٍ من القتال ٦٠٠٠ شخص، أيْ ما نسبتُه واحد بالمئة من مجموع سكّانها. فلماذا لم تصبح الـ هولوكوست بعد حرب ١٩٤٨ مركزَ اهتمام الحياة الأميركيّة اليهوديّة؟

وسرعانَ ما أثبتتْ إسرائيل أنّها أقلُّ هشاشةً عام ١٩٦٧ ممّا كانت عليه في صراعها من أجل الاستقلال عام ١٩٤٨. وكان القادة الإسرائيليُّون والأميركيُّون يَعْرفون مسبّقًا أنَّ إسرائيل سوف تنتصر بسهولة في حرب مع الدول العربيّة.

---

١ ـ كوفمان: شراكة غامضة، ص ٢٨٧، ٣٠٦ ـ ٣٠٧. ستيفن ل. شپيغل Spiegel: الأزمة العربيّة ـ الإسرائيليّة الأخرى (شيكاغو، ١٩٨٥)، ص ١٧، ٣٢.

٢ ـ بَني موريس Morris: ١٩٤٨ وما بعدها (أوكسفورد، ١٩٩٠)، ص ١٤ ـ ١٥. يوري بيالرْ Bialer: بين الشرق والغرب (كامبريدج، ١٩٩٠)، ص ١٨٠ ـ ١٨١.

واتّضحتْ هذه الحقيقةُ على نحوٍ صادم حين اكتسحتْ إسرائيلُ جيرانَها العربَ خلال أيام معدودة. وبحسب نوفِك: «كانت هناك إحالاتٌ صريحة قليلةٌ، إلى حدّ الاستغراب، على الهولوكوست، أثناء التعبئة الأميركيّة اليهوديّة لصالح إسرائيل قبل الحرب عام ٦٧»[١]. ولم تنشأ صناعةُ الهولوكوست إلاّ بعد أن قدّمتْ إسرائيل عرضَها الباهرَ لسيطرتها العسكريّة، ثم ازدهرتْ تلك الصناعةُ وسط أجواءٍ انتصاريّة إسرائيليّة متطرِّفة[٢]. والحق أنّ البنية التأويليّة المألوفة لا تستطيع أن تفسِّر هذه الأمور الشاذّة.

تؤكّد التفسيرات التقليديّة أنّ تراجعاتِ إسرائيل الأولى المذهلةَ، وخسائرَها الكبيرةَ أثناء حرب اكتوبر ١٩٧٣ ضد العرب، وعزلتَها الدوليَّةَ المتزايدةَ بعد هذه الحرب، قد فاقمتْ مخاوفَ اليهود الأميركيِّين من تعرّض إسرائيل للأخطار. ولذلك تحرّكت الذاكرةُ الهولوكوستيّة إلى وسط المسرح. ويقرِّر نوفِك كما هي عادته: «في أوساط اليهود الأميركيِّين... صار يُنظر إلى وضع إسرائيل معرَّضةً للأخطارِ ومعزولةً كأنّه شبيهٌ إلى حدّ مروِّع بوضع اليهود الأوروبيِّين قبل ثلاثين سنة. ولم 'يُقْلِع' الحديثُ في أميركا عن الهولوكوست فحسب، بل بات مُمأْسَسًا بصورةٍ متزايدة»[٣]. بيد أنّ إسرائيل في حرب ١٩٤٨ كانت قد بلغتْ شفا الكارثة، وأصيبتْ أنذاك بخسائر تفوق بكثيرٍ خسائرَها في حرب ١٩٧٣ من الناحيتين النسبيّة والمطلقة.

صحيح أنّ إسرائيل، باستثناء تحالفها مع الولايات المتحدة، لم تَعُدْ بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ شعبيّةً على المستوى الدوليّ. ولكنْ قارنِ الوضعَ أنذاك بحرب السويس عام ١٩٥٦. فقد زعمتْ إسرائيلُ والحركةُ اليهوديّة المنظّمة أنّ مصر هددتْ وجودَ إسرائيل ذاتَه عشيةَ اجتياح سيناء، وأنّ انسحابًا إسرائيليًا كاملاً من سيناء سيقوِّض بشكلٍ حتميٍّ «مصالحَ إسرائيل الحيويّة: أيْ بقاءَها حيّةً كدولة»[٤].

---

١ ـ نوفِك: **الهولوكوست**، ص ١٤٨.

٢ ـ انظرْ مثلاً: امنون كابليوك Kapeliouk: **نهاية الأساطير** (باريس، ١٩٧٥).

٣ ـ نوفِك: **الهولوكوست**، ص ١٥٢.

٤ ـ مجلة كومنتري: «رسالة من إسرائيل» (شباط/فبراير ١٩٥٧). وعلى امتداد أزمة السويس كانت كومنتري تَقْرع ناقوس الخطر من أنّ «بقاء إسرائيل على قيد الحياة هو في حدّ ذاته» في خطر.

ولكنّ المجتمع الدوليّ لم يتزحزحْ. وإذ أعاد أبا ايبان رواية أدائه الرائع في الجمعيّة العامّة للأمم المتحدة [عام ١٩٥٦]، تذكَّرَ بكآبةٍ رغم ذلك أنّ الجمعيّة العامّة «بعد أن صفّقتْ لخطابي تصفيقًا متواصلاً وقويًا ما لبثتْ أن صوّتتْ ضدنا بغالبيّة هائلة»[١]. وبرزت الولاياتُ المتحدة بوضوح في هذه الإجماع. ولم يكتفِ ايزنهاور بإجبار إسرائيل على الانسحاب، بل انحدر الدعمُ الشعبيُّ الأميركيّ لإسرائيل «انحدارًا مخيفًا» (بحسب قول المؤرِّخ بيتر غروز)[٢]. وفي المقابل زوّدت الولاياتُ المتحدةُ بعد حرب ١٩٧٣ إسرائيلَ بمساعداتٍ عسكريّةٍ ضخمة، تَفُوقُ بكثيرٍ ما كانت قد زوّدتْها به في السنوات الأربع السابقة مجتمعةً، وكان الرأيُ العامُّ الأميركيّ يَدْعم إسرائيل بصلابة[٣]. تلك كانت المناسبة التي «'أَقْلَعَ' فيها الحديثُ عن الهولوكوست في أميركا»، في وقتٍ كانت إسرائيل فيه أقلَّ عزلةً ممّا كانته عام ١٩٥٦.

والواقع أنّ بروز صناعة الهولوكوست إلى وسط الأحداث لا يعود إلى أنّ نكساتِ إسرائيل غيرَ المتوقَّعة أثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣، وحالةَ النبذ التي عانتْها بعد تلك الحرب، قد استدعت ذكرياتٍ عن «الحلّ النهائيّ النازيّ» [الهولوكوست]. بل الأحرى أنّ عرض السادات العسكريّ المؤثِّر في حرب أكتوبر هو الذي أقنَعَ صنَّاعَ القرار من النخب الأميركيّة والإسرائيليّة بأنّ تسويةً ديبلوماسيّةً مع مصر، تتضمّن عودةَ الأراضي المصريّة التي كانت إسرائيلُ استولت عليها في حزيران ١٩٦٧، لم يعد ممكنًا تجنُّبُها. وقد عمدتْ صناعةُ الهولوكوست إلى زيادة نِسَب الإنتاج لدعم قوّة إسرائيل التفاوضيّة. والنقطة الحاسمة هي أنّ إسرائيل بعد حرب ١٩٧٣ لم تكن معزولةً عن الولايات المتحدة : فتلك التطوُّرات حصلتْ من ضمن إطار التحالف الأميركيّ الإسرائيليّ، الذي لم يلْحقْه أيُّ أذى[٤]. ويدلّ السِّجلُّ التاريخيّ بشدّة على

---

١ ـ أبا ايبان: **شاهدٌ شخصيّ** (نيويورك، ١٩٩٢)، ص ٢٧٢.

٢ ـ بيتر غروز Grose: **إسرائيل في عقل اميركا** (نيويورك، ١٩٨٣)، ص ٣٠٤.

٣ ـ أ.ف.ك. أورغانسكي Organski: **صفقةُ الـ ٣٦ بليون دولار الرابحةُ** (نيويورك، ١٩٩٠)، ص ١٦٣، ٤٨.

٤ ـ فنكلستين: **الصورة والحقيقة**، الفصل ٦.

أنّ النُّخب الأميركيّة اليهوديّة لم تكن ستتذكّر الهولوكوست النازيّة بأكثر مما تذكرتْها بعد ١٩٤٨ أو بعد حرب ١٩٥٦ لو كانت إسرائيلُ وحيدةً حقًا بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣.

يقدِّم نوفِك تفسيرات إضافيّةً أقلَّ إقناعًا [من التفسيرات التقليديّة نفسها]. فإذْ يَسْتَشهد مثلاً بأكاديميِّين متديِّنين يهود، يَقْترح أن تكون «حربُ الأيام الستة قد قدّمتْ لاهوتًا شعبيًا من 'الهولوكوست والخلاص'». إنّ «نُورَ» نصرِ حزيران ١٩٦٧ عَوَّضَ عن «ظلام» الإبادة النازيّة: «لقد أعطى [ذلك النورُ] اللّهَ فرصةً ثانية !». وبحسب نوفِك أيضًا لم يكن بمقدور الـ هولوكوست أن تنبثق في الحياة الأميركيّة إلاّ بعد حزيران ١٩٦٧ لأنّ «إبادة اليهود الأوروبيِّين بلغتْ نهايةً إنْ لم تكن سعيدةً فعلى الأقلّ مقبولة». ولكنْ في التفسيرات اليهوديّة المألوفة لم تكن حربُ حزيران هي التي حددتْ بداية الخلاص، بل تأسيسُ كيان إسرائيل. فلماذا كان على الـ هولوكوست أن تَنْتظر خلاصًا ثانيًا؟ في هذا الصدد يؤكِّد نوفِك أنّ «صورة اليهود أبطالاً عسكريِّين» في حرب حزيران «عملتْ على محو الصورة النمطيّة عنهم بوصفهم ضحايا ضعافًا وسلبيِّين... وهي صورةٌ كَبَتَتْ في السابق النقاشَ اليهوديَّ للهولوكوست»[1]. غير أنّه فيما يخصّ الشجاعةَ الصِّرْف، كانت إسرائيل أثناء حرب ١٩٤٨ في أفضل حالاتها. كما أنّ حملة موشي دايان «الجريئة» و«البارعة» على سيناء عام ١٩٥٦ والتي استغرقتْ مئة ساعة قد جسّدتْ مقدَّمًا النصرَ الخاطفَ في حزيران ١٩٦٧. فلماذا تطلَّب الأميركيُّون اليهودُ حربَ حزيران «لمحو الصورة النمطيّة عن اليهود»؟

ليس مُقْنعًا تفسيرُ نوفِك لكيفيّةِ جعلِ النخب الأميركيّة اليهوديّة من الهولوكوست النازيّة هراوةً ايديولوجيّةً. تأمَّلْ هذَيْن المقطعين النموذجيَّيْن:

«حين سعى القادة الأميركيُّون اليهود إلى فهم أسباب عزلة إسرائيل وهشاشتها ـ وهي أسبابٌ قد تشير إلى علاجٍ ما للمشكلة ـ كان التفسيرُ الذي نال التأييدَ الأوسعَ هو أنّ اضمحلال ذكريات الجرائم النازيّة ضدّ اليهود وقدومَ جيل جديد يَجْهل الهولوكوست قد أدّيا إلى أن تَفْقد إسرائيلُ الدعمَ الذي تمتّعتْ به ذاتَ يوم».

---

١ ـ نوفِك: الهولوكوست، ص ١٤٩ ـ ١٥٠. ويَسْتشهد نوفِك هنا بالباحث اليهوديّ الشهير جايكوب نُوزْنِرْ Neusner.

«في حين لم تتمكّن المنظماتُ اليهوديَّةُ الأميركيَّة من فعل أيّ شيءٍ لتغيير الماضي القريب في الشرق الأوسط، والقليلِ جدًا للتأثير في المستقبل، فإنَّها استطاعت **حقًا** إحياءَ ذكريات الهولوكوست. وهكذا قَدَّمَ التفسيرُ القائلُ بـ «اضمحلال الذكريات» برنامجًا للعمل». [التشديد في الأصل][1].

لماذا نال «اضمحلالُ الذكريات»، كتفسيرٍ لمأزق إسرائيل بعد عام ١٩٦٧، «التأييدَ الأوسع»؟ إنّ تفسير نوفِك لهو بالتأكيد تفسيرٌ غير محتمل. فالواقع أنّ الدعم الذي كسبتْه إسرائيلُ أولَ الأمر، على نحوٍ ما يوثّق بغزارةٍ نوفِك نفسُه، كان ذا صلةٍ واهيةٍ بـ «ذكريات الجرائم النازيّة»[2]؛ وأيًا يكن الأمر فإنّ تلك الذكريات كانت قد اضمحلّتْ قبل وقتٍ طويل من فقدان إسرائيل الدعمَ الدوليّ. ولماذا لم تتمكّن النخبُ اليهوديّةُ إلاّ من فعل «القليل جدًا للتأثير» في مستقبل إسرائيل؟ فالحق أنّ هذه النخب كانت تتحكّم بشبكة [اتصالات] تنظيميّةٍ رائعةٍ بالتأكيد. ثم لماذا كان «إحياءُ ذكريات الهولوكوست» البرنامجَ الأوحدَ للعمل؟ لِمَ لَمْ تدعم [المنظماتُ اليهوديّة الأميركيّة] الإجماعَ الدوليَّ الذي طالب إسرائيلَ بالانسحاب من الأراضي التي احتلتْها في حرب حزيران، ولكنّه طالب أيضًا بإقامة «سلام عادل وشامل» بين إسرائيل وجيرانِها العرب (بحسب قرار الأمم المتحدة ٢٤٢)؟

إنّ تفسيرًا أكثر تماسكًا، وإنْ يكن أقلّ ترفُّقًا في الحكْم، هو أنّ النخب اليهوديّة الأميركيّة لم تتذكّر الهولوكوست النازيّة قبل حزيران ١٩٦٧ إلاّ حين كانت نافعةً لها سياسيًا. لقد سَبَقَ لإسرائيل، وهي الراعي الجديد لتلك النخب، أن أفادت من الهولوكوست النازيّة خلال محاكمة أيخمان[3]. ولمّا كانت هذه الهولوكوست قد أثبتتْ فائدتَها، فقد عَمَدتِ الحركةُ اليهوديّة الأميركيّة المنظَّمة إلى استغلالها بعد حرب حزيران. وبإعادة صياغةٍ مؤدلَجة أثبتتِ «الـ هولوكوست» (بأل التعريف كما

---

١ ـ المصدر نفسه، ص ١٥٣، ١٥٥.

٢ ـ المصدر نفسه، ص ٦٩ ـ ٧٧.

٣ ـ توم سيغيف Segev: **المليون السابع** (نيويورك، ١٩٩٣)، الجزء السادس.

أشرتُ سابقًا) أنّها السلاحُ المفضّلُ لصَرْف النقد عن إسرائيل. أما كيف كان ذلك بالضبط فهو ما سوف أبيِّنه عمّا قريب. غير أنّ ما يستحقّ التشديدَ هنا هو أنّ الـ هولوكوست أدّت بالنسبة إلى النخب الأميركيّة اليهوديّة الوظيفةَ التي أدتها إسرائيلُ سواءً بسواء: «فِيشةً» إضافيّةً لا تقدَّر بثمن في لعبة صراعٍ على النفوذ عاليةِ الرهانات. وكان القلقُ المُعلَن على ذاكرة الهولوكوست مختلَقًا اختلاقَ القلق المعلَن على مصير إسرائيل[1]. ولهذا سامحتِ الحركةُ اليهوديّةُ الأميركيّةُ المنظَّمة بسرعة، ونسيتْ بسرعة، إعلانَ رونالد ريغان الخَرِفَ عام ١٩٨٥ في مقبرة بِتْبرغ، ومفادُه أنّ الجنود الألمان (بمن فيهم أعضاءُ قسمِ «وافن» في جهاز SS) المدفونين هناك قد كانوا «ضحايا النازية أسوةً تمامًا بضحايا معسكرات الاعتقال!». ففي عام ١٩٨٨ قدّمتْ واحدةٌ من أبرز مؤسسات [إحياء ذكرى] الهولوكوست، واسمُها «مركز سايمون ڤيزِنْثال»، جائزةَ «إنسانيّ هذا العام» إلى ريغان تكريمًا لـ «دعمه المُخْلص لإسرائيل»؛ وفي عام ١٩٩٤ مَنَحتْه «الرابطةُ المعادية للتشهير»، وهي رابطةٌ موالية لإسرائيل، «مِشْعلَ الحريّة!»[2].

غير أنّ انفجار القسّ جَسِّي جاكسون قبل ذلك عام ١٩٧٩ حين قال إنّه «سئم وتَعِبَ من الاستماع إلى حديث الناس عن الهولوكوست» لم يُنسَ أو يسامَحْ بمثل هذه السرعة. والحق أنّ هجوم النخب الأميركيّة اليهوديّة على جاكسون لم

---

١ ـ كما أنّ القلق على الناجين من الهولوكوست النازيّة كان مختلَقًا هو الآخر: فحين كانوا عبئًا قبل حزيران ١٩٦٧ أُسكِتوا؛ وحين صاروا رصيدًا بعد حزيران ١٩٦٧ قُدِّسوا!

٢ ـ مجلة ريسپونس (كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٨). ولقد نهض المتاجِرون بالهولوكوست وأنصارُ إسرائيل ـ أمثالُ المدير القوميّ لـ «اللجنة المعادية للتشهير» أبراهام فوكسمان، والرئيسِ الأسبق لـ «اللّجنة الأميركيّة اليهوديّة» موريس أبرام، ورئيس «مؤتمر رؤساء المنظمات الأميركيّة اليهوديّة الرئيسيّة» كينيث بيالكِنْ، كي لا نَذْكر هنري كيسِنْجِر ـ للدفاع عن ريغان أثناء زيارته لمقبرة بِتْبُرغ. وقامت «اللّجنةُ الأميركيّة اليهوديّة»، في اجتماعها السنويّ المنعقِد في ذلك الأسبوع عينه، باستضافة وزير خارجيّة مستشار ألمانيا الغربيّة هَلْموت كول الموالي بوصفه «ضيفَ شرف». وبالروحيّة نفسها نَسَبَ مايكل برنباوم من «متحف الهولوكوست التذكاريّ في واشنطن» زيارةَ ريغان وتصريحاتِه تلك إلى «حسّ الأميركيِّين الساذج بالتفاؤل». (شافير: **علاقات غامضة**، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٤؛ وبِرنباوم: **بعد الكارثة والنصر**، ص ١٤).

يتوقفْ، وإنْ لم يكن سببُ الهجوم «ملاحظاتِه المعاديةَ للسامية»، وإنّما «مناصرته للموقف الفلسطينيّ» (على نحوِ ما كتب سيمور مارتن ليپست وايرل راب)[1]. وفي حالة جاكسون كان ثمّة عاملٌ إضافيّ [في إثارة الهجوم ضدّه]: فهو يمثِّل كتلاً سياسيّة كانت الحركةُ الأميركيّةُ اليهوديّةُ المنظّمة في حالة نزاع معها منذ أواخر الستينيّات. وفي هذه الصراعات أيضًا أثبتتِ الـهولوكوست أنّها سلاحٌ إيديولوجيٌّ فعّال.

لم يكن ضعفُ إسرائيل وعزلتُها المزعومان، ولا الخوفُ من «هولوكوست ثانية»، هي التي دَفعتِ النخبَ اليهوديّةَ إلى تفعيل صناعةِ الهولوكوست بعد حزيران ١٩٦٧، بل قوةُ إسرائيل المختَبَرة وتحالفُها الاستراتيجيُّ مع الولايات المتحدة. ويقدِّم نوفِك، وإنْ من دون قصدٍ، أفضلَ برهانٍ يَدْعم ذلك الاستنتاج. فلكي يبرهن أنّ اعتبارات القوّة، لا «الحلّ النهائيّ» النازيّ، هي التي قرّرتْ سياسةَ أميركا تجاه إسرائيل، يكْتب: «أنّه حين كانت ذكرى الهولوكوست في أطرى حالاتها في عقل القادة الأميركيّين ـ وكان ذلك في السنوات الخمس والعشرين التي أعقبتْ نهايةَ الحرب العالميّة الثانية ـ كانت الولايات المتحدة في أقلّ مراحلها دعمًا لإسرائيل... إنّ المساعدات الأميركيّة لإسرائيل لم تتحوّلْ من قَطْر هزيل إلى فيضانٍ جيّاش حين كانت إسرائيل تُعتبر ضعيفةً وعرضةً للأخطار، بل بعد أن عَرَضَتْ قوتها في حرب الأيام الستة» (والتشديد في الأصل)[2]. والحقّ أنّ هذه الخلاصة لَتَصحُّ على النخب الأميركيّة اليهوديّة، وبالقوّة ذاتها.

* * *

هناك أيضًا مصادر محليّة [أميركيّة] لصناعة الهولوكوست. فالتأويلاتُ السائدة تشير إلى بزوغ حديثٍ لـ «سياسات الهويّة» من جهة ولـ «الثقافة الضحويّة» من جهة أخرى. وعمليًا فإنّ كل هوية تَستَنِدُ إلى تاريخ معيَّنٍ من الاضطهاد؛ وتبعًا لذلك بَحَثَ اليهودُ عن هويّتهم الإثنيّة في الهولوكوست.

---

١ ـ سيمور مارتن ليپست Lipset وايرل راب Raab: **اليهود والمشهد الأميركيّ الجديد** (كامبريدج، ١٩٩٥)، ص ١٥٩.

٢ ـ نوفِك: **الهولوكوست**، ص ١٦٦.

ولكنْ مِنْ بين المجموعات التي تَشْجب حالَها الضَّحويّة، بمن في ذلك السُّود وذوو الأصول اللاتينيّة الأميركيّة والأميركيُّون الأصلانيُّون [«اليهود الحمر»] والنساء والمثليُّون والمثليّات، فإنَّ اليهود هم وحدهم غيرُ المحرومين في المجتمع الأميركيّ. والواقع أنَّ سياسات الهويّة والـ هولوكوست قد أحكمتْ سيطرتَها على اليهود الأميركيِّين لا بسببٍ من كونهم في منزلة الضحية، بل لأنَّهم **ليسوا** ضحايا.

فمع سقوط العوائق المعادية للسامية بعد الحرب العالميّة الثانية، صَعَدَ اليهودُ إلى القمة في الولايات المتحدة. وبحسب ليبْسَتْ وراب، فإنَّ دخل الفرد اليهوديّ هو تقريبًا ضعفُ دَخْل الفرد غير اليهوديّ؛ و١٦ من أصل ٤٠ أغنى أميركيّ هم من اليهود؛ و ٤٠٪ من الذين فازوا بجائزة نوبل الأميركيّة في العلوم والاقتصاد يهود؛ و٢٠٪ من الأساتذة في الجامعات الرئيسيّة هم أيضًا يهود؛ وكذلك الأمر بالنسبة إلى ٤٠٪ من الشركاء في الشركات القانونيّة الكبرى في نيويورك وواشنطن. والقائمة تطول[1]. وبعيدًا عن أنْ تشكّلَ الهويّةُ اليهوديّةُ عائقًا أمام النجاح، فإنَّها باتت علامةَ هذا النجاح. ومثلما أَبْعد عددٌ كبيرٌ من اليهود إسرائيلَ عنهم حين كانت تشكّل عبئًا عليهم ثم انتقلوا إلى «دين» الصهيونيّة حين باتت إسرائيل هذه رصيدًا لهم، فإنَّهم أَبْعدوا هويّتهم الإثنيّة عنهم حين كانت تشكّل عبئًا عليهم ثم انتقلوا إلى دين اليهوديّة حين باتت هويتُهم الاثنيّةُ هذه رصيدًا لهم.

والحقّ أنّ قصّة نجاح اليهود الأميركيِّين في هذا العالم شرّعتْ عقيدةً مركزيّة - ولعلّها العقيدةُ الوحيدة - في هويّتهم المكتسبة حديثًا بوصفهم يهودًا. فمن تُراه كان يستطيع بعد ذلك النجاح أن يفنِّد أنَّ اليهود كانوا شعبًا «مختارًا»؟ ويتدفّق شارلز سيلبرمان - وهو بنفسه يهوديّ «اكتَشَفَ» يهوديّته حديثًا - في كتابه: **شعب معيّن: اليهود الأميركيُّون وحيواتهم اليوم**، بالقول، كما يَجْدر بيهوديّ اكتشف يهوديتَه حديثًا أن يقول: «كان اليهود سيكونون أقلَّ من بشر لو أنَّهم تحاشَوْا أيّ مفهومٍ عن التفوُّق على الإطلاق»، و«من الصعوبة بمكان أن يَشْطب اليهودُ الأميركيُّون الإحساسَ بالتفوُّق على الإطلاق، أيًا كان الجهدُ الذي قد يبذلونه لكبته».

---

١ - ليبست وراب: **اليهود والمشهد...**، ص ٢٦ - ٢٧.

إنّ ما يَرِثه الطفلُ الأميركيُّ اليهوديُّ، بحسب الروائيّ فيليب روث، «ليس مجموعةَ قوانين، وليس مجموعةَ تعليمات، أو لغةً، وليس ربّاً أيضًا ... بل هو نوع من السيكولوجيا [الطبع النفسيّ]. ويمكن ترجمةُ هذه السيكولوجيا في ثلاث كلمات: 'اليهود هم أفضل'»[1]. وكما سيَبِين بعد قليل، كانت الـ هولوكوست هي النسخةَ المعكوسةَ (النغاتيف) عن نجاحهم الدنيويّ المتبَجِّح به: فقد أفادت في البرهنة على [شعورهم وزَعْمهم] بأنّهم مُصْطَفون.

بحلول السبعينيّات لم تَعُدْ معاداةُ السامية سمةً ملحوظةً في الحياة الأميركيّة. ومع ذلك شَرَعَ القادةُ اليهود بقرع ناقوس الخطر، محذِّرين من أنّ اليهود الأميركيِّين مهدَّدون بـ «نزعة عداءٍ للساميّة جديدةٍ» خبيثة[2]. وتضمَّنتِ الأدلةُ الأساسيّةُ لدراسةٍ بارزة قامت بها «الرابطةُ المعادية للتشهير» (ومهداةٍ «إلى مَنْ ماتوا لأنّهم كانوا يهودًا») مسرحيةً على جادة برودواي [في نيويورك] بعنوان Jesus Christ Superstar (يسوع المسيح النجم المتألّق) وصحيفةً صفراء منتهِكةً للعقائد السائدة «صَوَّرتْ كيسنجر متملِّقًا متذلِّلاً، جبانًا، مستأسِدًا، مُداهِنًا، طاغيةً، متسلِّقًا على السلّم الاجتماعيّ، مناوِرًا شريرًا، نفّاجًا يعاني إحساسًا بعدم الأمان، باحثًا غيرَ مبدئيٍّ عن السلطة» ـ وكلُّ هذه الأوصاف، بالمناسبة، أقلُّ من حقيقة هذا الرجل ![3].

هذه الهستيريا المختلَقَة بشأن عداءٍ جديدٍ للساميّة خَدَمَت، بالنسبة إلى الحركة اليهوديّة الأميركيّة المنظَّمة، أهدافًا متعدِّدة. فهي زادتْ مِنْ راسمال إسرائيل بوصفها الملاذَ الأخيرَ، إنِ احتاجَ وحين يحتاج الأميركيُّون اليهودُ إلى ملاذ. ثم إنّ المناشدةَ التي قامت بها المنظَّماتُ اليهوديّة، التي تَزْعم محاربةَ العداء للسامية، للتبرُّع بالأموال حظيتْ بقبولٍ أعظم. لقد لاحظ سارتر مرةً أنّ «المعادي للساميّة هو

---

١ ـ شارلز سيلبرمان Silberman: **شعب معيَّن**... (نيويورك، ١٩٨٥)، ص ٧٨، ٨٠، ٨١.

٢ ـ نوفِك: **الهولوكوست**، ص ١٧٠ ـ ٧٢.

٣ ـ ارنولد فورستر Forster وبنجامين ر. ابستاين Epstein: **عداء السامية الجديد** (نيويورك، ١٩٧٤)، ص ١٠٧.

في وضع غير سعيد لأنّه يحتاج حاجةً حيويةً إلى العدوّ الذي يَرْغب [أي المعادي للساميّة] في تحطيمه»[1]. ولكنّ العكس صحيح أيضًا في الحديث عن هذه المنظمات اليهوديّة. فمع تراجُع معاداة الساميّة انفجرتْ في السنوات الأخيرة منافسةٌ لا تَرْحم بين منظمات يهوديّة أساسيّة معنيّة بـ «الدفاع» [عن اليهود]، ولاسيّما بين «الرابطة المعادية للتشهير» و«مركز سايمون ڤيزنثال»[2]. ولمناسبة الحديث عن جمع الأموال، تَخْدم التهديداتُ المزعومة التي تواجه إسرائيلَ هدفًا مشابهًا. وفي هذا الصدد كتب الصحافيُّ الإسرائيليّ المحترم داني روبنستين بعد عودته من رحلة إلى الولايات المتحدة ما يلي: «إنّ الأمر المهم وفقًا لمعظم الناس في المؤسسة اليهوديّة هو التشديد مرةً بعد مرةً على الأخطار الخارجيّة التي تواجِه إسرائيل... إنّ المؤسّسة اليهوديّة في أميركا لا تحتاج إلى إسرائيل إلاّ بوصف هذه ضحيةً للهجوم العربيّ الوحشيّ. ومن أجل إسرائيل كهذه يُمْكن المرءَ أن يَحْصل على الدعم والمتبرِّعين والأموال.... الجميع يَعْرف الحسابَ الرسميَّ للإسهامات التي تُجمع في الدعوة اليهوديّة الموحَّدة في أميركا '، حيث يُستخدَم اسمُ إسرائيل ويَذْهب حوالى نصف المبلغ لا إلى إسرائيل بل إلى المؤسسات اليهوديّة في أميركا. هل هناك كلبيّةٌ أكبر؟». ونحن سنرى أنّ الاستغلال الذي تمارسه صناعةُ الهولوكوست لـ «ضحايا الهولوكوست المحرومين» هو أحدثُ تجلّيات هذه الكلبيّة، ومن الممكن أن نُثْبت أنّه الأقبح[3].

ولكنّ الدافع الخفيّ الرئيسيّ لقرع ناقوس خطر العداء للساميّة يقع في مكانٍ آخر. فكلّما تمتّع اليهود الأميركيُّون بنجاح أعظم في دنياهم، مالوا أكثر فأكثر إلى اليمين السياسيّ. وعلى الرغم من أنّ اليهود ظلّوا إلى يسار «الوسط» في ما يخصّ المسائلَ الاجتماعيّةَ كالأخلاق الجنسيّة والإجهاض، فإنّهم ازدادوا محافظةً في

---

١ - جان بول سارتر: **اليهوديّ والمعادي للساميّة** (نيويورك، ١٩٦٥)، ص ٢٨.

٢ - سايدال: **ليس التذكّر بالأمر المتاخر ابدًا**، ص ٢٢٢. سَتْ مَنوكِنْ Mnookin: «هل ستتعلّم شرطةُ نيويورك من لوس انجلوس الدرسَ الأخيرَ في مراعاة المشاعر؟»، في مجلة **فوروارد** (٧ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٠). وتورد المقالة أنّ «الرابطة» و«المركز» يتنافسان على «وكالة» برامج لتعليم «التسامح».

٣ - نعوم تشومسكي: **القراصنة والاباطرة** (نيويورك، ١٩٨٦)، ص ٢٩ - ٣٠ (لقول روبنستين).

السياسة والاقتصاد[1]. وترافقَ مع الانعطاف نحو اليمين انعطافٌ [انطواءٌ] إلى الداخل، إذ ازداد تخصيصُ اليهود مواردَهم للمشاغل اليهوديّة وحدها، غافِلين عن حلفائهم السابقين في أوساط المحرومين. وقد اتّضح هذا التوجُّهُ الجديدُ لليهود الأميركيِّين[2] في التأزمات المتزايدة بين اليهود والسود. فعدد كبير من اليهود، الذين كانوا متحالفين تقليديًا مع السود في مواجهة التمييز الانغلاقيّ في الولايات المتحدة، فكّوا تحالُفَهم الذي كان معقودًا أواخرَ الستينيّات في إطار «الحقوق المدنية» حين راحت «أهدافُ حركة الحقوق المدنية» ـ بحسب جوناثان كوفمان ـ «تنتقل من المطالبة بالمساواة السياسيّة والقانونيّة إلى المطالبة بالمساواة الاقتصاديّة». وتتذكّر شيريل غرينبرغ بالمِثْل أنه «حين اتّجهتْ حركة الحقوق المدنيّة شمالاً، نحو أحياء أولئك اليهود الليبراليِّين، اتّخذتْ مسألةُ الاندماج نبرةً مختلفة. فمع تلبُّس مشاغل اليهود بلَبُوس الطبقة بدلاً من العِرْق، هَرَبَ هؤلاء اليهودُ إلى الضواحي بالسرعة التي هرب فيها المسيحيُّون البيض من أجل تجنُّبِ ما اعتبروه تدهورًا في مستوى مدارسهم وأحيائهم». وحصلت الذروةُ التي لا تُنسى في إضراب معلِّمي مدينة نيويورك المتطاول عام ١٩٦٨، التي نَصَّبتِ اتحادًا مهنيًا يهوديًا في معظمه في مواجهة ناشطي جاليات السود الذين يكافحون من أجل ضبط

---

١ ـ لمسح حديثٍ للاستطلاعات الجديدة التي تُثْبت هذا التوجُّه، انظرْ: موراي فريدمان: «هل يتّجه اليهود الأميركيُّون إلى اليمين؟»، في مجلة كومنتري (نيسان/ابريل ٢٠٠٠). فعلى سبيل المثال، في التنافس الذي جرى عام ١٩٩٧ على منصبِ مختارِ مدينة نيويورك بين رودولف جولياني (وهو جمهوريّ ينادي بالقانون والنظام) وروث مسينغر (وهي ديموقراطية من التيار السائد)، أعطى ٧٥٪ من المقترعين اليهود صوتَهم لجولياني. ومن اللافت أنّه كان على اليهود، كي يصوّتوا لجولياني، أن يتجاوزوا الخطوطَ التقليديّة الحزبيّة [وذلك أنّ معظم اليهود تاريخيًا يدعمون الحزب الديموقراطيّ] والإثنيةَ (فمسينغر يهوديّ).

٢ ـ يبدو أنّ هذا التوجُّه الجديد سبَّبَتْه جزئيًا إزاحةُ القيادة اليهوديّة الكوزموبوليتانيّة القادمةِ من وسط أوروبا على يد يهود وصوليِّين متعصِّبين لضيَاعهم [جمع ضَيْعَة] من أصول أوروبيّة شرقيّة أمثال رئيس بلدية مدينة نيويورك «ادوارد كوتش» والمدير التنفيذيّ لجريدة نيويورك تايمز ا.م. روزنثال. جدير بالذكر في هذا المجال أنّ المؤرِّخين اليهود الذين انشقوا عن الدوغمائيّة [العقائديّة الجامدة] الهولوكوستيّة قد جاؤوا عادةً من أوروبا الوسطى ـ أمثال حنة أرنت، وهنري فريدلانبر، وراوول هيلبرغ، وارنو ماير.

المدارس التي يَرْسب تلامذتُها. وغالبًا ما تشير التقاريرُ الواردة عن ذلك الإضراب إلى عداءٍ للسامية هامشيّ، ولكنّ هيجان العنصريّة اليهوديّة ـ التي لم تكن بعيدة جدًا عن السطح قبل الإضراب ـ يُتذكّر بوتيرةٍ أقلّ. ومنذ عهد قريب بَرَزَ خبراء يهودٌ في الأمور العامة ومنظماتٌ يهوديّة في محاولةٍ لتفكيك برامج «العمل التشجيعيّ»*. وفي دعاوى أساسية أمام المحكمة العليا في الولايات المتحدة ـ مثل دوفونيس (١٩٧٤) وباك (١٩٧٨) ـ قامت «اللّجنةُ الأميركيّة اليهوديّة» و«اللّجنةُ المعادية للتشهير» و«المؤتمرُ الأميركيّ اليهوديّ» بإرسال رسائل ناصحة تُعارض العملَ التشجيعيّ، بما يَعْكس كما يبدو مشاعرَ اليهود التقليديّين(١).

ومع تحرُّك النخب اليهوديّة بعدوانيةٍ لحماية مصالحها الطبقيّة والإثنيّة، دَمَغَتْ هذه النخبُ كلَّ معارَضَةٍ لسياساتها المحافظة الجديدة بدمغة «العداء للسامية». وهكذا أكّد رئيسُ «اللجنة المعادية للتشهير» نايثان پِرْلماتر أنّ «العداء الحقيقيّ للساميّة» في أميركا يتكوّن من إجراءات سياسيّة «أكّالةٍ للمصالح اليهوديّة» من مِثْل العملِ التشجيعيّ، والتقليصِ من موازنة الدفاع، والانعزاليّةِ الجديدة، فضلاً عن معارضةِ القوّة النوويّة بل ومعارضةِ الإصلاحِ الانتخابيّ أيضًا!(٢).

في هذا الهجوم الإيديولوجيّ أدّت الـ هولوكوست دورًا حاسمًا. وكان الأمر الأوضح أنّ استحضارَ حوادثِ الاضطهاد التاريخيّ قد حَرَفَ النقدَ المعاصر [الموجّه إلى المنظمات اليهوديّة الأميركيّة ولإسرائيل]. بل كان بإمكان اليهود [الأميركيّين] أن يُومئوا إلى «نظام المحاصصة»، الذي عانوه في السابق، ذريعةً لمعارضة برامج العمل التشجيعيّ. ولكنّ بنية الهولوكوست، في ما يتعدى ذلك،

---

* ـ affirmative action programs: خططٌ لتشجيع تمثيل الأقليّات والنساء في الوظائف وغير ذلك. (م)

١ ـ انظرْ مثلاً جاك سالزمان Salzman وكورنلّ وَسْت West (محرِّران): **الصراعات في الأرض الموعودة** (نيويورك، ١٩٩٧)، ولاسيّما الفصول ٦، ٨، ٩، ١٤، ١٥. (كوفمان ص ١١١؛ وغرينبرغ ص ١٦٦). وينبغي التأكيد مع ذلك أنّ أقليّة صخّابة من اليهود انشقتْ عن ذلك الاندفاع نحو اليمين.

٢ ـ نايثان پرلماتر وروث آن پرلماتر Perlmutter: **العداء الحقيقيّ للساميّة في أميركا** (نيويورك ١٩٨٢).

فهمتِ «العداءَ للسامية» بوصفها حَصْرًا: كراهيةَ الأغيار غيرَ العقلانيَّة لليهود، واستبعدتْ إمكانيةَ أن يكون العداءُ لليهود مستنِدًا إلى صراع حقيقيّ على المصالح (وسأتحدَّثُ لاحقًا عن هذا الموضوع). وهكذا كان استدعاءُ الـ هولوكوست حيلةً من أجل نزع الشرعيّة عن كل نقدٍ لليهود: فإذا بمثل هذا النقد لا يمكن أن يكون نابعًا إلاّ من كراهيةٍ مَرَضيّةٍ.

وكما تذكّرتِ الحركةُ اليهوديّةُ المنظّمةُ الـ هولوكوستَ حين بلغتِ القوةُ الإسرائيليّةُ الذروةَ، فإنّها تذكرت الـ هولوكوستَ حين بلغتِ القوّةُ اليهوديّةُ الأميركيّةُ الذروةَ. ولكنّ الحجّة كانت في الحالَيْن أنّ اليهود واجهوا «هولوكوستًا ثانية» وشيكة. وهكذا كان بمقدور النخب الأميركيّة اليهوديّة أن تتّخذ وضْعات [پوزات] بطوليّة، فيما انهكمتْ في أعمالِ استنساد جبانة. فنورمَنْ پودهورتز مثلاً ركّز على التصميم اليهوديّ الجديد بعد حرب حزيران ١٩٦٧ «على مقاومة أيّ واحدٍ يريدُ بأيّ طريقةٍ وإلى أيّ حدٍّ ولأيّ سببٍ كان أن يحاول أن يؤذينا... من الآن فصاعدًا سنحتفظ بمواقعنا»[1]. وكما أَلْزَمَ الإسرائيليُّون، الذين دجّجَتْهم الولاياتُ الأميركيّة بالسلاح، الفلسطينيِّين الجامحين حدَّهم، أَلْزَم الأميركيُّون اليهودُ السودَ الجامحين حدَّهم.

الاستبدادُ بمَنْ هم أقلُّ الناس قدرةً على حماية أنفسهم: ذلك هو المضمون الحقيقيّ للشجاعة المستعادة للحركة الأميركيّة اليهوديّة المنظّمة.

---

١ - نوفِك: الهولوكوست، ص ١٧٣ (والقولُ لپودهورتز).

الفصل الثاني

المحتالون والمتاجِرون والتاريخ

يلاحِظ الكاتبُ الإسرائيليّ المعروف بواس ايفرون أنّ «الوعي بالهولوكوست» هو في الواقع «عمليةُ تلقينٍ دعائيّةٌ رسميّةٌ، تَمْخض شعاراتٍ وتصوُّراتٍ زائفةً عن العالم، وليس هدفُها فهمَ الماضي على الإطلاق بل التلاعبُ بالحاضر». إنّ الهولوكوست النازيّة بحدّ ذاتها لا تَخْدم أيّ برنامج أهدافٍ سياسيٍّ محدَّد؛ فبإمكانها، وبالسهولة ذاتها، أن تَدْفع إلى معارضة السياسة الإسرائيليّة أو إلى دعمها. ومع ذلك أصبحتْ «ذكرى الإبادة النازيّة»، بعد أن مُرّرتْ من خلال مَوْشورٍ إيديولوجيٍّ، «أداةً فعالةً في يد القيادة الإسرائيليّة واليهودِ في الخارج»[1]، على حدّ تعبير ايفرون. وهكذا أصبحت الهولوكوست النازيّة هي الـ هولوكوست.

هناك مذهبيّتان جامدتان [دوغماوان] مركزيّتان تشكّلان أساس هيكل الهولوكوست: (١) أنّ الهولوكوست تشكّل حدثًا تاريخيًا فريدًا بصورة مُطْلقة؛ (٢) أنّ الهولوكوست تشكّل ذروةَ كراهية أبديّةٍ لاعقلانيّة يكنُّها الأغيارُ لليهود. ولكنْ لم

---

١ ـ بواس ايفرون Evron: «الهولوكوست: استخدامات الكارثة»، في راديكال اميركا (تموز ـ آب/يوليو ـ اغسطس ١٩٨٣)، ص ١٥.

تَبْرز أيٌّ من هاتَيْن المذهبيتَيْن في الخطاب العامّ إطلاقًا قبل حرب حزيران ١٩٦٧؛ وبالرُّغم من أنَّهما قد أصبحتا واسطةَ العقد في أدبيَّات الهولوكوست فإنَّ أيًا منهما لم تَبْرز على الإطلاق في الأبحاث الأكاديميَّة الحقيقيَّة حول الهولوكوست النازيَّة[١]. ومن ناحية أخرى، أدّت كلٌّ من هاتَيْن المذهبيتَيْن إلى ظهور خطوط مهمّة في اليهوديّة والصهيونيّة.

ففي أعقاب الحرب العالميّة الثانية، لم تُطرح الهولوكوستُ النازيّةُ بوصفها حدثًا خاصًا باليهود، دعْ عنكَ أنَّها فريدة تاريخيًا. وَجَهدت الحركةُ اليهوديَّةُ المنتظمةُ بشكل خاصّ في أن تضعها في سياق كونيّ. ولكنْ بعد حرب حزيران أُعيدتْ صياغةُ الحلّ النهائيّ [الهولوكوست] جذريًا. يتذكّر جايكوب نُوزنرْ في هذا الصدد أنَّ «أولَ وأهمُّ ادعاءٍ انبثق من حرب العام ١٩٦٧ واصبح شعارًا لليهوديّة الأميركيّة» هو أنَّ «الهولوكوست... فريدةٌ، وليس لها نظيرٌ في التاريخ الإنسانيّ»[٢]. وكتب المؤرِّخ دايڤيد ستانَرْد مقالةً منيرةً سَخرَ فيها من «صناعة صغيرة من كَتَبةِ سيَرِ قدِّيسي الهولوكوست الذين يؤكِّدون فرادة التجربة اليهوديّة بكلّ ما مَلَكَتْ أيديهم من طاقات اللاهوتيِّين المتعصبِّين وبراعتهم»[٣]؛ وذلك لأنَّ المذهبيَّة الجامدة القائلة بالفرادة منافيةٌ للمعقول بعد كل حساب.

على أبسط المستويات، يمكن القولُ إنَّ أيَّ حدث تاريخيّ هو حدثٌ فريد، وإنْ كان ذلك بحكم زمن الحدث ومكانه فقط؛ كما أنَّ كل حدثٍ تاريخيّ يَحْمل في طياته مقوِّماتٍ تُميِّزه عن غيره، بالإضافة إلى مقوِّماتٍ يَشْترك فيها مع أحداث تاريخيَّة أخرى. أما ما تخرج به الـ هولوكوست عن القياس فهو أنَّ فرادتها تُعتبر أمرًا محسومًا بصورة فاصلة. ولنا أن نتساءل هنا: أيُّ أحداث تاريخيَّة أخرى

---

١ ـ للاطلاع على التمييز بين أدبيّات الهولوكوست، والأبحاث الأكاديميّة المختصّة بالهولوكوست النازيّة، راجعْ فنكلستين وبيرن: **محاكمة امة**، القسم الأول، الجزء ٣.

٢ ـ جايكوب نوزنِر Neusner (محرِّرًا): **اليهوديّة في اميركا زمنَ الحرب الباردة، ١٩٤٥ - ١٩٩٠**، المجلد ٥، ii: **في أعقاب الهولوكوست** (نيويورك، ١٩٩٣)، ص viii.

٣ ـ دايڤيد ستانرد Stannard: «الفرادة نَفْيًا» في كتاب الان روزنباوم Rosenbaum (محرِّرًا): **هل الهولوكوست فريدة؟** (بولدر، ١٩٩٦)، ص ١٩٣.

صيغت، إلى حدٍّ كبير، على أساس فرادتها المطلقة؟ فالحقّ أنّ المقوّمات المميِّزة لِ الـ هولوكوست تُعزَل في العادة من أجل وضع هذا الحدث في فئة منفصلة عمّا عداها انفصالاً تامًا. ومع هذا فمن غير الواضح أبدًا لماذا يجب أن تُعتبَر المقوّماتُ الأخرى الكثيرة المشتركةُ [مع الأحداث الأخرى] مقوّماتٍ تافهةً بالمقارنة.

يتفق كلُّ كتّاب الهولوكوست على أنّ الـ هولوكوست فريدةٌ، ولكنّ قلّةً (إنْ كان ثمّةَ أيٌّ منهم) يتفقّون على سبب ذلك. وفي كلّ مرّةٍ تُدحض فيها حجّةٌ تحاول أن تُثْبت فرادةَ الهولوكوست دحضًا علميًا، تُطرَح حجّةٌ جديدة بدلاً منها. ووفقًا لِ جان - ميشيل شومون فإنّ نتائج هذا الأمر هي حججٌ متعدِّدةٌ ومتضاربةٌ تُبطل إحداها الأخرى، ويضيف: «المعرفة هنا لا تتراكم، بل إنّ كل حجّة جديدة تنطلق من الصفر» لتحسين الحجّة السابقة[1]. وبمعنى آخر: إنّ الفرادة أمرٌ مفروغٌ منه في بنية الهولوكوست الفكريّة؛ وإثباتُ هذه الفرادة هو المهمّة المطلوبة؛ وأمّا إثباتُ العكس فيعادِل إنكار حصول الهولوكوست برمّتها. ولعلّ المشكلة هنا تقع في المقدِّمة [المنطقيّة] لا في الإثبات. فحتى لو سلّمنا بفرادة الـ هولوكوست، فما الفرق الذي سينشأ عن ذلك؟ وإذا كانت الهولوكوست النازيّة تقع في المنزلة الرابعة أو الخامسة، لا في المنزلة الأولى على مقياس الكوارث الشبيهة بها، فكيف سيغيِّر ذلك من فهمنا للأمور؟

كان أحدثُ الإصدارات في مسابقة فرادة الهولوكوست كتابَ ستيفن كاتز **الهولوكوست في السياق التاريخيّ**. فإذ يَستشهد كاتز بما يقارب ٥٠٠٠ مرجع في الجزء الأول من مشروعِ دراسةٍ مؤلّفةٍ من ثلاثة أجزاء، يقوم بمسحٍ عامٍ للتاريخ الإنسانيّ لكي يُثْبت أنّ «الهولوكوست فريدة ظاهراتيًا، بحكم أنّه لم يحدث أبدًا من

١ - جان - ميشيل شومون Chaumont: **تنافس الضحايا** (باريس، ١٩٩٧)، ص ١٤٨ - ١٤٩. وتحليل شومون للجدال الذي دار حول «فرادة الهولوكوست» تحليل بارع، ولكنّ أطروحته المركزيّة غير مُقْنعة، في المشهد الأميركيّ على الأقل. فوفقًا لشومون نشأتْ ظاهرةُ الهولوكوست من سعي الناجين المتأخِّرِ إلى الحصول على اعترافٍ عامٍ بمعاناتهم السابقة، ولكنْ لم يكن للناجين أيُّ دورٍ يُذْكر في دفع الـ هولوكوست الدفعةَ الأولى إلى مسرح الأحداث.

قبلُ أنْ شَرَعتْ دولةٌ ـ وعن مبدإ مقصود وسياسةٍ فعليَّةٍ ـ بالإبادة الجسديَّة لكل رجلٍ وامرأة وطفلٍ ينتمون إلى شعب معيّن». ولكي يُوضح كاتز أُطروحتَه يَشْرح ما يلي: «إذا افترضنا أنَّ ϕ تتميَّز بالمقوِّم X، فإنَّ من الممكن أن تشترك ϕ بالمقوِّمات A ,B ,D......X مع Δ ولكنها لا تشاركها المقوِّمَ C. ومن الممكن أن تشارك ϕ بالمقوِّمات A ,B ,D.... X مع كامل مقوِّمات Δ، ولكن بدون المقوِّم C. وهنا يظهر أنَّ الأمر الجوهريَ هو أنّ ϕ تتميَّز بِـ C وحدها... إذا كانت π تفتقر لِـ C فهي ليست ϕ.... وبالتعريف، لا يمكن أن يكون هناك استثناءات لهذه القاعدة. إذا كانت Δ تشترك بالمقوِّمات A ,B ,D.... X مع ϕ فإنَّها قد تتشابه مع ϕ في هذهِ المقوِّمات ومقوِّمات أخرى... ولكنْ في ما يتعلَّق بتعريفنا للفرادة فإنَّ أيَّ جزء من Δ، أو Δ بكاملها، إذا نقصا المقوِّم C، فلن يكونا ϕ..... وبالطبع فإنَّ ϕ بكليتها هي أكثر من C، ولكنَّها لا يمكن أن تكون ϕ بدون C». وترجمةُ هذا الكلام: أنَّ أيَّ حدثٍ تاريخيَّ يحتوي على مقوِّمٍ مميَّزٍ هو حدثٌ تاريخيٌّ مُميَّز. ولتجنُّب أيِّ تشويش، يستفيض كاتز ويوضح أنَّه يَسْتخدم مصطلحَ «ظاهراتيًا» «بمعنى مغاير لِـ هوسرل وشوتز وشيلر وهايديغر وميرلو ـ پونتي». وترجمة هذا الكلام: أنَّ مشروع كاتز مغايرٌ للعقل بصورة ظاهرة[1]. وحتى لو كانت الدلائلُ تدعم أطروحةَ كاتز الرئيسيَّةَ، وهذا ما لم يحدث، فإنَّها تُثْبت فقط أنَّ الـ ـهولوكوست احتوتْ مقوِّمًا مميَّزًا. ولكنْ سيكون من الغريب ألاَّ يكون فيها مقوِّم مُميَّز. ويَسْتنتج شومون أنَّ دراسة كاتز هي في الواقع «ايديولوجيا» متنكِّرةٌ بزيِّ «العِلْم». وهذا أمرٌ سنتناوله لاحقًا[2].

لا يَفْصل الادعاءَ «بفرادة الهولوكوست»، عن الادِّعاء بأنَّه من غير الممكن فهمُ الـ ـهولوكوست عقلانيًا، إلاَّ قيدُ أنملة. فإذ لم يكن لـ الـ ـهولوكوست سابقةٌ في التاريخ، فيجب أن تقف فوق التاريخ، ولا يمكن إذّاك فهمُها تاريخيًا. إنَّ الـ ـهولوكوست [بحسب مدَّعي الفرادة] فريدةٌ لأنَّها متعذِّرةٌ على التفسير، وهي متعذِّرةٌ على التفسير لأنَّها فريدة.

---

١ ـ ستيفن ت. كاتز: **الهولوكوست في السياق التاريخيّ** (اوكسفورد، ١٩٩٤)، ص ٢٨، ٥٨، ٦٠.

٢ ـ شومون: **تنافس الضحايا**، ص ١٣٧.

لقد دعا نوفِك هذا الأمرَ بـ «إضفاء القدسية على الهولوكوست»، وأوسَعُ مموِّني هذا الغموض تجربةً هو إيلي فيزل. فبالنسبة إلى فيزل، على نحوٍ ما يلاحظ نوفِك مُحقًا، الـ هولوكوست دينُ «الغموض» فعليًا. ولهذا يترنَّم فيزل بأنَّ الهولوكوست «تقود إلى العماء»، و«تنفي كلَّ الأجوبة»، و«تقع خارج التاريخ، إنْ لم يكن وراء التاريخ»، و«تستعصي على المعرفة وعلى الوصف»، و«لا يُمْكن شرحُها أو تمثُّلها»، و«لا يمكن أبدًا فهمُها او نقلُها»، كما أنَّها علامةٌ على «تدمير التاريخ» و«على طفرةٍ كونيَّة». وحدَه الكاهن الناجي (اقرأْ: وحدَه فِيزل) مُؤهَّل لاكتناه غموضها! ومع ذلك يجاهر فيزل بأنَّ لغز الـ هولوكوست «لا يمكن توصيلُه [بالكلام]»؛ و«لا يمكننا مجردُ الحديثِ عنه». إذنْ، مقابلَ أجرٍ ثابت مقداره ٢٥.٠٠٠ دولار (بالاضافة إلى سيارة ليموزين مع سائق) يُحاضِر فيزل ليقول إنَّ «سرَّ حقيقة أوشفيتز يكمن في الصمت!»(١).

من هذا المنظور، يؤدِّي فَهْمُ الـ هولوكوست عقلانيًا إلى إنكارها. وذلك أنَّ العقلانيَّة تُنكر فرادةَ الـ هولوكوست وغموضَها. ومقارنة الـ هولوكوست بمعاناة [المذابح] الأخرى تشكِّل، بالنسبة إلى فيزل، «خيانةً كاملةً للتاريخ اليهوديّ»(٢). قبل بضع سنوات نَشَرتْ محاكاةٌ ساخرةٌ لصحيفة فضائحيّة من نيويورك عنوانًا هو التالي: «مايكل جاكسون، و٦٠ مليون شخص آخرين، قَضَوا في هولوكوستٍ نوويّة*». [وبعد يومٍ] ظَهَرَ في زاوية رسائل القرّاء ردُّ احتجاجٍ غاضب من فيزل:

---

١ ـ نوفِك: **الهولوكوست**، ص ٢٠٠ ـ ٢٠١، ٢١١ ـ ٢١٢. فِيزل: **ضد الصمت**، المجلّد ١، ص ١٥٨، ٢١١، ٢٣٩، ٢٧٢؛ المجلّد ٢، ص ٦٢، ٨١، ١١١، ٢٧٨، ٢٩٣، ٢٤٧، ٣٧١؛ المجلّد ٣، ص ١٥٣، ٢٤٣. إيلي فِيزل: **كل الانهار تصبّ في البحر** (نيويورك، ١٩٩٥)، ص ٨٩. ومصدر المعلومات حول الأجر الذي يتقاضاه فِيزل لقاء محاضراته هو من روث ويت، من مكتب المحاضرات في مؤسَّسة بناي برثْ. ووفقًا لفِيزل فإنَّ «الكلمات هي نوع من المقاربة الافقيّة، في حين انَّ الصمت يزوِّدك بمقاربةٍ عموديّة؛ فانت تغطس فيه». تُرى، أيَنْزل فيزل إلى محاضراته بالمظلّة؟

٢ ـ فيزل: ضد الصمت، المجلّد ٣، ص ١٤٦.

* ـ يسخر الخبرُ من اهتمام الصحافة بالمشاهير فقط. وفحوى العنوان أنَّه لو حدثتْ حربٌ نوويّة فستوجِّه الصحافةُ اهتمامها إلى المشاهير وحدهم، وستتحدَّث عن ملايين الناس بوصفهم أرقامًا فقط. (م)

«كيف يجرؤ الناسُ على وصف ما حدث أمس بالهولوكوست؟ لقد كانت هناك هولوكوستٌ واحدةٌ فقط...». وأثْبت فيزل في مذكّراته المنشورة حديثًا أنّ بإمكان الحياة أن تحاكي الهراءَ أيضًا، إذ أنّب شمعون بيريس لأنّه تحدّث «بلا تردُّد عن 'الهولوكوستيْن الاثنتين' في القرن العشرين: آوشفيتز وهيروشيما؛ ما كان عليه قولُ ذلك»[1]. ويُعلن أحدُ شعارات فيزل المفضّلة أنّ «كونيّة الهولوكوست تَكْمن في فرادتها»[2]. ولكن إذا كانت الـ هولوكوست فريدةً فرادةً لا تقارَن ولا تُفهم، فكيف لها إذّاك أن تَحْمل بعدًا كونيًا؟

---

١ ـ فيزل: والبحر... ص ٩٥. وقارنْ بين الفقرتَيْن الإخباريتَيْن التاليتَيْن:
«أثار كين ليفنجستون، وهو عضوٌ سابق في حزب العمّال ومرشّحٌ مستقلٌّ لانتخابات عمدة لندن، سخطًا شديدًا لدى يهود بريطانيا بقوله إنّ الراسماليّة الكونيّة قد تسببتْ بوقوع عددٍ من الضحايا مساوٍ لعدد ضحايا الحرب العالميّة الثانية: **'في كلّ سنة يتسبّب النظامُ الماليُّ العالميُّ بمقتل عددٍ من الناس يزيد عن عدد القتلى في الحرب العالميّة الثانية، ولكنّ كان هتلر مجنونًا على الأقلّ، كما تعلمون'**.... وردًا على ذلك قال جون بترفيل، وهو عضوٌ محافِظ في البرلمان: **'إنّ هذا الكلام هو اهانة لكلّ اولئك الذين قُتلوا واضطُهدوا على يد ادولف هتلر'**. وأضاف السيد بترفيل إنّ إدانة السيد ليفنجستون للنظام الماليّ العالميّ يَحْمل بلا ريب مضامين لاساميّة. (مقالة بعنوان «كلام ليفنجستون يُغضب اليهود»، في صحيفة انترناشونال هيرالد تريبيون، ١٣ نيسان/ابريل ٢٠٠٠).

«اتّهم الرئيس الكوبيّ فيديل كاسترو... النظام الراسماليّ بالتسبُّب المتواصل بوفياتٍ تصل إلى حجم الوفيات التي سقطتْ في الحرب العالميّة الثانية، وذلك لتجاهله حاجات الفقراء: **'إنّ الصور التي نراها لأمهات وأطفال في مناطق باكملها من افريقيا ترزح تحت سياط الجفاف، وتحت سياطِ كوارثَ اخرى، تذكّرنا بمعسكرات الإبادة في المانيا النازيّة'**. وقال القائد الكوبيّ مشيرًا إلى محاكمات جرائم الحرب بعد الحرب العالميّة الثانية: **'تَنْقصنا نوريمبرغ جديدة للحُكْم على النظام الاقتصاديّ المفروضِ علينا، حيث يموت من الجوع ومن الامراض التي يُمْكن شفاؤها في كلّ ثلاث سنوات عددٌ من الرجال والنساء والأطفال يزيد عن عدد القتلى في الحرب العالميّة الثانية'**.... وفي مدينة نيويورك قال ابراهام فوكسمان، مديرُ الرابطة المعادية للتشهير....: **'إنّ الفقر مسالة جديّة، وهو مؤلم وربما يكون قاتلاً، ولكنّه ليس الهولوكوست، وليس معسكرات إبادة'**. (تقرير للصحفيّ جون رايس بعنوان: «كاسترو يهاجم الراسماليّة بضراوة»، ونُشر في اسوشيايتد پرس، ١٣ نيسان/أبريل ٢٠٠٠).
٢ ـ فيزل: ضد الصمت، المجلّد ٣، ص ١٥٦، ١٦٠، ١٦٣، ١٧٧.

إنّ الجدال حول فرادة الهولوكوست هو جدالٌ عقيم. بل إنّ الادّعاءات بفرادتها أخذتْ تشكّل نوعًا من «الإرهاب الفكريّ» (على حدّ تعبير شومون). وبات على مَنْ يمارِسُ الإجراءاتِ المقارِنةَ الاعتياديّةَ الخاصّة بالبحث العلميّ أن يُدْخِلَ أولاً ألفَ توضيحٍ وتوضيحٍ لتفادي التعرُّض للاتّهامِ بِـ «تَتْفيه الـ ـهولوكوست»[1].

من المعاني الضمنيّة لادّعاء فرادة الهولوكوست أنّ الـ ـهولوكوست كانت شرًا بشكلٍ فريد، وأنّ معاناة الكوارث الأخرى ـ على فظاعتها ـ لا تقارَن بها. وينتقد مناصرو فرادة الهولوكوست عادةً هذه النتيجة الضمْنيّة، ولكنّ اعتراضاتهم هي اعتراضات مخادعة[2].

إنّ الادّعاءات بفرادة الهولوكوست عقيمةٌ فكريًا ومخزيةٌ أخلاقيًا، ولكنّها تتواصل مع ذلك. والسؤال هو: لماذا؟ أولاً لأنّ المعاناة الفريدة تَمْنح [صاحبَها] حظوةً فريدةً. ووفقًا لجايكوب نوزْنِرْ فإنّ شرّ الهولوكوست الفريدَ لا يُفْرِد اليهودَ بعيدًا عن الآخرين فحسب، بل أيضًا يَهَبُ اليهودَ «الأحقيّةَ بمطالبة هؤلاء الآخرين [بأمورٍ ما]». ويرى ادوارد الكِزاندِر أنّ فرادة الـ ـهولوكوست «رأسمالٌ أخلاقيّ»؛ وعلى اليهود أن «يطالبوا بالسيادة» على هذهِ «الملْكيّة النفيسة»[3].

---

١ ـ شومون: **تنافس الضحايا**، ص ١٥٦. ويشير شومون أيضًا إلى نقطة كشّافة مفادُها أنّ الادّعاء بشرِّ الـ ـهولوكوست الذي يستعصي على الفهم لا يُمْكن أن يتماشى مع الادّعاء المرافِقِ بأنّ مرتكبيها قد كانوا أشخاصًا طبيعيِّين تمامًا (ص ٣١٠).

٢ ـ كاتز: **الهولوكوست**، ص ١٩، ٢٢. ويعلّق نوفِك بالقول: «إنّ الزعم بأنّ التأكيد على فرادة الهولوكوست ليست ضربًا من المقارنة البغيضة يُنتج التباسًا منهجيًا. فهل يُمْكن احدًا... ان يشكّك بأنّ ادّعاء الفرادة ما هو إلاّ مطالبةٌ بالتفوُّق؟» (التوكيد في الأصل). ولكنْ للأسف، نجد نوفِك ذاتَه ينغمس في مقارناتٍ بغيضةٍ كهذه. فهو يؤكّد: «انّ الزعم المتكرِّر بأنّ أيًا ما كانت الولاياتُ المتحدة قد فعلتْه بحق السود أو الأميركيِّين الأصلانيِّين أو الفيتاميِّين أو أيّ أناس اخرين يَبْهت بالمقارنة مع الهولوكوست، لَهُوَ زعمٌ صحيح». بالرغم من انّ هذا الزْعم حين يُطرح في السياق الأميركيّ يؤدّي إلى تملُّص المرء من مسؤوليّاته الاخلاقيّة. (نوفِك: **الهولوكوست**، ص ١٩٧، ١٥).

٣ ـ جايكوب نوزنر: «تمهيد إلى الهولوكوست»، ص ١٧٨. ادوارد الكزاندِر: «سرقة الهولوكوست»، ص ١٥ ـ ١٦، في كتاب نوزنر: **في اعقاب الهولوكوست**.

والحقّ أنّ فرادة الهولوكوست - أو تلك «الأحقيّةَ» بمطالبة الآخرين، وذلك «الرأسمالَ الأخلاقيّ» - تشكّل العُذْرَ الأنفسَ لإسرائيل. ويَقْترح المؤرّخ بيتر بالْدوِنْ في هذا الصدد «أنّ استثنائيّة المعاناة اليهوديّة تعزّز أحقيّةَ إسرائيل المعنوية والعاطفيّة في مطالبة الأمم الأخرى [بما تريده]»[1]. وعليه، فإنّ الـ هولوكوست التي دلّت على «التميُّز الفريد لليهود»، وفقًا لنايثان غلايزر، أعطت اليهودَ «الحقّ باعتبار أنفسهم مهدَّدين بصورةٍ خاصّة، وجديرين بصورةٍ خاصّة بأيّة جهود ضروريّةٍ للحفاظ على بقائهم»[2] (التوكيد في الأصل). وسنشير إلى مثال واحدٍ نموذجيّ على ذلك، وهو أنّ كل حديثٍ عن قرار إسرائيل تطويرَ أسلحةٍ نوويّة يستثير شبحَ الـ هولوكوست[3]... فكأنّ إسرائيل ما كانت ستصبح [قوّةً] نوويّة [لو لم تَحْدث الـ هولوكوست].

ولكنّ هناك عاملاً فاعلاً آخر. فالواقع أنّ الادِّعاء بفرادة الهولوكوست هو ادِّعاءٌ بفرادة اليهود. إذْ ليست معاناةُ اليهود هي ما جَعَلَ الـ هولوكوستَ فريدةً، بل كونُ اليهود هم مَنْ عانوا. أَوْ بمعنى آخر: الـ هولوكوست مميّزةٌ لأنّ اليهود مميَّزون. ولهذا نجد ايزمار شورش، وهو رئيسُ المعهد اللاهوتيّ اليهوديّ، يَسْخر من ادّعاءِ فرادةِ الهولوكوست ويصفه بأنّه «نسخة علمانيّة بغيضة عن فكرة الاصطفاء [الشعب المختار]»[4]. وليس إيلي ڤيزِل، برغم حماسه الكبير لفرادة الـ هولوكوست، بأقلّ حماسًا لفرادة اليهود؛ فهو يقول: «كلُّ ما يتعلّق بنا مختلفٌ». إنّ اليهود استثنائيُّون «وجوديًا [أنطولوجيًا]»[5]. وإذ تُشكّل الـ هولوكوست ذروةَ

---

١ - بيتر بالدوِنْ (محرِّرًا): إعادة صياغة الماضي (بوسطن، ١٩٩٠)، ص ٢٠.

٢ - نايثان غلايزر: **اليهوديّة الاميركيّة**، ط ٢ (شيكاغو، ١٩٧٢)، ص ١٧١.

٣ - سيمور م. هِرش Hersh: الخيار الشمشونيّ (نيويورك، ١٩٩١)، ص ٢٢. افْنِرْ كوهِنْ: إسرائيل والقنبلة (نيويورك، ١٩٩٨)، ص ١٠، ١٢٢، ٣٤٢.

٤ - ايزمار شورش Schorch: «الهولوكوست والبقاء اليهوديّ»، في ميدستريم (كانون الثاني/يناير، ١٩٨١)، ص ٣٩. ويبيِّن شومون بصورة مُقْنعةٍ أنّ الادِّعاء بفرادة الهولوكوست قد نَشَأَ في وسط المذهبيّة الدينيّة الجامدة القائلة باصطفاء اليهود، ولا يشكّل مفهومًا متماسكًا إلاّ في هذا السياق. تنافس الضحايا، ص ١٠٢ - ١٠٧، ١٢١.

٥ - ڤيزل: ضد الصمت، المجلّد ١ ص ١٥٣. ڤيزل: والبحر...، ص ١٣٣.

كراهية الأغيار لليهود عبر آلاف السنين، فإنّها لا تشهد لمعاناة اليهود الفريدة فحسب، بل لفرادة اليهود أيضًا.

يورد نوفِك أنّه خلال الحرب العالميّة الثانية وفي أعقابها «لم يكن بإمكان أحد داخل الحكومة الأميركيّة - وخارجَها، يهودًا أو أغيارًا - أن يَفْهم معنى عبارة 'التخلّي عن اليهود'». وبدأ الوضعُ ينعكس بعد حرب حزيران ١٩٦٧، إذ بدأتْ مقولاتُ «صَمْتُ العالم» و«لامبالاةُ العالم» و«التخلّي عن اليهود» تصبح عناصرَ رئيسيّةً في «خطاب الهولوكوست»[1].

وإذ انتحَلَ هيكلُ الهولوكوست الفكريّ إحدى عقائد الصهيونيّة، فقد وَصَفَ حلُّ هتلر النهائيّ [الهولوكوست] بأنّه ذروةُ كراهيةٍ يَكُنّها الأغيارُ لليهود عبر العصور. لقد مات اليهودُ، بحسب هذا الهيكل، لأنّ كل الأغيار - أمجرمين كانوا أَمْ مشاركين سلبيين في الجريمة - أرادوهم أمواتًا. ووفقًا لڤِيزل فإنّ «العالم الحرّ والمتحضّر' » سلّمَ اليهودَ «للجلاّدين. لقد كان هناك القتلة - المجرمون -، وكان هناك أولئك الذين ظلّوا صامتين»[2]. ولكنّ الدليل التاريخيّ على دوافع الأغيار الإجراميّة معدوم. وأما جهْدُ دانيال غولدهاغن المُضْجر لإثبات إحدى تنويعات هذا الادّعاء في كتابه جلاّدو هتلر المتطوعون فلم يوفَّق إلاّ في الوصول إلى [أطروحات] مضحكة[3]. بيد أنّ المنفعة السياسيّة لهذا الادّعاء كبيرة. وتمكن الإشارة هنا، بالمناسبة، إلى أنّ نظريّة «العداء الأبديّ للساميّة» توفّر العُذرَ في الواقع للمعادين للسامية. فكما تقول حنه أرِنْت في كتابها **أصول التوتاليتاريّة**:

«أَنْ تكون هذه العقيدة قد تبنّاها اللاساميُّون المحترفون فهذا أمرٌ طبيعيّ، إذ إنّها توفّر أقوى عذرٍ ممكنٍ لكل الفظائع. فإنْ كان صحيحًا أنّ الجنس الإنسانيّ كان ومايزال مُصرًا على قتل اليهود طوال ما يزيد عن ألفيْ عام، فذلك يعني أنّ قتل اليهود عملٌ طبيعيّ، بل وبشريٌّ أيضًا، وأنّ

---

١ - نوفِك: **الهولوكوست**، ص ٥٩، ١٥٨ - ١٥٩.

٢ - ڤيزل: **والبحر...**، ص ٦٨.

٣ - دانيال جوناه غولدهاغن: **جَلاّدو هتلر المتطوّعون** (نيويورك، ١٩٩٦). ولنَقْدِ هذا الكتاب انظرْ: فنكلستين وبيرن: **محاكمة أمّة**.

كراهيةَ اليهود مبرَّرةٌ من دون حاجةٍ إلى تقديم الحجج. ولكنّ الأعجبَ في ذلك التبرير إنّما هو تبنِّيه من قِبل عددٍ كبير من المؤرخين غيرِ المنحازين، بل مِن قبل عددٍ أكبر من اليهود أيضًا»[1].

لقد استُغلّت مذهبيّةُ الهولوكوست الجامدةُ، القائلةُ بكراهية الأغيار الأبديّة لليهود، لتبرير ضرورةِ وجود دولةٍ يهوديّةٍ ولتفسير العداءِ الموجَّه إلى إسرائيل. فالدولة اليهوديّة، بمقتضى هذه المذهبيّة، هي الملجأُ الوحيدُ أمام التفجُّر التالي (والمحتوم) للأساميّة الإجراميّة؛ وبالمقابل فإنّ اللاساميّة الإجراميّة هي وراء كلّ عملٍ هجوميٍّ أو حتى أيِّ مناورةٍ دفاعيّةٍ ضد الدولة اليهوديّة. وكان للروائيّة والقاصّة سينثيا أوزِكْ جوابٌ جاهز لتفسير النقد الموجَّه إلى إسرائيل، فقالت إنّ «العالَمَ يريد محوَ اليهود... لقد أراد العالَمُ دائمًا محوَ اليهود»[2]. ولكنْ إذا كان العالَمُ بأجمعه يريدُ اليهود أمواتًا، فالعَجَبُ في الحقيقة هو أنّهم ما يزالون أحياء ـ بل هم، على عكس قسمٍ كبير من البشريّة، لا يتضوَّرون جوعًا!

هذه المذهبيّة الجامدة مَنَحَتْ أيضًا تفويضًا كاملاً لإسرائيل: فإذا كان الأغيارُ عازمين كما هم دائمًا على قتل اليهود، فسيكون لليهود كلُّ الحق في حماية أنفسهم وبالطريقة التي يَرَوْنها مناسبةً. وأيًا تكن الوسيلةُ التي قد يلجأ إليها اليهودُ، حتى وإنْ كانت عدوانًا وتعذيبًا، فإنّها تشكّل دفاعًا مشروعًا عن النفس. وفي هذا الصدد يعلِّق الكاتب بواس ايڤرون راثيًا لـ «دَرْسِ الهولوكوست» القائلِ بكراهية الأغيار الأبديّة لليهود، فيقول: «إنّ هذا الدرس ليصلُ في الحقيقة إلى حدِّ الاستدرار المتعمَّد للرُّهاب.... إنّ هذه العقليّة... تتغاضى سلفًا عن أيِّ معاملةٍ لاإنسانيّةٍ لغير اليهود، لأنّ الخرافة السائدة هي أنّ ' كلّ الناس تعاونوا مع النازيِّين في تدمير اليهود'، ولهذا فكلُّ شيءٍ مشروعٌ لليهود في علاقتهم بالناس الآخرين»[3].

---

١ ـ حنة أرنت: **أصول التوتاليتاريّة** (نيويورك، ١٩٥١)، ص ٧.

٢ ـ سينثيا اوزِكْ Ozick: «كل العالم يريد اليهود أمواتًا»، في **اسكواير** (تشرين الثاني/نوفمبر، ١٩٧٤).

٣ ـ بواس ايڤرون Evron: **دولة يهوديّة او امّة اسرائيليّة** (بلومِنْغتون، ١٩٩٥)، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

ليست لاساميةُ الأغيار في هيكل الهولوكوست الفكريّ أمرًا يتعذَّر استئصالُه فحسب، بل هي دائمًا أمرٌ لاعقلانيّ أيضًا. ويذهب غولدهاغن في تفسيره لأسباب اللاساميّة أبعدَ كثيرًا مما ذهبتْ إليه التحليلاتُ الصهيونيّةُ التقليديّةُ (الكلاسيكيّةُ)، دَعْ عنكَ التحليلات الأكاديميّة المألوفة. فيقول إنَّ اللاساميّة «منفصلةٌ عن اليهود الفعليِّين»، وأنَّها «في أساسها ليست ردًا على أيّ تقويم موضوعيّ لأفعال اليهود»، وأنَّها «مستقلّةٌ عن طبيعة اليهود وأعمالهم»: إنَّها لتعودُ إلى مرضٍ عقليٍّ لدى الأغيار «ومصدرُها» هو «عقولهم» (التوكيد في الأصل). ووفقًا لڤيزل، فإنَّ اللاسامي، إذ تقوده «حججٌ لاعقلانيّةٌ، يَمْتعض ـ هكذا وببساطة ـ لحقيقة أنَّ اليهوديّ موجود»[1]. ويعلِّق عالِمُ الاجتماع جون موري كَدِهي على نحوٍ نقديٍّ بالقول: «لا تتوقَّف المسألة عند حدّ القول بأنّ كلَّ ما يفعله اليهود أو ما يُحْجمون عن فعله لا صلة له باللاساميّة، بل تتعدّى ذلك إلى القول بأنّ أيّ محاولةٍ لتفسير اللاسامية بالإحالة على الإسهام اليهوديّ في إنتاج هذه اللاسامية إنّما هي في حدّ ذاتها مثالٌ على اللاسامية!» (التوكيد في الأصل)[2]. وبالطبع ليست النقطةُ المهمّةُ هنا أنّ اللاساميّة يُمْكن تبريرُها، أو القولَ بأنّ الذَّنْب يقع على اليهود بالنسبة إلى الجرائم التي ارتُكبتْ ضدَّهم، وإنّما أنّ اللاساميةَ تتطوَّر في سياقٍ تاريخيٍّ محدَّد مع ما يرافق ذلك من تفاعلٍ للمصالح. ويشير إزمار شورش في هذا الصدد إلى أنّ بإمكان «أقليةٍ موهوبةٍ، وحسنةِ التنظيم، وناجحةٍ إلى حدٍّ كبير، أن تستثير صراعاتٍ منبثقةً من توتُّرات موضوعيّةٍ بين المجموعات [العِرْقيّة]» وإنْ تكن هذه الصراعاتُ «مغلَّفةً في الغالب بتنميطاتٍ لاساميةٍ»[3].

---

١ ـ غولدهاغن: جلادو هتلر المتطوّعون، ص ٣٤ ـ ٣٥، ٣٩، ٤٢. ڤيزل: والبحر...، ص ٤٨.

٢ ـ جون موراي كَدِهي Cuddihy: «الفيل والملائكة: الانفعالُ غيرُ المتمدِّن للاهوت الطبيعيّ اليهوديّ»، في كتاب من تحرير روبرت ن. بِلاّ Bellah وفريدريك إ. غرينزپان Greenspahn: الدين غير المتمدِّن (نيويورك، ١٩٨٧)، ص ٢٤. وبالإضافة إلى المقالة المذكورة، انظرْ مقالته الأخرى: «الهولوكوست: القضيّة الكامنة في الجدل حول الفرادة»، في پ. ف. غالاغِر Gallagher (محرِّرًا): المسيحيّون، واليهود، والعوالم الأخرى (هايلاند لايكس، نيوجرزي، ١٩٨٧).

٣ ـ شورش: الهولوكوست، ص ٣٩. وبالمناسبة، فإنّ الادِّعاء بأنّ اليهود يشكِّلون أقليّة «موهوبة»، هو الآخر في نظري «نسخةٌ علمانيّةٌ بغيضةٌ عن فكرة الاصطفاء [أو الشعب المختار]».

يُستدلّ على الجوهر اللاعقلانيّ للاساميةِ الأغيار من الجوهر اللاعقلانيّ للـ ـهولوكوست. وللشهادة على ذلك، فإنّ حلّ هتلر النهائيّ [الهولوكوست] كان [وفقًا لـ الـ ـهولوكوست] من دون أيّ عقلانيّة على نحو فريد ـ فلقد كان «شرًا للشرّ» وقتلاً جماعيًا «بلا غاية»؛ وشكّل ذروةَ معاداةِ الأغيار للسامية؛ ولهذا فإنّ لاسامية الأغيار لاعقلانيّةٌ في جوهرها. ولكنْ إذا أُخذتْ هذه الفرضيّات، مجتمعةً أو منفردةً، فإنّها لا تَصْمد أمام التمحيص السطحيّ ذاتِه(١). ورغم ذلك تظل قابلةً للاستخدام الشديد سياسيًا.

إنّ مذهبيّة الهولوكوست الجامدة هذه، إذ تُسْبغ على اليهود براءةً من الذنوبِ كاملةً، تحصّن إسرائيلَ والحركةَ اليهوديّةَ الأميركيّةَ المنظّمة من النقد المشروع. وأمّا عداء العرب وعداءُ الأفارقة الأميركيِّين [لليهود] فهما «ليسا في الأساس ردًا على تقويم موضوعيّ لأفعال اليهود» (على حدّ تعبير غولدهاغن)(٢). وتأمّلْ موقفَ ڤِيزل من الاضطهاد اليهوديّ، حين يقول: «منذ ألفيْ سنة... ونحن دائمًا مهدَّدون... ولأيّ سبب؟ لا لسببٍ على الأطلاق». أما تفسيرُه لعداء العرب لإسرائيل فهو: «بسببِ ما نحن عليه، وما يمثّله وطنُنا القوميّ إسرائيل ـ قلبُ حياتِنا وحلمُ أحلامِنا. وعندما

---

١ ـ لمّا كان عرضُ هذا الموضوع عرضًا واسعًا يَخْرج عن مجال هذا البحث، دعونا نتناولْ فقط الفرضيّةَ الأولى منه. فالحال أنّ حربَ هتلر ضدّ اليهود، حتى وإنْ كانت لاعقلانيّة (وهذه مسألةٌ معقّدةٌ في حدّ ذاتها)، لا تشكّلُ إلاّ بالجَهْد حدثًا تاريخيًا فريدًا. فلنتذكّرْ مثلاً الأطروحةَ المركزيّةَ لبحث جوزف شومبيتر عن الإمبرياليّة، ومفادُها أنّ «النزعات الغريزيّة المحضة، اللاعقلانيّة وغير المنطقيّة، نحو الحرب والفتوحات تؤدّي دورًا كبيرًا جدًا في تاريخ الجنس البشريّ.... فثمّة حروب لا تحصى ـ ولربّما اغلبيّة الحروب ـ شُنّتْ من غير وجود مصلحة مُفَكَّرٍ بها او معقولة». (جوزف شومبيتر Schumpeter: «علم اجتماع الإمبرياليّة»، في كتاب من تحرير پول سويزي Sweezy: **الإمبرياليّة والطبقات الاجتماعيّة** [نيويورك، ١٩٥١]، ص ٨٣).

٢ ـ تتحاشى دراسةُ البرت س. ليندمان Lindemann الحديثةُ لنزعة العداء للسامية تحاشيًا واضحًا هيكلَ الهولوكوست [الفكريّ]، فتنطلق من المقدّمة [المنطقيّة] القائلة إنّه «أيًا كانت قوّة الأسطورة فإنّ العداء لليهود، افرديًا كان أم جماعيًا، ليس كلّه مستنِدًا إلى تصوُّرات وهميّةٍ او خياليّةٍ عنهم أو مستنِدًا إلى إسقاطاتٍ لا علاقة لها بأيّ وقائع ملموسة. فالحقّ أنّ اليهود، بشرًا، كانوا قادرين ـ قدرةَ أيّ مجموعةٍ أخرى ـ على استثارة العداء في العالم العلمانيّ اليوميّ». (دموع إيساو [كامبريدج، ١٩٩٧]، ص xvii).

يحاول أعداؤنا تدميرَنا فإنَّهم سيقومون بذلك بأن يحاولوا تدميرَ إسرائيل». وأما بالنسبة إلى عداء السود [الأميركيِّين] لليهود الأميركيِّين فهو يقول: «إنَّ الناس الذين يستمدُّون منَّا الإلهامَ لا يشكروننا بل يهاجموننا. نحن نجد أنفسنا في موقفٍ خطير جدًا. وها نحن من جديدٍ كبشَ فداءٍ لجميع الأطراف.... فلقد ساعَدْنا السودَ؛ بل كنّا نساعدهم على الدوام.... أنا أُشْفِقُ على السود. هناك شيءٌ واحدٌ عليهم أن يتعلّموه منّا، وهو العرفانُ بالجميل. ليس هنالك شعب في العالم يعرف العرفانَ بالجميل كما نعرفه نحن؛ نحن معترفون بالجميل إلى الأبد»[1]. معاقَبٌ دائمًا، وبريءٌ دائمًا: ذلك هو عبءُ أن يكون المرءُ يهوديًا![2].

تُعزِّز مذهبيَّةُ الهولوكوست الجامدةُ، القائلةُ بكراهية الأغيار الأبديّة لليهود، المذهبيةَ الجامدةَ الأخرى المتمِّمةَ لها والقائلةَ بـ «الفرادة». فإذا كانت الـ هولوكوست تشكِّل ذروةَ كراهية الأغيار الأبديّة لليهود، فإنَّ الاضطهادَ الذي تعرَّض له غيرُ اليهود أثناء الـ هولوكوست يصبح مجردَ أمرٍ غيرِ مقصود، ويصبح اضطهادُ غير اليهود عبر التاريخ مجرَّدَ أمرٍ عَرَضيّ. وهكذا، ومن جميع الجوانب، فإنَّ معاناة اليهود خلال الـ هولوكوست كانت فريدة [من منظور صناعة الهولوكوست].

وأخيرًا، فقد كانت معاناةُ اليهود من ذلك المنظور فريدةً لأنَّ اليهود فريدون. وكانت الهولوكوست فريدة لأنَّها لم تكن عقلانيّة. ففي النهاية كانت القوّةُ الدافعة لها هي أشدّ العواطف لاعقلانيّةً، وإنْ تكن عواطفَ بشريّة تمامًا. لقد كَرِهَ عالَمُ الأغيار اليهودَ بسبب الحسد والغيرة: الحِقْد ressentiment*. إنّ العداء للسامية، لنايثان ورِوث أن پيرلمَتِر، قد انبعثْ من «غِيرة الأغيار وحقدهم على تفوُّق اليهود على

---

١ ـ ڤيزل: ضدّ الصمت، المجلّد ١، ص ٢٥٥، ٣٨٤.

٢ ـ يثير شومون نقطةً كاشفةً، وهي أنَّ هذه المذهبيّة الجامدة تَجْعل عمليًا الجرائمَ الأخرى أكثرَ قبولاً. فالإصرار على براءة اليهود الكاملة ـ أي الإصرار على غياب أيّ دافع عقلانيٍّ لاضطهادهم، دع عنك قَتْلهم ـ «يَفْترض ضمنًا أنَّ أعمال الاضطهاد والقتل في ظروفٍ أخرى أمرٌ 'طبيعيّ'، الأمر الذي يَخْلق فصلاً قائمًا على الأمر الواقع ما بين الجرائم التي لا تطاق تحت أيّ ظرفٍ وبين الجرائم التي ينبغي على المرء ـ ويُمكنه، من ثَمّ ـ أنْ يتعايش وإيّاها». (تنافس الضحايا، ص ١٧٦).

* ـ وضع الكاتب هذه الكلمة بالفرنسيّة. (م)

المسيحيِّين في سوق العمل... فأعداد كبيرة من الأغيار الأقلّ إنجازًا يَحْقدون على اليهود الأقلّ عددًا والأعظم إنجازًا»[1]. وهكذا تؤكّد الـ هولوكوست اصطفائيّة اليهود، وإنْ بطريقة سلبيّة: فلمّا كان اليهودُ أفضلَ، أو أكثر نجاحًا، فإنّهم عانوا حنقَ الأغيار، فقام هؤلاء لاحقًا بقتلهم!

في استطرادٍ قصير يتأمّل نوفِك متسائلاً: «تُرى، كيف كان الحديثُ عن الهولوكوست في أميركا سيكون» لو لم يكن إيلي ڤيزل هو «مؤوِّلَها الأساسيّ»؟[2]. وليس من الصعب إيجادُ الجواب: فقبل حزيران ١٩٦٧ كانت الرسالةُ الكونيّة التي نادى بها برونو بتلهايم Bettelheim، الناجي من معسكرات الاعتقال، تتردّد بين اليهود الأميركيِّين، ولكنْ بعد حرب حزيران أُقصي بتلهايم جانبًا وحلَّ ڤيزل محلَّه. ولقد تأتّتْ شهرةُ ڤيزل من فائدته الإيديولوجيّة. فرادةُ المعاناة اليهوديّة/فرادةُ اليهود أنفسِهم؛ الأغيارُ المذنبون دائمًا/اليهودُ الأبرياء دائمًا؛ الدفاعُ المطلق عن إسرائيل/الدفاع المطلق عن المصالح اليهوديّة: إنّ إيلي ڤيزل [بحسب هذه المعادلات] هو الـ هولوكوست.

* * *

إنّ معظم ما كُتب عن حلّ هتلر النهائيّ [الهولوكوست] لا قيمة له من الناحية الأكاديميّة، لأنّه يُفصح عن المذهبيّات الأساسيّة للهولوكوست. والواقع أنّ ميدان دراسات الهولوكوست يَطْفَح بالهُراء، إنْ لم يكن بالاحتيال البحت. وما يَكْشف بشكلٍ خاصٍ هذه المسألة هو الوسطُ الثقافيُّ الذي يَرْعى أدبيّات الهولوكوست هذه.

كانت الخدعةُ الكبرى الأولى التي ظهرتْ في أدبيّات الهولوكوست هي كتاب **العصفور المدهون**، وهو من تأليف مهاجر سياسيّ بولنديّ يُدعى جيرزي كوسينسكي[3]. وأوضح كوسينسكي أنّ الكتاب «كُتب باللُّغة الإنجليزيّة» لكي «أتمكن من الكتابة مجرَّدًا من العاطفة، متحرِّرًا من الدلالات الشعوريّة التي تحملها اللُّغةُ الأمُ». ولكنْ تبيَّن لاحقًا أنّه أيًا كانت الأجزاءُ التي كتبها هو فعلاً ـ وهذا سؤال لم

---

١ ـ بيرلمتر (نايثان، وروث آن): **معاداة السامية**، ص ٣٦، ٤٠.

٢ ـ نوفِك: **الهولوكوست**، ص ٣٥١، هامش ١٩.

٣ ـ صدر في نيويورك، ١٩٦٥. وأنا أعتمد على كتاب جايمس پارك سلون Sloan: جرزي كوسينسكي (نيويورك، ١٩٩٦) كخلفيةٍ لهذا المقطع.

يجدْ جوابًا حتى الآن ـ فقد كتبها باللُّغة البولنديّة. وزُعم أنَّ الكتاب هو سيرةُ كوسينسكي الذاتيةُ لتطوافه طفلاً وحيدًا في الريف البولنديّ أثناء الحرب العالميّة الثانيّة. ولكنَّ واقع الأمر أنَّ كوسينسكي كان يعيش مع والديه طوال فترة الحرب! والفكرة الرئيسيّة التي يطرحها الكتابُ هي التعذيبُ الجنسيُّ الساديُّ الذي ارتكبه الفلاّحون البولنديُّون. وكان النقّادُ الذين قرأوا الكتابَ قبل نشره قد سَخِروا منه بوصفه «كتاباتٍ إباحيّةً عن العنف» و«نتاجَ عقلٍ مهووسٍ بالعنف الساديّ المازوخيّ». والحقّ أنّ كوسينسكي لفّق كلَّ الأحداث المرضيّة التي رواها تقريبًا. فالكتاب يصفُ الفلاّحين البولنديّين الذين عاش معهم بأنّهم لاساميُّون إلى حدٍّ قاتل، وأنّهم كانوا يصرخون هازئين: «اضربوا اليهودَ، اضربوا أولادَ الحرام». ولكنَّ واقع الأمر أنَّ الفلاّحين البولنديّين أووا عائلةَ كوسينسكي برغم معرفتهم بيهوديّةِ أفرادِها معرفةً تامّة، وبالعواقب الوخيمة التي سيواجهونها إنِ افتُضح أمرُهم.

هَلَّل ايلي ڤيزل في **نيويورك تايمز بوك ريڤيو** لكتاب **العصفور المدهون**، ووصفه بأنّه «إحدى أفضل» الإدانات للحقبة النازيّة لكونه «كُتِب بصدقٍ وحساسيّةٍ عميقين». ولاحقًا أعربتْ سنثيا أوزكْ عن مشاعرها المتدفّقة فقالت إنّها ميّزتْ «فورًا» أصالةَ كوسينسكي «كيهوديٍّ ناجٍ وشاهدٍ على الهولوكوست». وبعد فترة طويلةٍ من انكشاف أمر كوسينسكي بوصفه محتالاً أدبيًا من الطراز الأوّل، ظلّ ڤيزل يُغدِق المدائحَ على «عمله الفذّ»[1].

---

١ ـ ايلي ڤيزل: «ضحيّة الجميع»، في **نيويورك تايمز بوك ريڤيو** (٣١ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٥). ڤيزل: **كل الانهار**... ص ٣٣٥. وكلام اوزك مقْتَبَس من كتاب سلون، ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥. وليس إعجابُ ڤيزل بكوسينسكي بالأمر المستغرب: فلقد أراد كوسينسكي أن يحلِّل «اللُّغةَ الجديدة» للهولوكوست، بينما أراد ڤيزل أن «يصوغ لغةً جديدة» لها. ورأى كوسينسكي أنَّ «ما يقع بين الأحداث هو تعليقٌ على الأحداث، وشيءٌ تُعلِّق عليه الأحداثُ في أن معًا»؛ بينما رأى ڤيزل أنّ «الحيِّز بين أيّ كلمتَيْن هو أكبرُ من المسافة ما بين الارض والسماء». وهناك مَثلٌ بولنديٌّ يصف هذا العمق، وهو: «من الفراغ إلى الخواء»! كما أنَّ الكاتبين كليهما يَنْثران في تأمُّلاتهما اقتباساتٍ وفيرةً من البير كامو، وهذه دلالة تامّةٌ على دَجَلهما. فإذ تذكُر ڤيزل أنَّ كامو قال له ذات مرّة: «أنا أحسدك على اوشڤيتز»، فقد علَّق قائلاً: «لم يستطع كامو أن يسامح نفسَه على عدم اختبار حدثٍ بمثل هذا الجلال، حدثٍ هو لغزُ الألغاز». (ڤيزل: **كل الانهار**...، ص ٣٢١؛ ڤيزل: **ضدّ الصمت**، المجلّد ٢، ص ١٣٢).

أصبح كتاب **العصفور المدهون** نصًا أساسيًا من نصوص الهولوكوست. وكان من الكتب الأكثر مبيعًا وفوزًا بالجوائز؛ وتُرجم إلى لغات عديدة، وأصبح مادةَ قراءةٍ مطلوبةٍ في صفوف المدارس الثانويّة والكليّات. وبعد أن أخذ كوسينسكي يطوف في جولة الهولوكوست المعهودة*، وَصَفَ نفسَه بأنّه «ايلي ڤِيزل أرخصُ سعرًا». (فأولئك الذين لا يستطيعون دَفْعَ أجرةِ ڤِيزل عن كلامه - إذ «الصمتُ» لا يأْتي رخيصًا! - راحوا يتحوّلون إليه!). وبعد أن انكشف أمرُ كوسينسكي أخيرًا من قبل مجلةٍ أسبوعيّةٍ محقِّقة، ظلّت صحيفة **نيويورك تايمز** تدافع عنه بعنادٍ وزعمتْ أنّه كان ضحيةً لمؤامرةٍ شيوعيّة(١).

من الخدع الأحدثِ عهدًا كتابُ **شظايا** لمؤلِّفه بنجامين ويلكومرسكي(٢) وهو يستعير من كل حدبٍ وصوبٍ من الكيتش الهولوكوستيّ** المتمثِّل في كتاب

---

* - المقصود: الأماكن التي يتردّد عليها كلُّ مَنْ يحاضِر عن الهولوكوست. (م)

١ - جَفْري ستوكس Stokes واليوت فرمونت - سميث: «كلمات جرزي كوسينسكي الملوَّثة»، في أسبوعيّة **ڤِلِج ڤويْس** (٢٢ حزيران/يونيو ١٩٨٢). جون كوري Corry: «تاريخُ حالة: ١٧ عامًا من الهجوم الايديولوجيّ على هدفٍ ثقافيٍّ»، في **نيويورك تايمز** (٧ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٢). وللإنصاف، مرّ كوسينسكي حقًا بنوعٍ من التحوُّل [الدينيّ] الذي يطرأ على الناس المحتَضِرين. ففي السنوات القليلة التي تَفْصلُ بين افتضاح أمره وبين انتحاره، استنكر استثناءَ صناعةِ الهولوكوست للضحايا غير اليهود، وقال: «إنّ الكثيرين من يهود اميركا الشماليّة ينزعون إلى فهمها على انّها شووا [كلمة عبريّة تحمل مضامين دينيّة وتعني المحرقة (ولاسيّما في تقديم القرابين)]، وكأنّها كارثةٌ محصورة باليهود... ولكنّ نصفَ شعب الروما على الأقلّ (وهم يُسمَّون ظلمًا بالغجر) وما يقارب ٢.٥ مليون بولنديٍّ كاثوليكيّ، وملايينَ المواطنين السوفييت، ومواطنين من جنسيّات اخرى، كانوا ضحايا ايضًا لهذه الإبادة الجماعيّة...». كما أنّه حيّا «شجاعةَ البولنديِّين» الذين «الجأوه أثناء الهولوكوست»، بالرُّغم ممّا يسمّى «ملامحه» الساميّة (جرزي كوسينسكي: **على الطريق** [نيويورك، ١٩٩٢]، ص ١٦٥ - ١٦٦، ١٧٨ - ١٧٩). وحين وُجِّهَ إليه في أحد مؤتمرات الهولوكوست سؤالٌ غاضبٌ عمّا فعله البولنديُّون لإنقاذ اليهود، ردّ بحدّة: «ولكنْ ماذا فعل اليهودُ لإنقاذ البولنديِّين؟».

٢ - صدر في نيويورك، ١٩٩٦. وللاطِّلاع على خلفيّات خدعة ويلكومرسكي هذه، راجعْ بشكل خاصّ: إلانا لابِن Lappin: «الرجل ذو الرأسين»، في مجلّة **غرانتا**، عدد ٦٦؛ وفيليب غورڤيتش Gourevitch: «سرقة الهولوكوست»، في مجلّة **نيويوركر** (١٤ حزيران/يونيو ١٩٩٩).

** - الكيتش: سَقْط المتاع الأدبيّ، يَهْدف إلى تملُّق الجمهور وإثارةِ الأحاسيس السطحيّة. (م)

العصفور المدهون. ويصف ويلكومرسكي نفسَه، شأن كوسينسكي، بأنّه طفل وحيدٌ ناج أُصيب بالخرس، وانتهى به الأمرُ في ميتم، ولم يَكْتشف إلا متأخِّرًا أنّه يهوديّ. والفكرة السرديّة الرئيسيّة في شظايا، شأنها شأن العصفور المدهون، هي الصوتُ البسيطُ والمخفَّض لطفلٍ ساذج. ومثل العصفور المدهون يبقى الإطارُ الزمنيّ وأسماءُ الأماكن في شظايا غامضةً. ومثل العصفور المدهون، يصل كلُّ فصلٍ من فصول شظايا إلى ذروته بمشهد من الانغماس المفرط في العنف. وقد وصف كوسينسكي كتابَه العصفور المدهون بأنّه «إذابةٌ بطيئةٌ لثلج العقل»، وأمّا ويلكومرسكي فوصف كتابه شظايا بأنّه «ذاكرة مستعادة»[1].

---

١ ـ ثمّة مؤثِّرٌ «أدبيٌّ» مهمٌّ آخر على ويلكومرسكي، وهو ڤيزل. قارن الفقرتين التاليتيْن:

ويلكومرسكي: «رأيتُ عينَيْها المفتوحتَيْن على اتّساعهما، وفجأةً عرفتُ: فتلك العينان عرفتا الأمر كلّه، لقد رأتا كلَّ شيء رآه عيناي، وعرفتا أكثرَ بما لا يقاس مما عرفه أيُّ شخص آخر في هذا البلد. لقد عرفتُ عينَيْن كتينك العيْنَيْن، رأيتُه مثلهما الافَ المرّات، في المعسكر وفي فترات لاحقة. لقد كانتا كعينَيّ ميلا. وكنّا، أطفالاً، قد اعتدنا أن نُخْبر واحدنا الآخر بكلّ شيء بفضل تلك الأعين. لقد كانت تعرف ذلك أيضًا؛ فقد نظرتْ مباشرةً عبر عينيّ، وإلى قلبي».

ڤيزل: «العيون ـ يجب أن أحدِّثكم عن عيونهم. عليّ أن أبدأ بهذا الأمر، لأنّ عيونهم تَسْبق كل شيء آخر، وكلُّ شيء يمكن أن يُفهم في داخلهما. وأمّا الأشياء الباقية فبإمكانها أن تَنْتظر، لأنّها سوف تؤكّد ما سبق أنْ عرفتَه. أما عيونهم ـ عيونهم فقد كانت تتّقد بتلك الحقيقة المتعذِّرة على الاختزال، التي تلتهب ولكنّها لا تخبو. لا يمكنك إلاّ أن تحني رأسك أمامها وتتقبّلَ الحكْمَ، لأنك تُكْرَهُ على الصمت أمامها خجلاً. وتغدو أمنيتُك الوحيدة الآن أن ترى العالَم كما تراها تلك الأعيُن. ومن رجلٍ بالغ، حكيم ذي تجارب، تتحوّل فجأةً إلى عاجز ومسلوبٍ تمامًا. فلقد ذكّرتْك تلك الأعينُ بطفولتك، وبحالك حين كنتَ يتيمًا، وتجعلك تَفْقد كلَّ إيمانٍ بقوّة اللُّغة. فتلك الأعين تُبطل قيمةَ الكلمات، وتَطْرح جانبًا الحاجةَ إلى الكلام». (يهود الصمت [نيويورك، ١٩٦٦]، ص ٣).

ويواصل ڤيزل حديثه بحماسٍ مفرط عن «العيون» في صفحة ونصف صفحة إضافيّة. وتجاري براعتَه الأدبيّة براعتُه في الجدل المنطقيّ. ففي إحدى الفقرات يجاهر بالقول: «أنا أؤمن بالذنْب الجمعيّ، على العكس من الكثيرين من الليبراليِّين». ولكنّه في فقرة أخرى يجاهر بالقول: «أنا أؤكّد أنّني لا أؤمن بالذنْب الجمعيّ!» (ڤيزل: ضدّ الصمت، المجلّد ii، ص ١٣٤؛ ڤيزل: والبحر...، ص ١٥٢، ٢٣٥).

وعلى الرُّغم من أنَّ كتاب شظايا بكامله مبنيّ على التلفيق، فإنّه يمثّل نموذجًا لكتب المذكّرات الأدبيّة الهولوكوستيّة. فهو يبدأ في معسكرات الاعتقال الجماعيّة، حيث كلُّ الحرّاس وحوشٌ مهووسون ساديُّون، يحطِّمون بانتشاءٍ جماجمَ الأطفال اليهود الحديثي الولادة. ولكنّ المذكرات الكلاسيكيّة عن معسكرات الاعتقال تتّفق مع مذكرات الدكتورة إيلا لينغينز - راينر الناجية من معسكر أوشفيتز، وفيها تقول: «كان هناك القليلُ من الساديِّين، ولم يتعدوا خمسةً او عشرةً بالمئة»[1]. بيد أنّ ساديّة الألمان الطاغية تَبْرز في أدبيّات الهولوكوست. وبذلك تؤدِّي هذه الأدبيّات نفعًا مزدوجًا: فهي «توثِّق» اللاعقلانيّةَ الفريدةَ للـ هولوكوست، كما «توثِّق» اللاسامية المتعصِّبةَ لمرتكبي الجرائم.

تَكْمن خصوصيّةُ شظايا في تصويره الحياةَ بعد الـ هولوكوست، لا أثناءها. فبنجامين الصغير يعاني عذاباتٍ جديدةً، بالرُّغم من أنَّ عائلةً سويسريّةً قد تبنّته. فهو عالِقٌ في عالمٍ من مُنكِري حدوثِ الهولوكوست. وكانت امُّه [بالتبنّي] تصيح به: «اِنْسَها - إنّها حلم مزعج. لقد كانت حلمًا مزعجًا فقط... وعليك الاّ تفكّر بها بعد اليوم». ولكنّه يقول مغتاظًا: «هنا في هذهِ البلاد، يواصل الجميعُ القولَ إنّ عليّ أن أنساها، وإنّها لم تحدث أبدًا، وإنّني تخيّلتُها في أحلامي فقط، ولكنّهم جميعًا على درايةٍ بأمرها!».

وفي المدرسة نفسها «كان الأولاد يشيرون إليّ ويُشْهرون قبضاتهم ويصيحون: ' إنّه يهذي، ليس هناك أيُّ شيء كهذا. كاذب! إنّه مجنون وأحمق، إنّه أبله '». (استطراد جانبيٌّ: كانوا على حق!). وكان الأطفال الأغيار جميعُهم يصطفُّون ضدّ بنجامين المسكين، وكانوا يضربونه ويَهْزجون بأهازيج لاساميّةٍ، بينما يروح البالغون يوبِّخونه قائلين: «أنت تَخْتلق كلّ هذه القصّة!».

وإذ يَسْقط بنجامين في يأسٍ مُذِلّ، يَدْخل في تجلٍّ هولوكوستيّ. «مازال المعسكر موجودًا - ولكنّه مخيف ومموّه جيدًا فحسب. لقد نَزَعوا الملابسَ العسكريّةَ،

---

١ - برنارد نومان Naumann: اوشفيتز (نيويورك، ١٩٦٦)، ص ٩١. وانظر: فنكلستين وبيرن: محاكمة امّة، ص ٦٧ - ٦٨ لتوثيقٍ موسّع.

وخَلَعوا على أنفسهم ملابسَ جميلةً لكي لا يميِّزَهم أحدٌ.... ما عليك إلاَّ أن تعطيهم أَوْهَنَ الإشارات إلى أنَّك قد تكون، أو من الممكن أن تكون، يهوديًا - وستَشْعر على الفور: بأنَّ هؤلاء الناس هم ذاتُهم لم يتغيَّروا، وأنا متأكّدٌ من ذلك. مازال بإمكانهم أن يَقْتلوا، وإنْ نَزَعوا الملابسَ العسكريّة». إنَّ كتاب شَطايا لَهُوَ أكثر من تكريم لمذهبيّات الهولوكوست الجامدة؛ إنَّه عبارةٌ عن دليلٍ [جرميٍّ] دامغٍ على أنَّ الأغيار كلهم، حتى في سويسرا ذاتها - سويسرا المحايدةِ - يريدون قتل اليهود.

امتُدح كتابُ شظايا على نطاق واسع بوصفه من كلاسيكيّات أدب الهولوكوست، وتُرجم إلى دستة من اللُّغات، وفاز «بالجائزة القوميّة اليهوديّة للكتاب» وجائزة مجلة جوويش كوارتيرلي، و«جائزة ذاكرة الهولوكوست» الفرنسيّة. وأصبح ويلكومرسكي نجمَ الأفلام الوثائقيّة، ومتحدِّثًا رئيسيًا في ندوات ومؤتمرات عن الهولوكوست، وجامعَ تبرعاتٍ للمتحف التذكاريّ للهولوكوست في الولايات المتحدة، ثم أصبح سريعًا صورةً لطفل الهولوكوست على الملصقات [لحشد التعاطف مع اليهود].

كان دانيال غولدهاغن النصيرَ الأكاديميّ الرئيسيّ لويلكومرسكي، فامتدح شظايا واصفًا إيّاه «بتحفةٍ صغيرة». وأمّا المؤرِّخون المطّلعون مثل راوول هيلبرغ فقد عدَّ شظايا منذ البداية احتيالاً. كما قام هيلبرغ بطرح الأسئلة الصحيحة بعد انكشاف الاحتيال: «كيف اعتُبر هذا الكتابُ مذكّراتٍ في عدّة دور نشر محترمة؟ كيف جَلَبَ للسيد ويلكومرسكي دعواتٍ إلى المتحف التذكاريّ للهولوكوست في الولايات المتحدة ودعواتٍ إلى جامعات محترمة؟ لماذا لا نجد لدينا رقابةً رصينةً على الأعمال حين يتعلّق الأمرُ بموادَّ عن الهولوكوست معروضةٍ للنشر؟»(١).

وتبيَّن أنَّ ويلكومرسكي نصفُ مجنونٍ ونصفُ دجّال، وأنّه أمضى طوال فترة الحرب في سويسرا؛ بل إنّه ليس يهوديًا! ومع ذلك استمعْ إلى أقوال صناعة الهولوكوست بعد افتضاح الأمر:

---

١ - لاين، ص ٤٩. وقد طرح هيلبرغ دائمًا الأسئلة الصحيحة، ومن هنا وضعُهُ المنبوذ في «مجتمع» الهولوكوست؛ أنظرْ: هيلبرغ: سياسات الذاكرة، في أمكنة عدّة.

«قال آرثر ساميولسون (ناشر): **شظايا** «كتاب ممتع جداً.... وهو احتيالٌ فقط إذا عَدَدْتَه كتابًا أدبيًا من خارج فئة الرواية والقصة القصيرة. ويمكنني إذّاك أن أعيد طبعه فأصنِّفَه ضمن فئة كتب التخييل. وقد يكون ما يقوله المؤلِّفُ غيرَ صحيح، ولكنَّه بهذا يصبح كاتبًا أفضل!».

كارول براون جاينواي (محرِّرة ومترجمة): «إذا اتّضح أنَّ الاتِّهامات [الموجَّهة إلى الكتاب]... صحيحة، فلن تكون القضيةُ هنا هي الحقائق الواقعيَّة التي من الممكن التأكُّدُ منها علميًا، بل الحقائق الروحيَّة التي من الواجب التأمُّلُ فيها. وسيكون مطلوبًا في هذه الحال إجراءُ تحقيقٍ مع الروح، وذلك أمر مستحيل!».

وهناك المزيد. فاسرائيل غوتمان - وهو مديرٌ في متحف يادڤاشيم، ومُحاضِرٌ في موضوع الهولوكوست في الجامعة العِبْريَّة، ونزيلٌ سابق في معسكر أوشڤيتز - رأى أنَّه «ليس أمرًا بهذهِ الأهميّة» أن يكون **شظايا** مزيَّفًا. فـ «لقد كتب ويلكومرسكي قصةً عاناها بعمق؛ وهذا أمر أكيد... وهو ليس محتالاً [أو مزيفًا]، بل هو شخص يعيش هذه القصة بعمقٍ شديدٍ روحيًا. وألمه أصيل». ولهذا، ليس مهمًا أن يكون قد أمضى الحربَ في معسكرِ اعتقالٍ أو في شاليه سويسريَّة؛ فويلكومرسكي ليس محتالاً إذا كان «ألمُه أصيلاً» : هكذا يتحدَّث ناجٍ من أوشڤيتز تحوَّل خبيرًا بالهولوكوست. حقًا، إنَّ الكتّاب الآخرين [أمثال ساميولسون وجاينواي] يستحقُّون الاحتقار، وأمَّا غوتمان فلا يستحقَّ إلاَّ الرثاء.

نشرتْ مجلةُ **ذا نيويوركر** كَشْفَها لاحتيال ويلكومرسكي تحت عنوان «سرقة الهولوكوست». بالأمس كان ويلكومرسكي مكرَّمًا بسبب حكاياته عن شرور الأغيار؛ وها هو اليوم يُعاقَب بوصفه واحدًا آخَرَ من الأغيار الأشرار. والذَّنْبُ هو دائمًا ذنْبُ الأغيار. صحيحٌ أنَّ ويلكومرسكي اختلق ماضيَه الهولوكوستيَّ، ولكنَّ الحقيقة الكبرى هي أنَّ صناعة الهولوكوست، المشيَّدة على إساءة استخدامٍ للتاريخ لأهداف إيديولوجيّة، كانت متأهِّبةً للترحيب باختلاقات ويلكومرسكي: فلقد كان «ناجيًا» من الهولوكوست يَنْتظر مَنْ يكتشفه.

في شهر تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٩ قام الناشرُ الألمانيّ لكتاب ويلكومرسكي بسحب نُسخ الكتاب من المكتبات، وأقرّ علنًا في آخر الأمر بأنّ الكاتب لم يكن يتيمًا يهوديًا بل شخصٌ مولودٌ في سويسرا واسمه برونو دويسيكر. وعندما أُعلم ويلكومرسكي بأنّ الحيلة قد افتُضِحَتْ، أَرْعَدَ متحدِّيًا: «أنا بنجامين ويلكومرسكي!». ولم يقم الناشرُ الأميركيّ (شوكِنْ) بإسقاط الكتاب من لائحة مبيعات الدار إلاّ بعد مرور شهرٍ من سحبه في ألمانيا[1].

لننظر الآن إلى أدبيّات الهولوكوست البحثيّة. من العلامات المميِّزة لهذه الأدبيّات هي المساحة المعطاة لـِ «صلة العرب» [بالهولوكوست]. فبالرغم من أنّ مفتي القدس [الحاج أمين الحسيني] لم يؤدِّ «أيّ دورٍ مهم في الهولوكوست» بحسب نوفِك، فإنّ **موسوعة الهولوكوست** المكوّنة من أربعة أجزاء (وحرّرها إسرائيل غوتمان) حَمّلتِ المفتي «دورًا رئيسيًا». ويحتلّ المفتي أيضًا مكانًا بارزًا في متحف يادفاشيم، وكَتَبَ توم سيغيف: «يُستدرج الزائرُ إلى الاستنتاج أنّ هناك الكثيرَ ممّا هو مشتركٌ ما بين الخطط النازيّة لتدمير اليهود والعداءِ العربيّ لإسرائيل». وفي إحدى مناسبات إحياء ذكرى ضحايا معسكر أوشفيتز، وترأس الشعائرَ رجالُ دينٍ يمثّلون كلَّ الديانات، اعتَرَضَ فيزل فقط على حضور قاضٍ مسلم، وقال: «أعلينا أن ننسى... الحاجَ أمين الحسيني، مفتي القدس وصديقَ هاينريش هيملر؟». وبالمناسبة، إذا كان للمفتي دورٌ بارزٌ كهذا في الحلّ النهائيّ [الهولوكوست]، فالعجب إذًا ألا تُحْضره إسرائيلُ للمحاكمة كما فعلتْ بآيخمان، بل كان يعيش بشكلٍ مكشوف بعد حرب [١٩٤٨] في لبنان الذي هو في جوار إسرائيل[2].

في أعقاب الاجتياح الاسرائيليّ المشؤوم للبنان في العام ١٩٨٢ بالأخصّ، وعندما بدأت الادعاءاتُ الإسرائيليّةُ الدعاويّة تتعرّض لهجومٍ كاسح من قبل

---

١ - «الناشر يُسقط كتابًا عن الهولوكوست [من لائحته]»، في **نيويورك تايمز** (٣ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٩). الان هال Hall ولورا ويليامز: «محتالٌ هولوكوستيٌ؟»، في **نيويورك بوست** (٤ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٩).

٢ - نوفِك: **الهولوكوست**، ص ١٥٨. سيغيف: **المليون السابع**، ص ٤٢٥. فيزل: **والبحر...**، ص ١٩٨.

«المؤرِّخين الجدد» الإسرائيليِّين، استمات مبرِّرو الاجتياح في تلطيخ صورة العرب بالنازيّة. فكرَّس المؤرِّخ [الأميركيّ] الشهير برنارد لويس فصلاً كاملاً من تأريخه الموجز للعداء للسامية، وثلاثَ صفحاتٍ كاملةً من «تأريخه الموجز للألفيْ سنة الأخيرة» من حياة الشرق الأوسط، للحديث عن النازيّة العربيّة. وعند الطرف الليبراليّ الأقصى من طيف أدبيّات الهولوكوست البحثيّة، نجد مايكل بِرِنْبَاوم من متحف واشنطن التذكاريّ للهولوكوست يتكرّم بالإقرار بأنّ «الحجارة التي يَقْذفها الشبابُ الفلسطينيُّون الغاضبون من الوجود الإسرائيليّ... ليست رديفةً للهجمات النازيّة ضد المدنيِّين اليهود الضِّعاف العزّل»(١).

أمّا أحدث المهازل في أدبيّات الهولوكوست فهي كتاب **جلاّدو هتلر المتطوِّعون**، لدانيال جوناه غولدهاغن. ولقد قامت كلُّ النشرات العامّة المهمّة بنشر عرضٍ أو أكثر للكتاب، وذلك خلال أسابيع قليلة من نشره. وقدّمتْ صحيفةُ **نيويورك تايمز** عروضًا متعدِّدة للكتاب، ممتدحةً إياه لكونه «واحدًا من تلك الأعمال الجديدة النادرة التي تستحقّ أن تُعتبر مَعْلَمًا» (كما كتب ريتشارد بيرنستين). وإذْ بلغتْ مبيعاتُ الكتاب نصفَ مليون نسخة، وتُرجِمَ إلى ١٣ لغة، فقد امتدحتْه مجلةُ **تايم** على أنّه «أكثرُ ما تتناوله الأحاديث» وأنّه ثاني أحسن كتاب غير تخييليّ في تلك السنة(٢).

وزَفَّ ايلي فِيزل كتابَ **جلاّدو هتلر المتطوِّعون** بوصفه «مساهمةً هائلةً في فهم الهولوكوست وتعليمها»، منوِّهًا بِـ «العمل البحثيّ الفذّ» و«ثروة البراهين... [المترافقة] مع دعمٍ كاسحٍ من الوثائق والحقائق». وامتدح إسرائيل غوتمان الكتابَ لأنّه «أثار، من جديد، أسئلةً مركزيّةً بوضوح» كانت «غالبيةُ أبحاث الهولوكوست» قد تجاهلتْها. وبترشيح غولدهاغن لشغل كرسيّ دراسات الهولوكوست في جامعة

---

١ ـ برنارد لويس: **الساميُّون والمعادون للساميّة** (نيويورك، ١٩٨٦) الفصل ٦؛ برنارد لويس: **الشرق الأوسط** (نيويورك، ١٩٩٥)، ص ٢٤٨ ـ ٢٥٠؛ بِرِنْبَاوْم: **بعد الكارثة والنصر**، ص ٨٤.

٢ ـ **نيويورك تايمز**، ٢٧ آذار/مارس، ٢ نيسان/أبريل، ٣ نيسان/أبريل ١٩٩٦. **تايم**، ٢٣ ديسمبر/كانون الأول ١٩٩٦.

هارفرد، وبقَرْنه بفيزل في وسائل الإعلام على مستوى الولايات المتحدة بأكملها، فإنَّه ما لبث أن أصبح طاغِيَ الوجود في جولة الهولوكوست المعهودة.

إنَّ الأطروحة المركزيَّة في كتاب غولدهاغن هي عبارة عن مذهبيَّة جامدة مألوفة في الهولوكوست، ومفادها: أنَّ الألمان، منقادين بكراهية مَرَضيَّة، انتَهَزوا الفرصةَ التي أتاحها لهم هتلر لقتل اليهود. حتى يهودا باوِرْ - وهو من أهم الكتّاب في موضوع الهولوكوست، ومحاضِرٌ في الجامعة العبريَّة، ومدير في متحف يادفاشيم - أيّد هذهِ الفكرة في بعض الأحيان. فقبل بضع سنوات تأمَّل الحالةَ العقليةَ لمرتكبي الجرائم، فكَتَبَ ما يلي: «لقد قُتِلَ اليهود بيَدِ أُناس لم يكونوا، إلى حدّ كبير، يكرهونهم بالفعل.... فلم يكن الألمان مضطرِّين إلى كره اليهود كي يقوموا بقتلهم». ومع هذا، ذَكَرَ باوِرْ في مراجعةٍ حديثة له لكتاب غولدهاغن رأيًا معاكسًا تمامًا، إذ قال: «لقد سادت أشدُّ النزعات الإجراميَّة المتطرِّفة منذ نهاية الثلاثينيَّات فصاعدًا.... ولدى اندلاع الحرب العالميَّة الثانيَّة كانت الغالبيةُ الساحقةُ من الألمان قد تماهت مع النظام الحاكم ومع سياساته المعادية للساميَّة إلى درجةٍ سَهَّلَ معها تجنيدُ المجرمين». وعندما سُئل باوِرْ عن هذا التعارض أجاب: «أنا لا أرى أيَّ تناقض بين هذين التصريحين!»(١).

ورغم أنَّ كتاب **جلاّدو هتلر المتطوعون** مستند إلى أدوات البحث العلميّ، فإنَّه لا يعدو كونَه تجميعًا ملخَّصًا للعنف الساديّ. فلا عجب إذًا أنَّ غولدهاغن ناصَرَ ويلكومرسكي بحماسٍ: وذلك لأنَّ **جلاّدو هتلر المتطوعون** عبارة عن كتاب **شظايا** أضيفتْ إليه الحواشي. كما أنّ كتاب **جلاّدو هتلر المتطوعون**، إذ يَزْخر بإساءات شديدة في عرض المراجع وبالتناقض الداخليّ، يخلو من أيّ قيمة أكاديميَّة.

---

١ - يهودا باوِرْ Bauer: «تأمُّلات في تاريخ الهولوكوست»، في كتابٍ من تحرير لويس غرينزپان Greenspan وغرايم نيكولسون: **فاكنهايم** (تورنتو، ١٩٩٣)، ص ١٦٤، ١٦٩. يهودا باوِرْ: «عن مرتكبي الهولوكوست والخطاب العام»، في **جوويش كوارترلي ريفيو**، عدد ٨٧ (١٩٩٧)، ص ٣٤٨ - ٣٥٠. نورمَنْ ج. فنكلستين ويهودا باوِرْ: «**جلاّدو هتلر المتطوّعون** لغولدهاغن: تبادل آراء» في المجلّة نفسها، عدد ١ - ٢ (١٩٩٨)، ص ١٢٦.

وفي كتاب محاكمة أمّة قام كاتبُ هذه السطور مع المؤرِّخة روث بيتّينا بيرن بتوثيقِ زيْفِ مشروع غولدهاغن. وأمّا النزاع الذي تبع نشرَ هذا الكتاب فإنّه يضيء بحقٍ الأساليب الداخليّة التي تعمل وفقها صناعةُ الهولوكوست.

فقد قامت المؤرِّخة بيرن، وهي المرجعيّة الأولى في العالم بخصوص السجلاّت التي دَرَسَها غولدهاغن، بنشر اكتشافاتها النقديّة أولاً في هستوريكال جورنال التي تَصْدر عن جامعة كامبريدج. وبعد أن رفض غولدهاغن دعوةَ المجلة إلى نشر ردٍّ كامل [على بيرن]، قام بدلاً من ذلك بتوكيل شركة محاماةٍ كبرى في لندن لمقاضاة بيرن ومنشوراتِ جامعةِ كامبريدج على «الطعون الشديدة المتعدِّدة». وطالب محامو غولدهاغن الكاتبةَ بيرن بالاعتذار والتراجع عن استنتاجاتها والوعدِ بالاّ تعيد انتقاداتها، ثمّ هددوا «بأنّ القيام بأيّة أعمال إعلانية من طرفكم نتيجةً لهذه الرسالة سوف يؤدّي إلى مزيد من مفاقمة الأضرار»[1].

وبعد فترة وجيزة من نشرِ كاتبِ هذه السطور استنتاجاتٍ نقديّةً شبيهةً في مجلة نيولَفْت ريڤيو، وافقتْ «متروپوليتان»، وهي فرعٌ من دار هنري هولت، على نشر المقالَيْن في كتاب واحد. وعندئذ قامت صحيفةُ فوروارد وعلى صدر صفحتها الأولى بالتحذير من أنّ متروپوليتان «تُعِدّ لإصدار كتابٍ لنورمن فِنْكِلْستين، وهو معارضٌ إيديولوجيٌّ لدولة إسرائيل رديءُ السمعة». وتقوم صحيفة فوروارد بدور الحسيب الصارمِ على «الصراط الهولوكوستيّ المستقيم» في الولايات المتحدة.

وإذْ زَعَمَ أَبراهام فوكسمان، رئيسُ «الرابطة المعادية للتشهير»، أنّ «انحياز فِنْكِلْستين الفاضح وتصريحاتِه الوقحةَ... ملطَّخةٌ بصورةٍ لا فكاكَ منها بموقفه المعارض للصهيونيّة»، فقد دعا دار نشر هنري هولت إلى الامتناع عن نشر الكتاب،

---

١ - لخلفيّة لهذا المقطع وللمقاطع التي تليه، أُنظرْ: شارلز غلاس Glass: «جلاّدو هتلر (غيرُ) المتطوِّعين»، في نيوستايتسمَان (٢٣ كانون الثاني/يناير ١٩٩٨)؛ لورا شاپيرو: «نزاعٌ على الهولوكوست»، في نيوزويك (٢٣ آذار/مارس ١٩٩٨)؛ تيبور كراوسز Krausz: «حروب غولدهاغن»، في جيروزالم ريپوت (٣ آب/أغسطس ١٩٩٨). ولهذه الأمور، ولأخرى متعلّقة بها، انظر الموقعَ الالكترونيّ التالي: www.NormanFinkelstein.com (وله صلة بموقع غولدهاغن على الشبكة).

وقال: «القضية هنا... ليست ما إذا كانت أطروحة غولدهاغن صحيحةً أم خاطئةً، ولكنَّ القضية هي ما هو 'النقدُ المشروع' وما هو النقد الذي يتجاوز الحدودَ». وردَّت ساره بيرشتل Bershtel، وهي من الشركاء في متروبوليتان، بأنَّ «صحَّة أطروحة غولدهاغن أو خطأها هي القضيةُ بالضبطَ».

هنا تَدَخَّل ليون ويزِلْتير Wieseltier، وهو محرِّرٌ في مجلَّة نيوريبِبْلِكْ المؤيِّدة لإسرائيل، بصورة شخصيَّةٍ مع مايكل نومان Naumann رئيسِ دار نشر هنري هولت، وورد على لسانه القولُ: «أنتَ لا تعرف مَنْ هو فِنْكِلستين. انَّه سُمّ. إنَّه يهوديٌّ مُقْرِف كارهٌ لذاته. إنَّه من الأشياء التي تجدها إذا ما قَلَبْتَ حجرًا*». أما إلان ستاينبرغ، وهو المديرُ التنفيذيُّ للمؤتمر اليهوديّ العالميّ، فقد أَعْلن انّ قرار دار النشر «عارٌ»، ورأى أنَّهم «إذا أرادوا أن يكونوا جامعي قمامةٍ فعليهم أن يلبسوا ملابس الزبّالين».

لاحقًا قال مايكل نومان متذكّرًا: «لم أعهدْ في حياتي محاولةً شبيهةً من قِبل أطرافٍ مهتمّةٍ من أجل التشكيك علنًا بكتابٍ على وشك الصدور». ولاحظ الصحافيُّ والمؤرِّخ الإسرائيليّ البارز توم سيغيف في صحيفة هاآرتز انَّ الحملة على الكتاب وصلتْ إلى حدّ «الإرهاب الثقافيّ».

بعد ذلك تعرضتْ بيرن للهجوم من قبل المنظَّمات اليهوديَّة الكنديَّة، فهي تَشْغل منصبَ المؤرِّخة الرئيسيَّة في «قسم جرائم الحرب والجرائم ضدّ الإنسانيَّة» التابع لوزارة العدل الكنديَّة. واستَنْكر المؤتمرُ اليهوديُّ الكنديّ إسهامَ بيرن في الكتاب زاعمين أنَّني «شخصٌ ملعونٌ من قبل الغالبيَّة العظمى من اليهود القاطنين في هذه القارة». ثم قام المؤتمر اليهوديّ الكنديّ بتقديم احتجاجٍ رسميٍّ إلى وزارة العدل الكنديَّة من أجل ممارسة الضغط على بيرن من خلال ربِّ عملها. وأدّى هذا الاحتجاجُ، الذي ترافقَ مع تقريرٍ مدعومٍ من المؤتمر اليهوديّ الكنديّ ويسمِّي بيرن «واحدة من أفراد العِرْق الذي ارتكب الهولكوست» (لأنَّ بيرن المانيَّة الأصل)، إلى إجراء تحقيقٍ رسميٍّ معها.

* ـ المقصود: صرصار أو عقرب. (م)

لم تتوقّف حملةُ الهجوم الشخصيّ حتى بعد صدور الكتاب. فقد ادّعى غولدهاغن أنّ بيرن، وهي التي جعلتْ من قضيّة مقاضاة مجرمي الحرب النازيِّين عَمَلَها الدائمَ طوال حياتها، من مروِّجي اللاساميّة. كما ادّعى أنّني مع الرأي القائل بأنّ ضحايا النازيِّين، ومن ضمنهم عائلتي، قد استحقوا الموت![1]. وقام زميلا غولدهاغِن في مركز الدراسات الأوروبيّة في جامعة هارفرد، وهما ستانلي هوفمان وتشارلز مائير، بالاصطفاف خلفه علنًا[2].

أمّا مجلّة ذا نيوريپَبْلِكْ فقد قالت إنّ وَصْفَ ما يجري بأنّه رقابة ما هو إلاّ «تضليل»، وأكّدتْ «أنّ هناك فرقًا بين الرقابة والدفاع عن المعايير [القويمة]». ولكنّ كتاب محاكمة امّة تلقّى استحسانًا من قِبل أهم مؤرِّخي الهولوكوست النازيّة، ومن ضمنهم راوول هيلبرغ وكريستوفر براونِنْغ Browning وإيان كرشو Kershaw. ورفض هؤلاء الباحثون انفسُهم [أطروحات] كتاب غولدهاغن، وعدّ هيلبرغ الكتابَ «لا قيمةَ له». ويتحدّثون، بعد ذلك، عن المعايير!

---

١ - دانيال جوناه غولدهاغن: «دانيال جوناه غولدهاغن يُعلِّق على بيرن»، في مجلّة جيرمان پوليتيكس آند سوسايتي [السياسة الألمانيّة والمجتمع] (صيف ١٩٩٨)، ص ٨٨، ٩١ هامش ٢. دانيال جوناه غولدهاغن: «خطابُ التجنُّب الجديدُ»، هامش ٢٥ (في الموقع التالي: www.Goldhagen.com/nda2html).

٢ - كان هوفمان هو المشرفَ على أطروحة الدكتوراه التي قدّمها غولدهاغِن واصبحتْ فيما بعدُ كتابَه جلاّدو هتلر المتطوّعون. ومع هذا، وفي انتهاكٍ فاضحٍ للتقاليد الاكاديميّة، لم يَقُمْ هوفمان بكتابة مراجعةٍ متوهِّجةٍ بالمديح لكتاب غولدهاغِن في مجلّة فورين افيرز فحسب، بل استنكر ايضًا كتاب محاكمة امّة بوصفه كتابًا «فظيعًا»، وذلك في النقد الذي كتبه للمجلة ذاتها (فورين افيرز، ايار - حزيران ١٩٩٦ وتموز - آب ١٩٩٨). وقام مائير بعرض تدخُّلٍ مطوّلٍ في صفحة على شبكة الانترنت تدعى H-German (ww2.h-net.msu.edu). وفي النهاية كانت «الجوانبُ الوحيدةُ في هذا الموضوع المتفاعل» التي وجدها مائير «مخزيةً بالفعل وتستحقَ الشجبَ» هي الانتقادات الموجّهة إلى غولدهاغن. وهكذا قدّم «دعمَه للاستنتاجات اللاحقة بأنّ هناك اذى» تعرّض له غولدهاغِن، وذلك أثناء الدعوة القضائيّة التي رفعها هذا الاخير على بيرن. كما شجب مائير آرائي بوصفها «تصوُّراتٍ خياليّةً وملتهبة» (٢٣ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٧).

ولننظرْ، أخيرًا، إلى النسق التالي: فِيزل وغوتمان دَعَما غولدهاغن؛ وفيزل دَعَمَ كوسينسكي؛ وغوتمان وغولدهاغِن دعما ويلكومرسكي. اربطْ بين اللاعبِين: هذه هي أدبياتُ الهولوكوست.

وبالرُّغم من الجعجعة، فليس هناك أيُّ دليل على أنَّ ناكري الهولوكوست يشكِّلون أيَّ تأثير في الولايات المتحدة بأكثر ممّا يؤثِّر دعاةُ فكرةِ أنَّ الأرضَ منبسطة. وإذا نظرنا إلى الهراء الذي تَمْخضه صناعةُ الهولوكوست بشكلٍ يوميٍّ، سيكون المستغربُ ألاّ يوجد هناك سوى القليلِ جدًا من المشكِّكين. وليس من الصعب تخمينُ الدافع وراء الزعم أنَّ ظاهرة إنكار الهولوكوست منتشرة. ففي مجتمع مُشْبَع بالـ هولوكوست، كيف يُمكن تبريرُ إنشاء المزيد من المتاحف والكتب والمقرَّرات الدراسيَّة والأفلام والبرامج، إلاّ باستحضار بعْبع إنكار الهولوكوست؟ ولهذا نجد أنّ كتاب ديبورا ليبستاد الشهير **إنكار الهولوكوست**[1]، بالإضافة إلى نتائج استطلاع الراي العام الذي أجرتْه «اللَّجنةُ اليهوديَّةُ الاميركيَّة» والذي كان مَصُوغًا صياغةً سخيفةً وزَعَمَ أنَّ إنكارَ الهولوكوست ظاهرةٌ منتشرة[2]، قد ظهرتْ وقتَ افتتاح متحف الهولوكوست التذكاريِّ في واشنطن تمامًا.

---

١ - صدر في نيويورك، ١٩٩٤. وتَشْغل ليبستاد Lipstadt كرسيَّ الهولوكوست في جامعة أمُوري، وعُيِّنتْ حديثًا في مجلس المتحف التذكاريِّ للهولوكوست في الولايات المتحدة.

٢ - استدعى استطلاعُ المؤتمر اليهوديِّ الاميركيِّ اللَّبْسَ لاستخدامه نفيًا مزدوجًا: «هل يبدو لك ممكنًا، أم يبدو لك غيرَ ممكن، أنّ الإبادة النازيَّة لليهود لم تَحْدث قطّ؟» فأجاب اثنان وعشرون بالمئة «يبدو ذلك ممكنًا». وفي استطلاعات لاحقة أعادت صياغةَ السؤال بشكلٍ مباشر، قاربتْ نسبةُ ناكري الهولوكوست الصفرَ. وأَظْهر استطلاعٌ حديثٌ اجراه المؤتمرُ اليهوديّ الاميركيّ وشمل أحدَ عشرَ بلدًا «انَّ القليل من الناس أنكروا وقوعَ الهولوكوست» بالرُّغم من ادّعاءات اليمينيِّين المتطرِّفين انَّ العكس هو الصحيح. (جَنيفِرْ غولاب Golub ورينيه كوهِنْ: **ماذا يعرف الاميركيُّون عن الهولوكوست؟** [اللَّجنة الاميركيَّة اليهوديَّة، ١٩٩٣]؛ «استطلاعات مُنْكري الهولوكوست غيرُ المقْنعة»، في **جيروزالم پوست** [٤ شباط/فبراير ٢٠٠٠]). ومع هذا شَدَّد دايڤيد هاريس من المؤتمر اليهوديِّ الاميركيِّ في شهادة أدلى بها امام الكونغرس الاميركيِّ بخصوص «اللاساميَّة في أوروبا» على بروز إنكار الهولوكوست في أوساط اليمين الأوروبيِّ، من دون أن يَذْكر على الإطلاق الاستنتاجات التي توصَّل إليها المؤتمرُ اليهوديُّ الاميركيُّ نفسه، والتي تدلّ على أنْ لا وجود لظاهرة إنكار الهولوكوست بين عامة الأوروبيِّين. (جلسات لسماع الشهادات أمام لجنة العلاقات الخارجيَّة، في مجلس الشيوخ الأميركيّ، ٥ نيسان/ابريل ٢٠٠٠).

إنّ كتاب **إنكار الهولوكوست** هو النسخةُ المحَدَّثةُ عن الكراسات الدعاويّة لـ «اللاساميّة الجديدة». فمن أجل توثيق ظاهرة إنكار الهولوكوست المنتشرة، أشارت ليپستاد إلى حفنة من المطبوعات الشاذّة والمهووسة. وكان المثال الأساسيّ الذي استندتْ اليه هو آرثر بَتْز Butz، وهو شخصٌ نكرةٌ يُدرِّس الهندسةَ الكهربائيّة في جامعة نورْث وَسْتِرْن، وكان قد نَشَر كتاب **خدعة القرن العشرين** في دارِ نشرٍ مجهولة. وعنونتْ ليپستاد الفصلَ الذي خصَّصتْه لهذا الكاتب بـ «الدخول في التيار [التقليديّ] السائد». ولولا أمثالُ ليپستاد لما سمع أحدٌ بآرثر بَتْز.

والواقع أنّ الشخص الوحيد الذي يُنْكر الهولوكوستَ بالفعل وينتمي إلى التيار [التقليديّ] السائد هو بِرنارد لويس. بل إنّ محكمة فرنسيّة دانَتْه بإنكار حادثةِ إبادةٍ جماعيّة. ولكنّ برنارد لويس أنْكر الإبادةَ الجماعيّة التي ارتكبها الأتراك ضدّ الأرمن أثناء الحرب العالميّة الأولى، لا الإبادةَ الجماعيّةَ التي ارتكبها النازيّون ضدّ اليهود؛ كما أنّ لويس مؤيِّدٌ لإسرائيل[1]. ولهذا، لم تُثِرْ هذهِ الحالةُ من إنكار الهولوكوست حنقَ أحدٍ في الولايات المتحدة. ثم إنّ تركيا هي حليفةٌ لإسرائيل، وهو ما يلطِّف الأمرَ أكثرَ فأكثر. وهكذا فإنّ ذكر الإبادة الجماعيّة للأرمن يُعدّ من المحرَّمات [تابو]. وفي الماضي قام إيلي ڤِيزل والحاخام آرثر هِرْتزْبرغ، فضلاً عن المؤتمر اليهوديّ الأميركيّ ومتحفِ يادڤاشيم [في إسرائيل]، بالانسحاب من مؤتمرٍ دوليٍّ حول الإبادة الجماعيّة عُقِدَ في تل أبيب، وذلك لأنّ الباحثين المُشْرفين على المؤتمر ضمَّنوه حلقاتٍ دراسيّةً حول الحالة الأرمنيّة، مخالِفين بذلك إلحاحَ الحكومة الإسرائيليّة. وسعى ڤيزل، من جهته، إلى إجهاض المؤتمر؛ ووفقًا لما قاله يهودا باوِرْ، قام بالتوسُّط لدى أشخاص آخرين كي لا

---

١ ـ انظر: «فرنسا تُغرِّم مؤرِّخًا بسبب إنكار الإبادة الأرمنيّة»، في **بوسطن غلوب** (٢٢ حزيران/يونيو ١٩٩٥)؛ و«برنادر لويس والأرمن»، في **كاونتر پانش** (١٦ ـ ٣١ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٧).

يَحْضروا المؤتمر[1]. كما قام «مجلسُ الهولوكوست في الولايات المتحدة» عمليًا، وبناءً على توصية من إسرائيل، بحذف أيّ ذِكْرٍ للأرمن من متحف الهولوكوست التذكاريّ في واشنطن. وقامت جماعاتُ الضغط اليهوديّة في الكونغرس بمنعِ تخصيصِ يومٍ لتذكّر الإبادة الجماعيّة الأرمنيّة![2].

ووفقًا لليپستاد، فإنّ التشكيك بشهادة أحد الناجين من الهولوكوست، أو شَجْبَ دور المتعاونين اليهود مع النازيّين، أو الإيحاءَ أنّ الألمان عانوا أثناء قصف مدينة درسْدِن أو أنّ أيّ دولة عدا ألمانيا ارتكبتْ جرائمَ في الحرب العالميّة الثانية، كلّ ذلك يشكّل دلائلَ على إنكار الهولوكوست[3]. كما أنّ الإيحاء أنّ ڤيزل يستفيد من صناعة الهولوكوست، أو حتى التشكيكَ بأقواله، ليرتقيان إلى مستوى إنكار الهولوكوست[4].

وترى ليپستاد أنّ أكثر أشكال إنكار الهولوكوست «مَكْرًا» هو «المقارنات اللاأخلاقيّة»: أيْ إنكار فرادة الـ هولوكوست[5]. ولهذه الحجّة مقتضيات ضمنيّة مثيرة. فمثلاً يحاول دانيال غولدهاغن أن يُثْبت أنّ أفعال صربيا في كوسوڤو «تختلف، في جوهرها، عن أفعال ألمانيا النازيّة بالحجم فقط»[6]. وهذا من شأنه أن يجعل من غولدهاغن «في جوهره» مُنْكِرًا للهولوكوست! والواقع أنّ المعلّقين الإسرائيليّين، ومن كافة الأطياف السياسيّة، قارنوا بين أفعال صربيا في كوسوڤو والأفعالِ الإسرائيليّة

---

١ ـ إسرائيل تشارني Charny: «أزمة المؤتمر. الأتراك والأرمن واليهود»، في كتاب **المؤتمر العالميّ عن الهولوكوست والإبادة الجماعيّة. الكتاب الأول: برنامج المؤتمر وازمته** (تل أبيب، ١٩٨٢). إسرائيل عمراني: «مساعَدَةٌ صغيرة للأصدقاء»، في **هارتز** (٢٠ نيسان/أبريل ١٩٩٠) (الكلام باور). وقدّم ڤيزل تفسيرًا عجيبًا لاستقالته من رئاسة المؤتمر، فقال إنّ ذلك حَدَث «حتى لا أُسيء لضيوفنا الأرمن». ومن المفترض انّه سعى ايضًا إلى إجهاض المؤتمر، وحثّ آخرين على الامتناع عن المشاركة فيه، مراعاةً منه لمشاعر الأرمن! (ڤيزل: **والبحر**.... ص ١٩٢).

٢ ـ إدوارد ت. لينينثال Linenthal: **الحفاظ على الذاكرة** (نيويورك، ١٩٩٥)، ص ٢٢٨ وما بعدها؛ ٢٦٣، ٣١٢ ـ ٣١٣.

٣ ـ ليپستاد: **إنكار الهولوكوست**، ص ٦، ١٢، ٢٢، ٨٩ ـ ٩٠.

٤ ـ ڤيزل: **كل الأنهار**.... ص ٣٣٣، ٣٣٦.

٥ ـ ليپستاد: **إنكار الهولوكوست**، الفصل ١١.

٦ ـ «صربيا جديدة»، في **نيو ريپابلِكْ** (١٧ أيار/مايو ١٩٩٩).

في العام ١٩٤٨ ضدّ الفلسطينيِّين[١]. وهكذا، بحسب تقديرات غولدهاغن، تكون إسرائيل قد ارتكبتْ هولوكوستًا. ولكنَّ الفلسطينيِّين أنفسَهم ما عادوا يدّعون ذلك!

ليست كلُّ أدبيَّات إعادة النظر في أحداث التاريخ revisionist literature عديمةَ الجدوى، بغضّ النظر عن بذاءة سياسات القائمين بها أو دوافعِهم. وتَسِمُ ليپستاد دايڤيد إرڤين بأنَّه «أحدُ أخطر الناطقين باسم إنكار الهولوكوست» (وقد خسر إرڤين مؤخّرًا قضيةَ قذفٍ وتشهيرٍ رَفَعَها ضدّ ليپستاد في إنكلترا بسبب هذا الزعم ومزاعم أخرى). ولكنَّ إرڤين، المعروفَ بإعجابه بهتلر وبتعاطفه مع الأفكار الاشتراكيّة القوميّة الألمانيّة، قد أَسْهم إسهاماتٍ «لا غنى عنها» (كما يشير غوردون كرايغ) في معرفتنا للحرب العالميّة الثانية. ويَسْتشهد كلٌّ من آرنو ماير، في دراسته المهمّة عن الهولوكوست النازيّة، وراوول هيلبرغ، بمراجعَ كَتَبَها مُنْكِرون للهولوكوست. وعلّق هيلبرغ بالقول: «إذا أراد هؤلاء الناس [مُنْكِرو الهولوكوست] الكلامَ، دعوهم يفعلوا ذلك. فهذا لن يعدو أن يقودنا، نحن الباحثين، إلى إعادة تفحُّصِ ما يُمْكن أن نكون قد اعتبرناه من الأمور الواضحة؛ وذلك شيء مفيد لنا»[٢].

* * *

١ ـ انظرْ، مثلاً، ميرون بَنْڤنيستي Benvenisti: «البحث عن مأساة»، في هاارتز (١٦ نيسان/أبريل ١٩٩٩)؛ وزئيف شافيتس Chafets: «ما نسيه كلينتون اللاّمتخرِّج»، في جيروزالم ريپورت (١٠ أيار/مايو ١٩٩٩)؛ وجيدون لَڤِي: «كوسوڤو: إنّها هامنا»، في هاارتز (٤ نيسان/أبريل ١٩٩٩). (ويَحْصر بنڤنيستي المقارنةَ بين أفعال صربيا وأفعالِ إسرائيل بأعمال هذه الأخيرة بعد أيار/مايو ١٩٤٨).

١ ـ آرنو ماير Mayer: لماذا لم تُظْلِم السموات؟ (نيويورك، ١٩٨٨). كريستوفر هيتشنز Hitchens: «شبحُ هتلر»، في مجلّة ڤانيتي فيرْ (حزيران/يونيو ١٩٩٦) (الكلام هيلبرغ). وللاطّلاع على تقويم متوازن لأعمال إرڤين، راجعْ غوردون أ. كرايغ: «الشيطان في التفاصيل»، في نيويورك ريڤيو أوف بوكس (١٩ أيلول/سبتمبر ١٩٩٦). فإذ نَبَذَ كرايغ مُحِقًّا ادعاءاتِ إرڤين عن الهولوكوست النازيّة بوصفها «بلهاء ويُمْكن دحضُها بيسر»، فإنَّه تابع قائلاً: «إنّه [إرڤين] عرف عن الاشتراكيّة القوميّة [الألمانيّة] أكثر من معظم الباحثين المحترفين في هذا المجال، ويَدين طلابُ السنوات ١٩٣٣ ـ ١٩٤٥ لطاقته باحثًا ولسعة منشوراته وحيويتها بدَيْن أكبرَ ممّا هم على استعداد للإقرار به دائمًا.... ويظلّ كتابه حرب هتلر... هو البحثَ الأفضلَ الذي نَمْلكه فيما يتعلّق بالجانب الألمانيّ من الحرب العالميّة الثانية، وهو لهذا مرجعٌ لا غنى عنه لدارسي هذا الصراع.... إنَّ لأشخاص من أمثال دايڤيد إرڤين، إذن، إسهامًا لا يُستغنى عنه في مشروع دراسة التاريخ، ولا نجرؤ على صرف النظر عن وجهات نظرهم».

تُعَدَ أيّامُ الاحتفال التذكاريّة السنويّة المخصّصة للهولوكوست [في اميركا] أحداثًا وطنيًة. وفيها تقوم جميعُ الولايات المتحدة الأميركيّة الخمسين برعاية مناسبات لإحياء الذكرى، وغالبًا ما تقام هذه المناسبات في مبنى برلمان الولاية. وتورد «جمعيةُ منظّمات الهولوكوست» قائمةً بأكثر من ١٠٠ مؤسّسة لإحياء ذكرى الهولوكوست في الولايات المتحدة. وهناك سبعةُ متاحف تذكاريّة اساسيّة للهولوكوست منتشرة في الأرض الأميركيّة، وواسطةُ العقد في هذا المسعى التذكاريّ هو المتحف الأميركيّ التذكاريّ للهولوكوست في واشنطن.

السؤال الأول: لماذا عندنا أصلاً متحفٌ تذكاريٌّ للهولوكوست، مُشَرَّعٌ ومموّلٌ من الحكومة الاتّحاديّة، وفي عاصمة البلاد؟ فالحقّ أنّ وجود هذا المتحف في مركز مدينة واشنطن (واشنطن مولْ) يتنافر وغيابَ متحفٍ تذكاريّ للجرائم التي حصلتْ خلال التاريخ الأميركيّ. تصوّرْ كيف ستكون حالُ الاتّهامات [الأميركيّة] المُغْوِلة الراميةِ [الألمانَ] بالنفاق لو انشأتْ ألمانيا متحفًا وطنيًا في برلين لا لإحياء ذكرى الإبادة الجماعيّة النازيّة، بل لإحياء ذكرى العبوديّة [التي تعرّض لها السودُ في أميركا] أو لإحياء ذكرى إبادة الأميركيّين الأصلانيّين [«الهنود الحمر»][(1)]!

لقد كَتَبَ مُصمِّمُ متحف الهولوكوست قائلاً إنّ المتحف «يحاول بدقّة شديدة أن يُحْجِمَ عن أيّ محاولة للتلقين، وعن أيّ تلاعب بالانطباعات أو العواطف». بيد أنّ المتحف، منذ تصوُّر فكرته إلى إتمام إنشائه، كان غارقًا في وحل

١ ـ للاطّلاع على المحاولات التي تمّت بين العام ١٩٨٤ والعام ١٩٩٤ لمنع إنشاء متحف قوميّ للأفارقة الأميركيّين في «واشنطن مول»، انظرْ: فات دايفيس رَفينز Ruffins: «حروب الحضارات، ما رُبح منها وما خُسر، الجزء الثاني: مشروع المتحف القوميّ الأفرو ـ أميركيّ»، في راديكال هيستوري ريفيو (شتاء ١٩٩٨). وقد أُحبطت المبادرة، التي قام بها أعضاء من الكونغرس، على يد السيناتور جيسي هيلمز ممثّلِ ولاية كارولينا الشماليّة. وتبلغ ميزانيةُ متحف الهولوكوست في واشنطن ٥٠ مليون دولار سنويًا، وتقدِّم الحكومةُ الاتّحاديّة ٣٠ مليون دولار من هذا المبلغ.

السياسة[1]. ولقد استهلّ جيمي كارتر المشروعَ، حين كانت الحملةُ الانتخابيّةُ الجديدة تَلُوح في الأفق، لاسترضاء المتبرِّعين اليهود والمقترعين اليهود الذين أغاظهم اعترافُ هذا الرئيس «بالحقوق المشروعة» للفلسطينيِّين. فكان أن استنكر الحاخام ألكزَنْدِر شيندلر، رئيسُ «مؤتمر رؤساء المنظّمات اليهوديّة الرئيسيّة» في أميركا، اعترافَ كارتر بإنسانيّة الفلسطينيِّين، واصفًا ذلك الاعترافَ بأنّه مبادرةٌ «تثير الصدمة». ثم أعلن كارتر عن خطط لإقامة المتحف، بينما كان رئيسُ الوزراء الإسرائيليّ مناحيم بيغن يزور واشنطن، ووسط معركةٍ طاحنةٍ في الكونغرس بسبب عرض الإدارة الأميركيّة صفقةَ بيعِ أسلحةٍ إلى السعوديّة. كما بزغتْ مسائل سياسيّةٌ أخرى في قضيّة هذا المتحف. فهو مثلاً يَسْكت عن الخلفيّة المسيحيّة للاسامية الأوروبيّة، وذلك كي لا يهين مشاعر الجماعات القويّة [انتخابيًا]. وهو يقلّل من شأن سياسات الولايات المتحدة التمييزيّة إزاء حصص أعداد المهاجرين إليها قبل الحرب [العالميّة الثانية]. وهو يبالغ في تصوير الدور الأميركيّ في تحرير معسكرات الاعتقال [النازيّة]، ويَعْبُر بصمتٍ أمام قيام الولايات المتحدة بالتجنيد الهائل لمجرمي الحرب النازيِّين لدى انتهاء تلك الحرب. إنّ رسالة المتحف الرئيسيّة هي التالية: «نحن» لا نستطيع أن نتصوَّر مجرّدَ حدوثِ أعمالٍ شريرةٍ كهذه، ناهيك عن تصوُّر ارتكابنا إيّاها. ويلاحظ مايكل برِنباوم في السجل التذكاريّ للمتحف أنّ الهولوكوست «تجري بعكس الميل [الفطريّ] السائد لروح الشعب الأميركيّ. ونحن نرى في ارتكابها انتهاكًا لكلّ قيمة أميركيّة جوهريّة». وأخيرًا، يومئ متحفُ الهولوكوست إلى العبرة الصهيونيّة، ومفادها أنّ إسرائيل كانت «الجواب المناسب ضدّ النازيّة»؛ ويتأتّى له ذلك عبر مشاهده الختاميّة التي تصوِّر ناجين يهودًا يكافحون لدخول فلسطين![2].

---

١ ـ لخلفيّة هذا الأمر، انظرْ: لينينثال: الحفاظ على الذاكرة؛ وسايدل: ليس التذكُّر بالأمر... ولاسيّما الفصلان ٧ و ١٥؛ وتيم كول Cole: بيع الهولوكوست (نيويورك ١٩٩٩)، الفصل ٦.

٢ ـ مايكل بِرِنباوم: على العالَم ان يَعْلَم (نيويورك ١٩٩٣)، ص ٢، ٢١٤. أومر بارتوف Bartov: القتلُ بينَ ظهرانينا (أوكسفورد ١٩٩٦)، ص ١٨٠.

يبدأ تسيُّسُ المتحف قبل عبور عتبته نفسها. فهو يقع في ساحة راوول والِنْبِرغْ. وإنَّما يُكَرِّم والنبرغ، وهو ديبلوماسيّ سويديّ، لأنَّه أنقذ آلافًا من اليهود وانتهى به الأمرُ في سجنٍ سوفييتيّ. وأمّا رفيقُه الدبلوماسيّ السويديّ الكونت فولك بيرنادوت فلم يكرَّم لأنَّه، على الرُّغم من إنقاذه آلافًا من اليهود هو الآخر، فإنَّ رئيس الوزراء الإسرائيليّ السابق إسحاق شامير أَمَرَ باغتياله لأنَّه شديد «التأييد للعرب»[١].

ولكنّ المشكلة المحيِّرة في سياسات متحف الهولوكوست تَكْمن في تحديد مَنْ يجب إحياءُ ذكراهم. فهل كان اليهودُ هم الضحايا الوحيدين لِـ الـهولوكوست، أم يُعتبر الآخرون الذين قَضَوْا بسبب الاضطهاد النازيّ ضحايا هم

---

١ ـ للتفاصيل، أنظرْ: كاتي مارتون Marton: **موت في القدس** (نيويورك ١٩٩٤)، الفصل ٩. وقد تذكّر فيزل في مذكّراته «الماضي 'الإرهابيّ' الأسطوريّ» ليهوشوا كوهِنْ الذي قام بالاغتيال الفعليّ للكونت بيرنادوت. لاحظْ هنا علامتي الاقتباس '...' [المتحفِّظَتَيْن] اللتين وضعهما فيزل حول كلمة: إرهابيّ. فِيزل: **والبحر...**، ص ٥٨. وعلى الرُّغم من أنّ متحف الهولوكوست التذكاريّ في نيويورك لم يكن أقلَّ غوصًا في أوحال السياسة [من نظيره في واشنطن] (إذ كان عمدةُ المدينة، إد كوتش، وحاكمُ الولاية، ماريو كومو، يتملّقان اليهودَ من أجل الحصول على أصواتهم وأموالهم)، فقد كان منذ البداية ألعوبةً في أيدي المستثمرين والبُناة اليهود. وفي إحدى المراحل سعى البُناة الى التخفيف من وقع كلمة «الهولوكوست» في اسم المتحف، خوفًا من أنْ تتسبَّب في انخفاض قيمة العقارات في المجمَّع السكنيّ الراقي المجاوِر. وعلّق مُطْلِقو النكات الساخرة أنَّه من الواجب إطلاقُ اسم «أبراج تربلينكا» على ذلك المجمّع وإطلاق اسميْ «شارع أوشفيتز» و«شارع بيركيناو» على الشارعَيْن المحيطَيْن به. [تربلينكا، وأوشفيتز، وبيركيناو: أسماء لمعسكراتِ الإبادةِ النازيّة. (م)]. والتَمَسَ المتحف الحصولَ على تبرُّعات من ج. بيتر غرايس، رغم اكتشاف ارتباطه بأحد مجرمي الحرب النازيِّين المُدانين، ونظَّمَ المتحف مهرجانًا في «ملهى الهوت رود»: «لجنة متحف الهولوكوست التذكاريّ في نيويورك تدعوك إلى تمضية أمسيتك في رقص الروك» (سايدِلْ: **ليس التذكر...**، ص ٨، ١٢١، ١٣٢، ١٤٥، ١٥٨، ١٦١، ١٩١، ٢٤٠).

أيضًا؟[١] ولقد قام ايلي ڤيزل (بالإضافة إلى يهودا باوِرْ من متحف ياد ڤاشيم) بقيادة الهجوم من أجل إحياء ذكرى اليهود وحدهم، وذلك خلال مراحل التخطيط للمتحف. واحتجَّ ڤيزل بعنادٍ، بصفته «الخبيرَ الذي لا ينازعه أحدٌ في أحداث الهولوكوست»، منتصرًا لفكرة تميُّز الضحويّة اليهوديّة [عمّا عداها]. وظلّ يترنّم كعادته: «لقد بدأوا باليهود، كما هو الحال دائمًا. وكما هو الحال دائمًا، لم يتوقفوا عند اليهود وحدهم»[٢]. ومع ذلك، كان الشيوعيُّون لا اليهودُ هم ضحايا النازيّة السياسيِّين الأوائل، وكان المعوَّقون لا اليهودُ هم ضحايا الإبادة النازيّة الأوائل![٣].

كان التحدِّي الأكبر الذي واجَهَ متحفَ الهولوكوست هو تبرير التغاضي عن الإبادة التي تعرّض لها الغَجَرُ. فلقد قَتَلَ النازيُّون، بشكلٍ منهجيّ، ما يصل إلى نصف مليون غجريّ، وتعادِلُ نسبةُ القتلى إلى تعدادهم الإجماليّ النسبةَ ذاتَها

١ ـ دعا نوڤك هذا الأمر بالخلاف حول رَقْمَيْ «٦ ملايين» مقابل «١١ مليون». وكان رقم ٥ ملايين لعدد الضحايا المدنيِّين من غير اليهود قد استُنبط كما يبدو من قبل «صائد النازيِّين» الشهير سايمون ڤيزنْتال. وإذ يلاحظ نوڤِك أنّ رقم ٥ ملايين «غير معقول من الناحية التاريخيّة»، يكتب: «فإمّا أن يكون هذا الرقم قليلاً أكثرَ مما ينبغي (لجميع المدنيِّين غير اليهود الذين قُتلوا على يد الرايخ الثالث) أو كبيرًا أكثرَ مما ينبغي (لجميع الجماعات غير اليهوديّة التي استهدفها النازيُّون بالقتل مثلما استَهْدَف اليهودَ)». ولكنّ نوڤِك يعجّل بالإضافة التالية: «طبعًا ليست أرقامٌ كهذه هي الموضوعَ هنا، بل الموضوع هو ما نعنيه وما نُحيل عليه عندما نتحدَّث عن 'الهولوكوست'». والغريب أنّ نوڤِكْ بعد أن قدّم هذا التوضيح قال إنّه يَدْعم إحياء ذكرى اليهود وحدهم، وذلك لأنّ رقم ٦ مليون «يَصِفُ شيئًا مُحدّدًا ومُعرَّفًا»، في حين أنّ رقم ١١ مليون «غائمٌ بصورةٍ غير مقبولة»! (نوڤك: **الهولوكوست**، ص ٢١٤ ـ ٢٢٦).

٢ ـ ڤيزل: **ضدّ الصمت**، المجلّد ٣، ص ١٦٢، ١٦٦.

٣ ـ للاطِّلاع على مسألة كون المعوَّقين هم أوائل ضحايا الإبادة النازيّة، انظرْ بشكل خاصّ: هنري فريدلاندر: **اصول الإبادة النازيّة** (شاپلْ هِلْ، ١٩٩٥). ووفقًا لِـ ليون ڤيزيلتير، فإنّ غير اليهود الذين ماتوا في أوشڤيتز «ماتوا ميتةً أُعِدَّت اصلاً لليهود... اي أنّ أولئك كانوا ضحايا 'حلٍّ' صُمِّمَ لآخرين» (ليون ڤيزيلتير Wieseltier: «في أوشڤيتز يموت الشرفُ من جديد»، في **نيويورك تايمز** [٣ أيلول/سبتمبر ١٩٨٩]). ومع هذا، وكما اثبتتْ دراساتٌ اكاديميّةٌ عديدة، كان ما اصاب اليهودَ هو موتٌ أُعِدَّ اصلاً للمعوَّقين الألمان. وبالإضافة إلى بحث فريدلاندرِ انظرْ مثلاً: مايكل بُرْليه Burleigh: **الموت والخلاص** (كامبريدج، ١٩٩٤).

تقريبًا في حال اليهود[١]. ومع ذلك أكّد باحثون في الهولوكوست، مثل يهودا باورْ، أنَّ الغجر لم يقعوا ضحايا للهجوم الإباديّ الذي تعرّض له اليهود. ولكنّ مؤرِّخي الهولوكوست المعروفين، مثل هنري فريدلاندر وراوول هيلبرغ، أكّدوا العكس[٢].

هناك دوافعُ متعدِّدةٌ تَكْمن وراء تهميش المتحف لإبادة الغجر. أولاً: لا يُمْكن المرءَ، ببساطة، أن يُقارِن خسارةَ حياةِ غجريٍّ بخسارة حياةِ يهوديّ !. وكان المديرُ التنفيذيُّ لمجلس متحف الهولوكوست التذكاريّ الأميركيّ، الحاخام سيمور سيغِلْ، الذي سَخر من الدعوة إلى تمثيل الغجر في إدارة المتحف معتبرًا أنَّها «سخافة»، قد شَكّك في أنَّ الغجر «موجودون» كشعب أصلاً، وقال: «يجب أن يكون هناك بعضُ الإقرار أو الاعتراف بشعب الغجر... هذا إذا كان هناك شيءٌ كهذا»! ولكنَّه أَقَرَّ بأنَّه «كان هناك قدر من المعاناة تحت الحكم النازيّ». ويتذكّر ادوارد لينينثال «الريبةَ العميقة» لدى ممثِّلي الغجر من مجلس المتحف، «وهي ريبة أُجِّجَتْ بدليلٍ واضحٍ على أنَّ بعض أعضاء هذا المجلس تعاملوا مع مشاركة الروما* في المتحف بالطريقة التي تتعامل بها عائلةٌ ما مع أقاربَ مُحْرِجين وغيرِ مرحَّبٍ بهم»[٣].

---

١ ـ انظرْ: غونتر ليوي Lewy: **الاضطهاد النازيّ للغجر** (اوكسفورد، ٢٠٠٠)، ص ٢٢١ ـ ٢٢٢، لتقديرات مختلفة عن عدد الغجر الذين قُتِلوا.

٢ ـ فريدلاندرْ: **أصول**..: «إلى جانب اليهود، قَتَل النازيُّون الغَجَر الاوروبيِّين. فلمّا كان الغجر قد عُرِّفوا بأنَّهم مجموعة عرقيّة من 'ذوي البشرة الداكنة'، فإنَّه لم يكن باستطاعة رجالهم ونسائهم وأطفالهم النجاةُ من مصيرهم كضحايا للإبادة النازيّة.... لقد ارتَكَبَ النظامُ النازيّ القتلَ المنهجيَّ ضدّ ثلاث مجموعات من البشر فقط : المعوَّقون واليهود والغجر» (xiii - xii). (وبالإضافة إلى أنَّ فريدلاندرْ مؤرِّخ من الطراز الأول، كان نزيلاً سابقًا في أوشفيتز). راوول هيلبرغ: **تدمير اليهود الاوروبيِّين** (نيويورك ١٩٨٥)، (في ٣ مجلدات)، المجلّد ٣، ص ٩٩٩ ـ ١٠٠٠. وادّعى ڤيزل في مذكّراته، و«بصيِرته» المعهود، أنَّه شعر بخيبةِ أملٍ لأنَّ مجلس متحف الهولوكوست، الذي يرأسه، لم يضمّ ممثِّلاً عن الغجر ـ وكأنَّ ڤيزل لم يملك النفوذ لترشيح أحدٍ منهم. (ڤيزل: **والبحر**...، ص ٢١١).

* ـ الروما: اسم أوروبيٌّ للغجر، وهو الاسم الذي يفضِّل الغجرُ أن يُطْلَقَ عليهم. (م)

٣ ـ لينينثال: **الحفاظ على الذاكرة**، ص ٢٤١ ـ ٢٤٦، ٣١٥.

ثانيًا: إنَّ الإقرارَ بإبادة الغجر ستعني خسارةً لامتيازٍ يهوديٍّ حصريٍّ بِـ الـ هولوكوست، وخسارةً مكافِئةً «للرأسمال الأخلاقيّ اليهوديّ». ثالثًا: إذا كان النازيُّون قد اضطَهَدوا اليهودَ والغجرَ بالطريقة ذاتها، فهذا سيعني بوضوح أنَّه لا يمكن التمسُّكُ بالمذهبيَّة الجامدة القائلة بأنَّ الـ هولوكوست شكَّلتْ ذروةَ كراهيةِ الأغيار لليهود منذ آلاف السنين. وبالمثل، إذا كان حَسَدُ الأغيار قد حَثَّ على إبادة اليهود، فهل كان الحسدُ أيضًا هو ما حَثَّ على إبادة الغجر؟ وللإشارة، فإنَّ المعرض الدائم داخل المتحف لم يُخصَّص لغير اليهود إلاّ ذِكْرًا رمزيًا[1].

واخيرًا، تقولَبَ برنامجُ الأهداف السياسيُّ لمتحف الهولوكوست بالصراع الإسرائيليّ ـ الفلسطينيّ. فقد كتب والتر رايخ، قبل أن يَتَقلَّد منصبَ مدير المتحف، أنشودةَ تسبيح بكتاب جوان بيترز الزائف منذ زمان سحيق الذي زعم أنَّ فلسطين كانت (حرفيًا) خاليةً من السكّان قبل الاستعمار الصهيوني[2]. وأُجبر رايخ على الاستقالة لاحقًا تحت ضغط وزارة الخارجية الأميركيَّة، لأنَّه رَفَضَ توجية دعوةٍ إلى ياسر عرفات لزيارة المتحف، بعد أن أصبح عرفات حليفًا أميركيًا مطاوعًا. وبعد أن عُرِض على جون روث Roth، اللاهوتيّ المتخصِّص بالهولوكوست، منصبٌ إداريٌّ ثانويٌ في المتحف، تعرَّض هذا لمضايقاتٍ دفعَتْه إلى الاستقالة لأنَّه كان قد انتقد إسرائيل في الماضي. كما قام مديرُ المتحف مايلز ليرمان Lerman برفض كتابٍ كان المتحفُ قد تبنّاه من قبل، وذلك لأنَّ الكتاب تَضَمَّن فصلاً أعدَّه بني موريس، وهو

١ ـ رغم أنّ «النزعة التخصيصيَّة الاصطفائيَّة لليهود» (حسب تعبير سايدل) كانت أكثر وضوحًا في متحف الهولوكوست في مدينة نيويورك ـ وكان ضحايا النازيّة من غير اليهود قد تلقوا منذ البداية إشعارًا من هذا المتحف بأنَّه «لليهود فقط» ـ، فقد استشاط يهودا باوِرْ غضبًا بسبب مجرَّد تلميح من «اللُّجنة» بأنّ الهولوكوست تَشْمل ضحايا من غير اليهود. ووجَّه باوِرْ رسالةَ تهديدٍ إلى أعضاء «اللُّجنة» قال فيها: «إذا لم يتغيَّر هذا الأمرُ فورًا وجذريًا، فإنَّني لن أدّخر وسعًا... لمهاجمة هذا التصميم المثير للسخط. وسأقوم بذلك مِنْ على كل منبرٍ عامٍ يتاح لي». (سايدال: ليس التذكر...، ص ١٢٥ ـ ١٢٦، ١٢٩، ٢١٢، ٢٢١، ٢٢٤ ـ ٢٢٥).

٢ ـ لخلفيَّة لهذا الموضوع، انظرْ: فنكلستين: الصورة والحقيقة، الفصل الثاني. [وانظرْ نقدًا كاسحًا لكتاب بيترز من تأليف فنكلستين، في كتابٍ لم يُترجمْ بعدُ إلى العربيَّة، وهو من تحرير إدوارد سعيد وكريستوفر هيتشنز وعنوانه: لومُ الضحايا. (م)]

مؤرِّخ إسرائيليّ بارزٌ وناقدٌ لإسرائيل. وجاهَر مايلز ليرمان بالقول: «أنْ يُوضَعَ هذا المتحفُ في الجانب المعارِض لإسرائيل ـ ذلك ما لا يُمْكن تصوُّره!»[1].

في أعقاب الاعتداءات الإسرائيليّة المروِّعة على لبنان في العام ١٩٩٦، والتي بلغَتْ ذروتَها في المذبحة التي ذَهَبَ ضحيَّتَها ما يزيد عن مئةٍ من المدنيِّين في قانا، لاحظ الكاتبُ الصحفيُّ الإسرائيليّ أري شافيت أنَّ بإمكان إسرائيل التصرُّفَ متمتِّعةً بالحصانة، لأنَّ «لدينا اللُّجنةَ المعادية للتشهير... ومتحفَ يادفاشيم، ومتحفَ الهولوكوست!»[2].

---

١ ـ «المنظمة الصهيونيّة في اميركا تنتقد توظيفَ متحف الهولوكوست أستاذًا قارَنَ بين إسرائيل والنازيِّين»، في إسرائيل وايرْ (٥ حزيران/يونيو ١٩٩٨). نيل م. شيرْ Sher: «نظِّفوا متحفَ الهولوكوست»، في جوويش وُرْلْدْ ريفْيُو (٢٢ حزيران/يونيو ١٩٩٨). «الزمن النذل»، في الدليل الذكيّ إلى الشؤون اليهوديّة (٢١ آب/اغسطس ١٩٩٨). دانيال كورتزمان: «متحف الهولوكوست ينتخب واحدًا يخصُّهُ لمنصبٍ عالٍ»، في جوويش تلغرافيك ايجنسي (٥ آذار/مارس ١٩٩٩). ايرا ستول Stoll: «متحف الهولوكوست يُقرّ بخطإ»، في فوروارد (١٣ آب/اغسطس ١٩٩٩).

٢ ـ نوم تشومسكي: الاوامر [الانظمة] العالميّة، القديمة والجديدة (نيويورك، ١٩٩٦)، ص ٢٩٣ ـ ٢٩٤ (الكلام شافيت).

الفصل الثالث

الابتزاز المزدوِج

في الأصل كانت عبارةُ «الناجون من الهولوكوست» تشير إلى مَنْ عانَوا الصدمةَ الفريدةَ للغيتوات اليهوديّة ومعسكراتِ الاعتقال ومعسكراتِ السُّخْرة، وغالبًا ما كانت هذه تأتي تِباعًا. ويقدُّر عددُ أولئك الناجين من الهولوكوست عقب انتهاء الحرب العالميّة الثانية بحوالى ١٠٠ ألف[1]. وأمّا اليوم فلا يمكن أن يتجاوز عددُ الناجين الأحياء رُبْعَ هذا الرقم. ولمّا كانت مقاساةُ معسكرات الاعتقال والسُّخرة قد باتت هالةً تَرْمز إلى أنّ صاحبها عانى العذابَ، فإنّ عددًا كبيرًا من اليهود الذين أَمْضَوْا فترةَ الحرب العالميّة الثانيّة في أماكن أخرى انتحلوا صفةَ «الناجين من المعسكرات». وثمّة حافز قويٌّ آخر لهذا التشويه، وهو حافزٌ ماديّ. فالحكومة الألمانيّة التي جاءت بعد انتهاء الحرب العالميّة الثانية قدّمتْ تعويضاتٍ إلى اليهود الذين كانوا في الغيتوات أو المعسكرات. وهكذا راح عددٌ كبير من اليهود يُفَبْرِك [يَخْتلِق] ماضيَه

١ ـ هنري فريدلاندرْ: «الظلام والفجر عام ١٩٤٥: النازيُّون والحلفاء والناجون»، في متحف الهولوكوست التذكاريّ في الولايات المتحدة، ١٩٤٥ ـ عام التحرير (واشنطن، ١٩٩٥)، ص ١١ ـ ٣٥.

لتنطبق عليه شروطُ التأهيل تلك[1]. حتى إنّ أمّي كانت تَهْتف مستغربةً: «لو كان كلُّ مَنْ يدّعي أنَّه ناجٍ هو فعلاً كذلك، فمَنِ الذين قَتَلَهم هتلر يا تُرى؟».

والحقّ أنّ عددًا كبيرًا من الباحثين رَمَوْا بظلال من الشك على موثوقيّة شهادات الناجين. ويتذكّر هيلبرغ في هذا الصدد أنّ «نسبةً مئويّةً كبيرةً من الأخطاء التي اكتشفتُها في عملي أنا بالذات قد تعود إلى تلك الشهادات». وداخل صناعة الهولوكوست ذاتها نجد أنّ دبوراه ليپستاد Lipstadt مثلاً تلاحِظ ساخرةً أنّ الناجين من الهولوكوست كثيرًا ما أكدوا أنّ جوزيف منْغِل* هو مَنْ حقّق شخصيًا معهم في آوشڤيتز![2].

وبمعزلٍ عن هشاشة الذاكرة، يُمْكن أن يُشتَبَه في شهادة الناجين من الهولوكوست لأسبابٍ إضافيّةٍ. فلمّا كان الناجون اليومَ يُوَقَّرون وكأنّهم قدّيسون من هذا العالم، فإنّ أحدًا لا يجرؤ على الشكّ فيهم، وصارت عباراتُهم المنافيةُ للعقل تَعْبر دونما تعليق. فمثلاً يتذكّر إيلي ڤيزِلْ، في مذكّراته المحتفَى بها، أنّه بعد أن حُرِّر من معسكر بوخِنْڤالد [في ألمانيا]، وكان ما يزال في الثامنة عشرة من العمر فقط، «قرأتُ **نقد العقل المحض** - لا تضحكْ! - باللُّغة اليِيديّة»**. فإذا وضعنا جانبًا اعترافَ ڤيزِل نفسِه بأنّه كان في ذلك الوقت «يَجْهل تمامًا القواعدَ اليِيديّة»، فإنّ **نقد العقل المحض** لم يُترجَم إلى اليِيديّة قط! ويتذكّر ڤيزِل أيضًا، وبتفصيلٍ دقيق، «باحثًا تلموديًا مكتنَفًا بالأسرار أتقن اللُّغةَ الهنغاريّةَ في أسبوعَيْن، بهدف إثارة دهشتي فقط». ويُخبر ڤيزِل أسبوعيّةً يهوديّةً أنّه «كثيرًا ما يصبح أجشّ الصوت أو يَفْقد صوتَه» حين يَقْرأ بصمتٍ كُتُبَه «عاليًا في سِرِّه». ويتذكّر أمام صحفيّ من **نيويورك تايمز** أنّ سيارةَ تاكسي صَدَمَتْه ذاتَ مرّة في ساحة تايمز [في نيويورك]:

---

١ - انظرْ مثلاً: توم سيغيف: **المليون السابع**، ص ٢٤٨.

* - Mengele: طبيبٌ نازيٌّ شهيرٌ عمل في معسكر أوشْڤيتز. (م)

٢ - لاپنْ: «الرجل ذو الرأسين»، ص ٤٨. د.د. غوتِنْپلان Guttenplan: «محاكمة الهولوكوست»، في مجلة **اتلانتيك مانْثلي** (شباط/فبراير ٢٠٠٠)، ص ٦٢ (ولكنْ راجع النصّ أعلاه حيث يساوي ليپستادت بين الشك في شهادةِ ناجٍ ونكرانِ الهولوكوست برمّتها).

** - لهجةٌ من لهجات اللُّغة الألمانيّة، يتحدّث بها اليهود، ولاسيّما في أوروبا الشرقيّة، وهي تُكتب بأحرف عِبْريّة. وأمّا **نقد العقل المحض** فهو أبرز أعمال إيمانويل كانط. (م)

«طرتُ بلوكًا كاملاً [مسافةَ صفٍّ كامل من البنايات المتجاورة]. فقد صدمتْني السيارةُ على تقاطع شارع رقم ٤٥ وجادةِ برودواي، وانتشلتْني سيارةُ الإسعاف مِنْ على شارع ٤٤ [!]». ويُكمل متنَهِّدًا: «إنَّ الحقيقة التي أقدِّمها غيرُ مزيَّنة؛ وأنا لا يمكن أن أفعلَ غيرَ ذلك»[١].

في السنوات الأخيرة أُعيد تعريفُ عبارة «الناجون من الهولوكوست» لا للإشارةِ إلى أولئك الذين تَحَمَّلوا النازيِّين فحسب، بل أيضًا إلى أولئك الذين نجحوا في التهرُّب منهم. فقد بات ذلك التعريفُ يتضمَّن، مثلاً، أكثرَ من ١٠٠ ألف يهوديّ بولنديّ وَجَدوا في الاتحاد السوڤياتيّ ملاذًا بعد الغزو النازيّ لبولندا. غير أنَّ «أولئك الذين عاشوا في روسيا لم يعامَلوا بغيرِ ما عومل به مواطنو الدولة الروسيّة أنفسُهم»، كما يلاحظ المؤرِّخ لانِرْد دينرستين، «في حين أنَّ الناجين من معسكرات الاعتقال بَدَوْا أَشْبهَ بالأموات الأحياء»[٢]. وأكّد أحدُ المُسْهمين في موقعٍ يُعنى بالهولوكوست على شبكة الانترنت أنَّه، برغم قضائه فترةَ الحرب العالميّة الثانية في تل أبيب، إنَّما هو ناجٍ من الهولوكوست لأنَّ جدّته ماتت في أوشڤيتز! وبحسب تقدير إسرائيل غوتمان، فإنَّ ويلكومِرْسكي ناجٍ من الهولوكوست لأنَّ «ألمه أصيل». وقد قدَّرَ مكتبُ رئيس الوزراء الإسرائيليّ مؤخَّرًا عددَ «الأحياء من الناجين من الهولوكوست» بمليون تقريبًا. والحافز الرئيسيّ وراء هذا التغيير المضخَّم [في الأرقام] ليس صعبًا العثورُ عليه أيضًا: فمن العسير المطالبةُ بتعويضات جديدة هائلة لو كان حَفنةٌ فحسبُ من الناجين من الهولوكوست مازالوا أحياء. والواقع أنّ شركاء ويلكومِرْسكي الأساسيِّين في المؤامرة قد كانوا، بطريقة أو بأخرى، يستغلّون شبكةَ التعويضات عن جرائم الهولوكوست: فصديقته في زمن الطفولة من أوشڤيتز، «لورا الصغيرة»، قبضتْ مالاً من أحد الصناديق السويسريّة المخصَّصة للتعويضات الهولوكوستيّة، مع أنّها في حقيقة الأمر اميركيّةُ المَوْلد وكثيرةُ الترددِ على جماعاتٍ

١ ـ ڤيزل: **كل الأنهار تصبّ في البحر**، ص ١٢١ ـ ١٣٠، ١٣٩، ١٦٣ ـ ١٦٤، ٢٠١، ٢٠٢ ـ ٢٠٢، ٣٣٦. **أسبوعيّة جوويش ويك**، ١٧ أيلول/سبتمبر ١٩٩٩. **نيويورك تايمز**، ٥ آذار/مارس، ١٩٩٧.

٢ ـ لانِرْد دينرستين Dinnerstein: **اميركا والناجون من الهولوكوست** (نيويورك، ١٩٨٢)، ص ٢٤.

تؤمن بعبادة الشيطان؛ ورُعاته الإسرائيليُّون الأساسيُّون كانوا ناشطين في منظمات تعمل في مجال التعويضات عن الهولوكوست، أو كانوا مدعومين ماليًا منها[1].

تقدِّم مسألةُ التعويضات رؤيةً متبصِّرةً فريدةً إلى صناعة الهولوكوست. فبعد أن تحالفتْ ألمانيا مع الولايات المتحدة زمنَ الحرب الباردة، كما رأينا، أُعيدَ إعمارُ ألمانيا بسرعة، وتمَّ نسيانُ الهولوكوست النازيَّة. ومع ذلك دخلتْ ألمانيا أوائلَ الخمسينيَّات من القرن العشرين في مفاوضاتٍ مع مؤسسات يهوديَّة، ووقَّعت اتفاقياتِ تعويضِ أضرار. وإلى اليوم دفعتْ ألمانيا ـ بضغطٍ خارجيٍّ قليلٍ، هذا إنْ كان ثمَّة من ضغطٍ على الإطلاق ـ حوالى ٦٠ بليون دولار من التعويضات.

ولكنْ قارنْ ذلك بالسجلّ الأميركيّ. فقد مات ما بين أربعة ملايين إلى خمسة ملايين رجل وامرأة وطفل نتيجةً لحروب الولايات المتحدة في الهند الصينيَّة. وبعد أن انسحبت الولاياتُ المتحدة كانت ڤيتنام في حاجة ماسَّة إلى العون، على نحو ما يتذكَّر أحدُ المؤرِّخين: «ففي الجنوب دُمِّرتْ ٩٠٠٠ من أصل ١٥٠٠٠ دَسْكرة، ودُمِّر ٢٥ مليون أكر* من المزارع، و١٢ مليون أكر من الغابات، وقُتِلَ ١،٥ مليون حيوان مَزَارِع؛ وكان هناك ما يقدَّر بـ ٢٠٠ ألف مومس، و٨٧٩ ألف يتيم، و١٨١ ألف معوَّق، ومليون أرملة؛ ودمِّرتْ تدميرًا هائلاً جميعُ المدن الصناعيَّة الست في شماليّ ڤيتنام، وكذلك الأمر بالنسبة إلى قرى الإقليم والمقاطعات، و٤٠٠٠ كومونة زراعيَّة من أصل ٥٨٠٠». ولكنَّ الرئيس كارتر رَفَضَ دفعَ أيِّ تعويضات، شارحًا موقفَه بالقول إنَّ «التدمير كان متبادلاً !». وصرَّح ويليام كوهِن، وزيرُ الدفاع في ظلِّ حكم الرئيس كلينتون، بأنَّه لم يجد حاجةً «إلى أيِّ اعتذار، ولاسيَّما عن الحرب نفسها»، ثمَّ ارتأى هو أيضًا أنَّ «الأمَّتَيْن [الأميركيَّة والڤيتناميَّة] قد تأذَّتا من ذلك. فهم [الڤيتناميُّون] تأذَّوا من الحرب. ونحن بالتأكيد تأذَّينا أيضًا !»[2].

---

١ ـ دانيال غانزفريد Ganzfried: «بنجامين ويلكومِرْسكي...»، في جريدة فلتفوخ (٤ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٩).

* ـ الأكر: حوالى ٤ آلاف متر مربَّع. (م)

٢ ـ ماريلين ب. يونغ Young: حروب ڤيتنام (نيويورك، ١٩٩١)، ص ٣٠١ ـ ٣٠٢. «كوهِن: الولايات المتحدة ليست آسفةً على حرب ڤيتنام»، نقلاً عن اسوشياتد پرس (١١ آذار/مارس ٢٠٠٠).

سعت الحكومة الألمانيّة إلى التعويض عن الضحايا اليهود من خلال ثلاث اتفاقيّات مختلفة وُقِّعتْ عام ١٩٥٢. فتلقّى الأفراد المطالِبون بالتعويضات أموالاً بحسب شروط «قانون التعويضات» (بالألمانيّة: Bundesentschädigungsgesetz). وموّلتِ اتفاقيّةٌ منفصلةٌ مع إسرائيل تكاليفَ استيعاب هذا الكيان بضعَ مئاتٍ من الآلاف من اللاجئين اليهود وإعادة تأهيلهم. وفي الوقت نفسه أنْجزت الحكومةُ الألمانيّةُ تَسْويةً ماليّةً مع «مؤتمر المطالب اليهوديّة الماديّة من ألمانيا»، وهو مظلّة تَجْمع المنظماتِ اليهوديّةَ الأساسيّةَ بما فيها: «اللُّجنةُ الأميركيّة اليهوديّة»، و«المؤتمرُ الأميركيّ اليهوديّ»، و«بناي بْرِثْ» و«لجنةُ التوزيع المشتركة» وهلمجرًا. وكان يُفترض أن يَصْرف «مؤتمرُ المطالب اليهوديّة» الأموالَ، وهي ١٠ ملايين دولار سنويًا لاثنتيْ عشرة سنة، أو حوالى بليون دولار بالقيمة الراهنة، على ضحايا الاضطهاد النازيّ من اليهود الذين سَقَطوا بين فجوات عملية التعويض [السابقة][1]. وكانت أمّي مثالاً على ما حَدَثَ حقًا. فلكونها نَجَتْ من غيتو وارسو ومن معسكر اعتقال مَجْدانِك ومن معسكرات السُّخرة في شستُوشُوا وسكارسزيكوكامينا، تلقّتْ ٣٥٠٠ دولار فقط تعويضًا من الحكومة الألمانيّة. ولكنّ ضحايا يهودًا آخرين (وأناسًا غيرَهم لم يكونوا في حقيقة الأمر بالضحايا) تلقّوا من ألمانيا معاشاتٍ مدى الحياة تَبْلغ في نهاية المطاف مئاتِ الآلاف من الدولارات، علمًا أنّ الأموال التي أُعطيتْ إلى «مؤتمر المطالب اليهوديّة» كان يُفترض أن تُخصَّص للضحايا اليهود الذين كانوا في السابق قد تلقّوا تعويضًا متدنّيًا فقط.

والحقّ أنّ الحكومةُ الألمانيّة سعت إلى أن توضح في الاتفاق الذي عقدتْه مع «مؤتمر المطالب اليهوديّة» أنّ الأموال ستذهب إلى الناجين اليهود وحدهم، بالتعريف الحصْريّ للعبارة، الذين سبق للمحاكم الألمانيّة أن عوّضتْهم تعويضًا غيرَ عادلٍ أو غيرَ كافٍ. ولكنّ «مؤتمر المطالب اليهوديّة» عبّر عن غضبه لوضع نياته الحسنة موضعَ تشكيك، وأَصْدر بيانًا صحفيًا بعد الوصول إلى ذلك الاتفاق شدّد فيه على أنّ الأموال سُتستخدَمُ «لصالح اليهود الذين اضطهدهم النظامُ النازيُّ ولا تستطيع التشريعاتُ

١ - لخلفية هذا الموضوع راجعْ بشكل خاصّ: نانا ساغي Sagi: التعويضات الألمانيّة (نيويورك، ١٩٨٦)، ورونالد و. زفايغ: التعويضات الألمانيّة والعالَمُ اليهوديّ (بولدر، ١٩٨٧). والكتابان تأريخان رسميّان كُلّفَ [الكاتبَيْن] بكتابتهما «مؤتمرُ المطالب اليهوديّة».

القائمة أو المقترحة أن تقدِّم لهم علاجًا». وناشد الاتفاق النهائيّ «مؤتمرَ المَطالب» استخدامَ الأموال «لغوث الضحايا اليهود وإعادة تأهيلهم وتوطينهم».

غير أنَّ «مؤتمر المطالب» ألغى الاتفاق على الفور. وفي انتهاكٍ فاقعٍ لنصّ هذا الاتفاق ولروحه، خَصّص هذا المؤتمرُ الأموالَ لا لإعادة تأهيل الضحايا اليهود وإنّما لإعادة إحياء الجاليات اليهوديّة. والحقّ أنّ مبدأً هاديًا في «مؤتمر المطالب» مَنَعَ استخدامَ الأموال «لمخصّصات الأفراد المباشرة»، ولكنّ «المؤتمر» ـ وفي حالةٍ نموذجيّةٍ من حالات الاهتمام بمصالح الذات فقط ـ استثنى فئتَيْن من الضحايا: فحاخاميُّون و«قادةٌ يهودٌ بارزون» تلقَّوا فعلاً دفعاتٍ مخصَّصةً للأفراد. ولقد استَخْدمتِ المنظماتُ التي تشكّل «مؤتمرَ المطالب» معظمَ الأموال لتمويل مشاريع مختلفةٍ كانت أثيرةً عندها. وأيًا كانت الأرباحُ التي تلقّاها الضحايا اليهودُ الفعليُّون (إنْ كانت هناك أيُّ أرباح على الإطلاق)، فقد كانت غيرَ مباشرة أو عَرَضِيَةً[1]. وكانت مبالغ كبيرة تشقّ طريقًا التفافيًّة إلى الجاليات اليهوديّة في العالم العربيّ، وسهّلتِ الهجرةَ اليهوديّةَ من أوروبا الشرقيّة [إلى فلسطين][2]. كما أنّ تلك المنظّمات

١ ـ اعترفت الحكومةُ الألمانيّةُ (وإنْ بلغةٍ غايةٍ في الالتفاف) في ردِّها على سؤال وَضَعَه مؤخّرًا أحدُ أعضاء البرلمان الألمانيّ مارتن هوهمان (من «الاتّحاد الديموقراطيّ المسيحيّ»)، أنّ ١٥٪ فقط من الأموال المعطاة إلى «مؤتمر المطالب اليهوديّة» أفادتْ حقًّا ضحايا الاضطهاد النازيّ اليهودَ. (اتّصال شخصيّ، ٢٣ شباط/فبراير ٢٠٠٠).

٢ ـ يُقرّ رونالد زفايغ بوضوح في تاريخه الذي كلّفه بإعداده «مؤتمرُ المطالب» بأنّ هذا المؤتمر انتهك شروطَ الاتفاق، قائلاً: «إنّ تدفُّقَ أموال 'المؤتمر' قد أتاح لـ 'لجنة التوزيع المشتركة' أن تواصل في أوروبا برامجَ كانت ستوقفها لَوْلا تلك الأموال، وأتاح لها أيضًا أن تتولّى برامجَ ما كان لها أن تفكّر في توليها لقلّة التمويل. غير أنّ التغيير الأبرز في ميزانيّة 'لجنة التوزيع'، والناجمَ عن دفعات التعويضات، كان المخصّصات المرسلة إلى [الجاليات اليهوديّة] في الدول المسلمة حيث زادت نشاطاتُ 'اللجنة' بمعدل ٦٨٪ خلال الأعوام الثلاثة الأولى من دفعات المؤتمر. وبالرغم من المعوّقات الأولى المفروضة على استخدام أموال التعويضات بحسب ما جاء في الاتفاق مع ألمانيا، فإنّ المال كان يُستخدم حيث تكون الحاجةُ أعظم. وقد لاحظ موزسْ ليفيت Leavitt [وهو موظفٌ عالٍ في 'مؤتمر المطالب']... أنّ: 'ميزانيّتنا كانت تستند إلى أولويّات الحاجة في إسرائيل وخارجها، بما في ذلك الدول المسلمة... لم نكن نَعْتبر اموالَ 'المؤتمر' إلاّ جزءًا من اموالٍ عامّةٍ وُضعتْ تحت تصرّفنا من اجل ان نفي بذلك المجالِ من الاحتياجات اليهوديّة الذي كنّا مسؤولين عنه، وهو مجال الأولويّة القصوى'» (كتاب زفايغ: التعويضات الألمانيّة، ص ٧٤).

موَّلتْ مشاريع ثقافيَّة، مثل متاحف الهولوكوست التذكاريَّة وكراسيُّ جامعيَّةٍ في «دراسات الهولوكوست»، فضلاً عن برامج متبجِّحة تابعةٍ لمتحف الهولوكوست الإسرائيليِّ (ياد فاشيم) تعطي مِنحًا لـ «الأغيار الأخيار».

ومؤخَّرًا سعى «مؤتمرُ المطالب اليهوديَّة» إلى الاستيلاء على الأملاك اليهوديَّة التي نُزعتْ عنها ملْكيَّةُ حكومة «المانيا الشرقيَّة» سابقًا، وتقدَّر بمئات ملايين الدولارات التي تخصّ من الناحية الشرعيَّة وَرَثَةَ يهودٍ أحياء. وإذ تعرَّضَ «المؤتمرُ» المذكورُ لهجومِ يهودٍ سُلِبوا أموالَهم بالاحتيال فاتَّهموا «المؤتمر» بذلك الاستغلال وباستغلالاتٍ أخرى، صَبَّ الحاخامُ ارثر هِرْتزبِرْغ لعنَته على الجانبَيْن معًا، ساخرًا من «أنَّ المسألة ليست مسألةَ عدالة، بل هي صراعٌ على المال»[1]. لاحِظْ أنَّه حين يَرفض الألمانُ أوِ السويسريُّون أن يَدْفعوا التعويضات، فإنَّ السموات لا تستطيع أن تَسَعَ النقمةَ الأخلاقويَّة عليهم من قِبل الحركة اليهوديَّة الأميركيَّة المنظَّمة؛ ولكنْ حين تَسْلب نخبٌ يهوديَّةٌ ناجين يهودًا فليس ثمَّة مسألةٌ اخلاقيَّة على المحكّ، وإنَّما المسألة هي صراع على المال فقط!

وعلى الرُّغم من أنَّ الفقيدة أمِّي تلقَّت ٣٥٠٠ دولار فقط تعويضًا، فقد تلقَّى آخرون يعملون في قضيَّة التعويضات أموالاً كثيرة. فالمعاش السنويّ المعلَنُ لِـ«سول كايغن» Kagan، وهو السكرتير التنفيذيّ لـ «مؤتمر المطالب اليهوديَّة» منذ زمن بعيد، هو ١٠٥ آلاف دولار. وأثناء مراحل عمله في «المؤتمر» دِينَ كايغن بـ ٣٣ حالة من إساءة استخدام الأموال والاعتمادات عمدًا حين كان رئيسًا لبنكٍ في نيويورك (ولم يُسْقَط الاتهامُ إلاَّ بعد عدَّة استئنافات). وأمَّا الفونس داماتو، وهو عضوٌ سابقٌ في

---

١ ـ انظرْ مثلاً: لورين ادامز Adams: «[تصفية] الحساب»، في واشنطن بوست ماغازين (٢٠ نيسان/ابريل ١٩٩٧)؛ ونَتي س. غروس Gross: «نادي أولاد الشلَّة، وبعد أعوام من التعطيل، مؤتمرُ المطالب اليهوديَّة يغيِّر سياسته»، في جيروزالم ريپروت (١٥ أيار/مايو ١٩٩٧ و١٦ آب/اغسطس ١٩٩٧)؛ وربيكًا سپنس: «فريق مطالب تأمينات ضحايا الهولوكوست يتلقى ملايينَ الدولارات من الفواتير، فيما الناجون ينتظرون»، في مجلة فوروارد (٣٠ تموز/يوليو ١٩٩٩)؛ وفيرينا دوبنيك Dobnik: «أحد اقارب أوسكار هامرستين يقاضي مصرفًا المانيًا على ارصدة [ضحايا] الهولوكوست»، في **AP Online** (٢٠ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٨) (من أجل قَوْل هرتزبرغ).

مجلس الشيوخ من نيويورك، فيتوسّط دعاوى قضائيّةً لصالح ضحايا الهولوكوست ضد بنوك المانيّة ونمساويّة مقابل ٣٥٠ دولارًا في الساعة مضافًا إليها المصاريف، وقد تلقّى مقابل ستة اشهر من اتعابه مبلغَ ١٠٣ آلاف دولار اميركيّ. وكان فِيزِل قد امتدَحَ علنًا داماتوا لـ «احاسيسه المرهفة تجاه المعاناة اليهوديّة» [!]. وأمّا لورنس إيغلبرْغر، وهو وزير الخارجيّة أثناء حكم الرئيس بوش، فيَقْبض معاشًا سنويًا بمقدار ٣٠٠ الف دولار مقابلَ ترؤسه «اللّجنةَ العالميّةَ للمطالبة بتامينات الضحايا في حقبة الهولوكوست». ويرى إلان ستاينبرغ، من «المؤتمر اليهوديّ العالميّ»، انه «أيًا كان ما يَقْبضه إيغلبرغر فإنّه صفقةٌ رابحةٌ بكلّ معنى الكلمة [لَقْطَة]». إنّ كايغن لَيُودعُ خزنتَه خلال ١٢ يومًا، وإيغلبرْغِر خلال ٤ أيام، وداماتو خلال ١٠ ساعات، ما تلقّتْه أمي في مقابل معاناتها ستَّ سنوات من الاضطهاد النازي[١].

غير أنّ جائزةَ أشطرِ متاجرٍ بالهولوكوست ينبغي بالتّأكيد أن تكون من نصيب كينيث بيَالْكِنْ Bialkin. فطوال عقود كان زعيمًا يهوديًا بارزًا في الولايات المتحدة، وترأس «اللّجنةَ المعادية للتشهير» و«مؤتمرَ رؤساء المنظّمات اليهوديّة الأميركيّة الرئيسيّة»، وهو اليوم يمثّل شركة التأمين «جنرالي» ضدّ لجنة إيغلبرغر وذلك مقابل «مبلغ كبير من المال» بحسب التقارير الواردة[٢].

* * *

في السنوات الأخيرة صارت صناعةُ الهولوكوست «ماكينةً» صريحةً لابتزاز الأموال. فإذْ زعمتْ انّها تمثّل يهودَ العالم بأجمعهم، أحياءَهم وأمواتَهم، راحت تدّعي ملْكيّتَها لأرصدة اليهود في كل انحاء أوروبا خلال حقبة الهولوكوست. هذا الابتزاز

---

١ ـ غريغ ب. سميث: «القاضي الاتحاديّ يوافق على الاتّفاق بشأن الهولوكوست»، في جريدة دايلي نيوز (٧ كانون الأول/يناير ٢٠٠٠). جاني سكوت: «يهودٌ يتحدّثون عن ودائع الهولوكوست»، في جريدة نيويورك تايمز (١٧ تشرين الأول/اكتوبر ١٩٩٦). وقد قرأ سول كايغن مسوَّدة فقرتي هذه في «مؤتمر المطالب اليهوديّة»، وتُدخل نسختي الأخيرةُ جميعَ تصحيحاته بخصوص هذه الوقائع.

٢ ـ إيلي ولغلرنتر Wohlgelernter: «المحامون والهولوكوست»، في جريدة جيروزالم بوست (٦ تموز/يوليو ١٩٩٩).

المزدوِج، للدول الأوروبيّة وللمطالِبين اليهود الشرعيِّين أيضًا، وسُمِّيَ بحق «الفصلَ الأخيرَ من الـ هولوكوست»، استَهْدَفَ سويسرا أولَ الأمر. وسأقوم باديَ ذي بدء بقراءة الادّعاءات الموجَّهة ضد السويسريِّين، ثم أنتقل إلى الأدلة، مبيِّنًا أنَّ اتِّهاماتٍ كثيرةً لم تكن مستندةً إلى الكذب فحسب بل تنطبق بشكلٍ أدقّ على أولئك الذين أَطْلقوها أكثرَ من انطباقها على المستَهْدَفِين منها.

فاحتفالاً بذكرى مرور ٥٠ سنة على نهاية الحرب العالميّة الثانيّة، قدّم رئيسُ سويسرا اعتذارًا رسميًا في أيار/مايو ١٩٩٥ لعدم سماح سويسرا لليهود أثناء الهولوكوست النازيّة باللجوء إليها[1]. وفي ذلك الوقت تقريبًا أعيد فتحُ النقاش حول قضية تغلي منذ زمن بعيد، وهي قضيّة الأموال اليهوديّة المُودَعة في حساباتٍ سويسريّةٍ قبل الحرب العالميّة الثانية وأثناءها. ففي تقرير واسع الانتشار استَشْهد صحفيٌّ إسرائيليٌّ بوثيقةٍ ـ اتّضحَ فيما بعد أنَّ قراءتَها قد أُسيئت ـ تُثْبِت أنَّ المصارف السويسريّة ماتزال تحتفظ بحسابات يهوديّة من حقبة الهولوكوست وتقدَّر ببلايين الدولارات[2].

إزاء هذه السانحة الجديدة قفز «المؤتمرُ اليهوديُّ العالميُّ» ليَعْرِض عضلاته، وكان ـ قَبْل حملته التي دانتْ كورت ڤالدهايم* بوصفه مجرمَ حرب ـ منظَّمةً مُحْتضِرةً. وكانت سويسرا قد اعتُبِرتْ منذ عهدٍ بعيد طريدةً سهلة؛ وقلّة من الناس

---

١ ـ من اجل خلفيّة لهذا القسم من البحث أُنظرْ: توم باورْ Bower: **الذهب النازيّ** (نيويورك، ١٩٩٨)؛ وايتامار لڤين Levin: **الوديعة الأخيرة** (وستپورت، كونّتيكيت، ١٩٩٩)؛ وغريغ ج. ريكمان Rickman: **المصارف السويسريّة والأرواح اليهوديّة** (نيو برونزويك، نيو جرزي، ١٩٩٩)؛ وإيزابيل ڤينسنت Vincent: **شركاء هتلر الصامتون** (نيويورك، ١٩٩٧)؛ وجان زيغلر Ziegler: **السويسريُّون والذهب والموتى** (نيويورك، ١٩٩٧). وتحتوي هذه الكتبُ معلوماتٍ مفيدةً كثيرة، برغم أنّها تشكو انحيازًا واضحًا ضدّ أصحاب المصارف السويسريّة.

٢ ـ لڤين: **الوديعة الأخيرة**، الفصلان ٦ ـ ٧. وعن التقرير الإسرائيلي الخاطئ (وهو من تأليف لڤين وإنْ لم يُذْكر ذلك) انظرْ: هانس ج. هالبْهير Halbheer: «إلى أصدقائنا الأميركيِّين»، في **الأوراق الموسميّة للمؤسّسة الاميركيّة السويسريّة** (دون تاريخ).

* ـ ڤالدهايم: رئيس جمهوريّة النمسا بين ١٩٨٦ و١٩٩٢. (م)

ستتعاطف مع أصحاب مصارف سويسريِّين أغنياء في مواجهة «ناجين من الهولوكوست محرومين». ولكنَّ الأهمَ من ذلك هو أنّ المصارف السويسريّة قد كانت هشّةً جدًا إزاء الضغوط الاقتصاديّة القادمة من الولايات المتحدة[1].

في أواخر عام ١٩٩٥ التقى أصحابَ المصارف السويسريّة كلٌّ من إدغار برونفمان Bronfman (وهو رئيس «المؤتمر اليهوديّ العالميّ» وابنُ أحد المسؤولين في «مؤتمر المطالب اليهوديّة») والحاخام إسرائيل سينغِرْ Singer (وهو سكرتير عام «المؤتمر اليهوديّ العالميّ» وملكٌ من ملوك العقارات)[2]. لاحقًا، وبتواضع، سيُعْلِم برونفمان (وهو وريثُ ثروة شركةِ سيغرام للخمور، وتُقدَّر ثروتُه الشخصيّة بـ ٣ بلايين دولار) «اللجنةَ المصرفيّةَ التابعةَ لمجلس الشيوخ» أنّه تحدَّث «بالنيابة عن الشعب اليهوديّ» وبالنيابة أيضًا عن «الملايين الستة [ضحايا الهولوكوست كما زُعِمَ]، أولئك الذين لا يستطيعون أن يَجْهروا بآرائهم»[3]. وأعْلَن أصحابُ المصارف السويسريّة أنّهم استطاعوا أن يَعْثروا على ٧٧٥ حسابًا هاجعًا فقط لم يُطالِب بها أحدٌ، وقيمتُها ما مجموعُهُ ٣٢ مليون دولار. واقترحوا هذا المبلغَ قاعدةً للتفاوض مع «المؤتمر العالميّ اليهوديّ»، لكنَّ هذا المؤتمر رفضه معتبرًا إيّاه غيرَ كافٍ. وفي كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٥ وحّد برونفمان وعضوُ مجلس الشيوخ ألفونس داماتو جهودَهما. ولمّا كانت

---

١ ـ كان هناك ثلاثة عشر فرعًا لستة مصارف سويسريّة تَعْمل في الولايات المتحدة. وقد أقْرضت المصارفُ السويسريّةُ مشروعاتٍ أميركيّةً ٣٨ بليون دولار عام ١٩٩٤، وأدارت لزبائنها مئاتِ بلايين الدولارات من الاستثمارات في أسهم ومصارفَ أميركيّة.

٢ ـ عام ١٩٩٢ فرّخَ المؤتمرُ اليهوديُّ العالميّ منظمةً جديدةً هي «المنظمة اليهوديّة العالميّة لاستعادة الأملاك»، التي ادعت ولايتَها القانونيةَ على أرصدة الناجين من الهولوكوست، أحياء وأمواتًا. وهذه المنظمة، التي يترأسُها برونفمان، هي من حيث الشكل مظلّةٌ للمنظمات اليهوديّة، مصوغة وفقًا لنموذج «مؤتمر المطالب اليهوديّة».

٣ ـ جلسة لسماع الشهادات أمام لجنة الأمور المصرفيّة والإسكانيّة والمدينيّة، في مجلس الشيوخ في الولايات المتحدة، في ٢٣ نيسان/أبريل ١٩٩٦. والحقّ أنّ دفاع برونفمان عن «المصالح اليهوديّة» انتقائيّ جدًا. فهو شريك أساسيّ في أعمال القُطْب الإعلاميّ الألمانيّ اليمينيّ «ليو كيرش» Kirch الذي عُرف في السنوات الأخيرة بمحاولته طردَ رئيس تحرير جريدة ألمانيّة كان قد دَعَمَ قرارًا من المحكمة العليا بمنع الصلْبان المسيحيّة في المدارس العامّة. (راجع الموقعَ الإلكترونيّ التالي www.Seagram.com/company _ info/history/main.html؛ أوليفر غيرز Gehrs في تاغِسْشِپيغِلْ [١٢ أيلول/سبتمبر ١٩٩٥]).

استطلاعاتُ مؤيِّدي داماتو في الحضيض، وانتخاباتُ مجلس الشيوخ على الأبواب، فقد تلذَّذ داماتو في أن يَجْعل من هذه المناسبة فرصةً لرفع مقامِه في أوساط الجالية اليهوديَّة ذاتِ الأصوات الحاسمة والمتبرِّعين السياسيِّين الأغنياء. وقبل أن يَتمّ تركيعُ السويسريِّين في نهاية المطاف، كان «المؤتمر اليهوديّ العالميّ» - بالتعاون مع مروحةٍ واسعة من مؤسساتِ إحياءِ ذكرى الهولوكوست (بما فيها «متحفُ الهولوكوست التذكاريّ في الولايات المتحدة» و«مركزُ سايمون ڤيزنثال») - قد عَبَّأ المؤسسةَ السياسيَّةَ الأميركيَّةَ بأكملها. فمن الرئيس كلينتون الذي عَقدَ صلحًا مع داماتو ليَدْعم القضيَّة (بملحظِ أنّ جلسات سماع الشهادات في قضية «وايتواتر»* كانت ماتزال جاريةً)، مُرورًا بإحدى عشرة وكالة تابعة للحكومة الاتّحاديَّة فضلاً عن مجلس النواب الأميركيّ ومجلسِ الشيوخ، وانتهاءً بإدارات الولايات والبلديات على امتداد الولايات المتحدة، جيء بضغوطاتٍ من الحزبين الديموقراطيّ والجمهوريّ، واصطفّ المسؤولون الرسميُّون واحدًا في إثر واحد يَشْجبون السويسريِّين المخادعين.

وقادت صناعةُ الهولوكوست حملةَ تشويهٍ صَفِيقةً، باستخدام اللجنتيْن المصرفيتيْن في مجلس النَواب الأميركيّ ومجلسِ الشيوخ منصّةَ وثب. وقد أثبتتْ حملةُ الافتراءات تلك أنَّه لا يمكن وقفُها بوجود صحافةٍ لا حدود لإذعانِها وسذاجتها، صحافةٍ مستعدَّةٍ على الدوام لأن تكرِّس عناوينَها الضخمةَ لأيّ قصةٍ ذاتِ علاقة بالهولوكوست أيًا كانت هذه القصةُ منافيةً للعقل. وها إنّ غريغ ريكمان، المساعدَ التشريعيُّ الأوَّل لداماتو، يتبجَّح في تقريره للأحداث بأنّ أصحاب المصارف السويسريِّين أُجبروا على دخول «محكمة الرأي العام حيث كنا نحن مَنْ يتحكَّم ببرنامج العمل. لقد كان أصحابُ المصارف في ملعبنا، وكان يُريحنا أن نكون نحن القاضيَ وهيئةَ المحلَّفين والجلاّدَ في الوقت نفسه». وأمَّا توم باوِر، وهو باحثٌ أساسيٌّ في موضوع الحملة المعادية للسويسريِّين، فسمَّى دعوةَ داماتو إلى جلسات الاستماع «تعبيرًا مخفَّفًا ملطَّفًا عن محاكمةٍ علنيَّة أو محكمةٍ كَنْغَريَّة [ظالمة]»[1].

كان «الناطقُ بلسان» القوَّة الماحقة المعادية للسويسريِّين هو المدير التنفيذيُّ لِـ«المؤتمر اليهوديّ العالميّ»، إلان ستاينبرغ. وكانت وظيفتُه الرئيسيَّة هي نشرَ المعلومات

---

* - واحدة من فضائح الرئيس كلينتون المالية المبكِّرة. (م)

١ - ريكمان: المصارف السويسريَّة، ص ٥٠ - ٥١. باوِرْ: النهب النازيّ، ص ٢٩٩ - ٣٠٠.

الخاطئة. لقد كان «الإرهابُ بالإرباك»، بحسب باورْ، «هو سلاحَ ستاينبرغ، حين راح يَلفظ سلسلةً من الاتّهامات المصمَّمة لإحداث الانزعاج والصدمة. وإذ بتقارير ' مكتب الخدمات الاستراتيجية ' * - التي تستند في الغالب إلى الإشاعات والمصادر غير الموثّقة، وصَرَف النظرَ عنها المؤرِّخون منذ سنواتٍ طويلةً لكونها مجرَّدَ تقوُّلات - تَكْتسب فجأةً صدقيةً بعيدةً عن الروح النقديّة وإشهارًا واسعَ الانتشار». وقد شرح الحاخام سينغر مغزى ذلك فقال: «إنّ آخر شيء تريده المصارفُ هو الإشهارُ المعادي لها. وسوف نقوم بهذا الإشهار إلى أن تقول المصارفُ: ' كفى، نريد تسوية '». وعلى نحوٍ مَشْهديٍّ مثير، زَعَمَ الحاخام مارفِنْ هِير Hier، عميدُ مركز سايمون فِيزنتال، وقد تحرَّق شوقًا إلى أن يتقاسم أضواءَ الشهرة [مع سينغرْ واضرابه]، أنّ السويسريِّين كانوا يَسْجنون لاجئين يهودًا في «معسكرات مخصَّصة للسُّخرة». (يدير «هير» مركزَ سايمون فيزنتال كمؤسسة عائليّة، وزوجتُه وابنُه هما على جدول الرواتب، وقد تقاضى الثلاثةُ عامَ ١٩٩٥ معاشًا بلغ ٥٢٠ ألف دولار. ويُعرَفُ المركزُ بعروضٍ متحفيّةٍ تصوِّر معسكرات الاعتقال، كمعسكر «داخو»، على طريقة ديزني لاند؛ ويُعرف أيضًا بـ «استخدامه الناجح للتكتيكات الإثاريّة المُهَوِّلة من أجل جمع الأموال»). ويَخْلص ايتمار لڤِين إلى أنّه «من السهل أن نَفْهم، في ضوء الوابل الإعلاميّ مِنْ خلطِ الحقيقةِ بالادعاء والواقعةِ بالخيال، لِمَ يَعْتقد عددٌ كبيرٌ من السويسريِّين أنّ بلادهم كانت ضحيّةً لمؤامرةٍ دوليّةٍ من نوعٍ ما»[1].

---

* - مكتبٌ سَبَقَ «وكالةَ الاستخبارات الأميركيّة» (CIA) في المهمات المخابراتيّة. (م)

١ - باورْ: **الذهب النازيّ**، ص ٢٩٥ (من أجل «ناطق بلسان...»)، ص ٣٠٦ - ٣٠٧؛ وانظرْ ص ٣١٩. الِن موريس شوم Schom: «الضيوف غيرُ المرغوب فيهم، معسكراتُ العمل الإجباريّ السويسريّة، ١٩٤٠ - ١٩٤٤»، تقريرٌ مُعَدٌّ لمركز سايمون فيزنتال، كانون الثاني/يناير ١٩٩٨. (يقرِّر شوم أنّ تلك كانت «في الحقيقة معسكراتِ سُخرة»). لڤين: **الوديعة الاخيرة**، ص ١٥٨، ١٨٨. ولمعالجةٍ رصينةٍ لمعسكرات اللاجئين في سويسرا انظرْ: كَنْ نومان Newman (محرِّرًا): **معسكرات العمل السويسريّة زمنَ الحرب: مجموعة شهادات عيانيّة ١٩٤٠ - ١٩٤٥** (زوريخ، ١٩٩٩)؛ وانظرْ: بعثة الخبراء العالميّة إلى سويسرا في الحرب العالميّة الثانيّة: **سويسرا واللاجئون في الحقبة النازيّة** (بَرْن، ١٩٩٩)، الفصل ٤. سايدِل: **ليس التذكُّر بالامر المتاخِّر ابدًا**، ص ٢٢٢ - ٢٢٣ (لعبارتَيْ «داخو...» و«إثاريّة...»). يوسي كلاين هالايڤي Halevi: «من يَمْلك الذاكرة؟»، في **جيروزالم ريپورت** (٢٥ شباط/فبراير ١٩٩٣). ويؤجِّر ڤيزنتال اسمَه للمَرْكز [المعروفِ باسمه] مقابل ٩٠ الف دولار سنويًا.

وسرعان ما انحطّت الحملةُ إلى تشهير بالشعب السويسريّ بأكمله. فإذا بباورْ، نموذجيًا، يقرِّر، في دراسةٍ دَعَمَها مكتبُ داماتو ومركزُ سايمون ڤِيزنثال، «أنَّ «بلدًا... يتبجَّحُ مواطنوه أمام جيرانهم بغناهم الذي يُحْسَدون عليه كان يستفيد كما هو معروفٌ جيدًا مِنْ قَتْلِ الآخرين»؛ وأنَّ «مواطني اكثر دول العالم مسالمةً، والذين يَبْدون جديرين بالاحترام...، ارتكبوا سرقةً لا سابق لها»؛ وأنَّ «انعدام الأمانة كان عادةً حضاريّة أتقنها الفردُ السويسريُّ لحماية صورةِ بلاده وازدهارها»؛ وأنَّ السويسريِّين كانوا «منجذبين بالغريزة إلى الأرباح السمينة» (السويسريُّون وحدهم؟)؛ وأنَّ «المصلحة الذاتيّة كانت الهاديَ الأولَ لكلّ مصارف سويسرا» (مصارف سويسرا وحدها؟)؛ وأنَّ «سلالة أصحاب المصارف الصغيرةَ في سويسرا كانوا قد أصبحوا أكثر جشعًا وأكثرَ لاأخلاقيةً من معظم [أصحاب المصارف الآخرين]»؛ وأنَّ «الإخفاء والخداع فنّانِ مارسهما الديبلوماسيُّون السويسريُّون» (الديبلوماسيُّون السويسريُّون وحدهم؟)؛ وأنَّ «الاعتذارات والاستقالات لم تكن أمرًا شائعًا في تقليد سويسرا السياسيّ» (خلافًا لتقليدنا [الاميركيّ] نحن؟)؛ وأنَ «الجشع السويسريَ كان فريدًا من نوعه»؛ وأنَّ «الشخصيّة السويسريّة» جَمَعَت «السذاجةَ إلى النفاق»، و«خَلْفَ مظهر اللطف كانت ثمّة طبقةٌ من العناد، وخلف هذه لاإدراكٌ حاسمٌ أنانيٌّ لرأي الآخرين أيًا كانوا»؛ وأنَّ السويسريِّين «لم يكونوا فقط شعبًا يتميَّز بانعدام الجاذبيّة، أو شعبًا لم يُنتج فنانين، ولا أبطالاً منذ ويليام تلّ، ولا رجالَ دولة، بل كانوا أيضًا عملاءَ نازيِّين عديمي الأمانة سَبَقَ أن استفادوا من حروب الإبادة»، وهلمجرًا. ويُشير ريكمان هو الآخر إلى هذه «الحقيقة الأعمق» عن السويسريِّين: «ثمّة في العمق، وربّما أعمق ممّا ظنَوا، كان يَقْبع تعجرفٌ كامنٌ، وموجَّهٌ ضد الآخرين، محفورٌ في جِبِلَّتهم ذاتها. ومَنْ شَبَّ على شيءٍ شاب عليه»[1]. واللافت أنَّ عددًا كبيرًا من هذه الافتراءات يُشْبه الافتراءات التي رُمِي بها اليهودُ من قِبَل المعادين للسامية.

كان الاتهامُ الأبرز هو وجودَ ما سمّاه باورْ في عنوانٍ فرعيّ «مؤامرةً سويسريّةً ـ نازيّةً عمرُها خمسون عامًا من أجل سرقة بلايين الدولارات من يهود

---

١ ـ باور: الذهب النازيّ، ص xi، xv، ٨، ٩، ٤٢، ٥٦، ٨٤، ١٠٠، ١٥٠، ٢١، ٣٠٤. ريكمان: المصارف السويسريّة، ص ٢١٩.

أوروبا والناجين من الهولوكوست». وقد شكّل هذا، في ما بات تعويذةً [مانترا] تَستخدمها ماكينةُ صناعةِ الهولوكوست لابتزاز التعويضات، «السرقةَ العظمى في تاريخ البشريّة». فبحسب صناعة الهولوكوست كلُّ الشؤون اليهوديّة تنتمي إلى خانةٍ مستقلّةٍ تدلّ على صيغة التفضيل: الـ «أسوأ»، الـ «عُظْمى»...

لقد زَعمتْ صناعةُ الهولوكوست أولَ الأمر أنّ المصارف السويسريّة حَرَمَتْ بشكلٍ منهجيّ وَرَثةَ ضحايا الهولوكوست الشرعيِّين من الحسابات الهاجعة التي تُقدَّر بما بين ٧ بلايين إلى ٢٠ بليون دولار. وأَوْردتْ مجلة تايم في قصّةٍ حملتْ صورةَ الغلاف أنّ المصارف السويسريّة «خلال الأعوام الخمسين السابقة دابتْ على سياسة التعويق والتأخير حين يَسْأل الناجون من الهولوكوست عن حسابات أقربائهم الموتى». وإذ استدعى داماتو إلى الذاكرة قانونَ «سريّة المصارف» الذي سنَّته المصارفُ السويسريّة عام ١٩٣٤ لأسبابٍ مِنْ بينها منعُ ابتزازٍ نازيّ للمُودِعين اليهود، فقد حاضَرَ أمام «اللجنة المصرفيّة في مجلس النوّاب الأميركيّ» قائلاً: «أليس من السخرية أن يُستخدم النظامُ الذي شَجّع الناسَ على المجيء إلى سويسرا وفَتْح حساباتٍ في مصارفها، أن يُستخدم نظامُ سريّة المصارف هذا لاحقًا، من أجل حرمان الناس أنفسِهم وحرمانِ ورثتهم ميراثَهُم وحقَّهم؟ لقد كان نظامًا فاسدًا، مشوَّهًا، ملتويًا».

ويروي باورْ، بحماسٍ يكاد يَقْطع أنفاسَه، اكتشافَ دليلٍ رئيسيّ واحد على الخداع السويسريّ بحق ضحايا الهولوكوست:

> «لقد زَوَّد الحظُّ والمثابرةُ معلوماتٍ نفيسةً تُثْبت صحةَ شكوى برونفمان. فقد ذكر تقريرٌ استخباراتيّ من سويسرا في تموز/يوليو ١٩٤٥ أنّ جاك سلمانوفيتش Salmanovitz، وهو صاحب ' الجمعيّة العامة للمراقبة '، التي هي شركةُ رقابةٍ وائتمان في جنيف وذاتُ صلاتٍ بدول البلقان، كان يَمْلك قائمةً بأسماء ١٨٢ زبونًا يهوديًا كانوا قد عَهدوا بـ ٨،٤ مليون فرنك سويسريّ وحوالى ٩٠ الف دولار أميركيّ إلى الموثّق العامّ بانتظار رجوعهم من البلقان. وأضاف التقرير أنّ اليهود لم يكونوا حتى ذلك الوقت قد طالبوا بممتلكاتهم، فكان ريكمان وداماتو منتشيَيْن بالفرح».

وبالمِثْل يلوِّح ريكمان في شهادته بهذا «الدليل على الإجرام السويسريّ». غير أنّ أيًا منهما [باورْ أو ريكمان] لم يَذْكر في هذا السياق الخاصّ أنّ سلمانوفيتش كان يهوديًا. (وأمّا صحّة هذه الادّعاءات فسوف تتم مناقشتُها أدناه)[1].

في أواخر عام ١٩٩٦ قدّم موكبٌ مؤلَّف من نساء يهوديّات كَهْلات ورجلٍ كهل واحدٍ شهادةً مؤثِّرة أمام اللجنتَيْن المصرفيتَيْن التابعتَيْن للكونغرس الأميركيّ، بشأن ارتكابات أصحاب المصارف السويسريِّين. بيد أنّ أحدًا من هؤلاء الشهود تقريبًا «لم يكن لديه دليل حقيقيّ على وجود أرصدة [لضحايا الهولوكوست] في البنوك السويسريّة»، بحسب ايتامار لڤين، وهو أحدُ محرِّري الجريدة الإسرائيليّة الأولى المعنيّة بالأعمال. ومن أجل تعزيز الإثارة المسرحيّة لتلك الشهادة المذكورة، قام داماتو بدعوة إيلي ڤيزل إلى الإدلاء بشهادته. وفي هذه الشهادة، التي راح كثيرون يَسْتشهدون بها لاحقًا، عبّر ڤيزل عن الصدمة ـ الصدمة! ـ لاكتشافِ أنّ مرتكبي الهولوكوست سعوا إلى سلب اليهود قبل قتلهم: «في البدء ظننّا أنّ الحلّ النهائيّ [الهولوكوست] مدفوعٌ بإيديولوجيا مسمَّمَةٍ فقط. ولكنّنا الآن نعلم أنّهم لم يريدوا قتلَ اليهود فحسب ـ أيًا تكن فظاعةُ هذا الأمر ـ بل كانوا يريدون الأموالَ اليهوديّة [أيضًا]. إنّنا نتعلّم كلَّ يوم أكثرَ فأكثرَ عن تلك المأساة. أليس هناك حدٌّ للألم؟ حدٌّ للإساءة؟». بيد أنّ سلب النازيِّين لليهود ليس بالأمر الجديد، طبعًا؛ وها إنّ قسمًا كبيرًا من كتاب راوول هيلبرغ: **تدمير اليهود الأوروبيِّين**، الذي نُشر عام ١٩٦١ ويستحثّ أعمالاً أخرى في الموضوع، قد كُرِّس لمصادرة النازيِّين لأملاك اليهود[2].

---

١ ـ توماس سانكتون Sancton: «تاريخ أليم»، في تايم (٢٤ شباط/فبراير ١٩٩٧). جلسة لسماع الشهادات أمام «لجنة الخدمات المصرفيّة والماليّة» في مجلس النواب الأميركيّ، ٢٥ حزيران/يونيو ١٩٩٧. باورْ: **الذهب النازيّ**، ص ٣٠١ ـ ٣٠٢. ريكمان: **المصارف السويسريّة**، ص ٤٨. ولا يذكر لڤين هو الآخر أنّ سلمانوفيتش يهوديّ (انظرْ ص ٥، ١٢٩، ١٣٥).

٢ ـ لڤين: **الوديعة الأخيرة**. جلسة لسماع الشهادات أمام لجنة الخدمات المصرفيّة والماليّة في مجلس النواب الأميركيّ، في ١١ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٦ (مقتبسًا شهادةَ ڤيزل في ١٦ تشرين الأول/أكتوبر أمام اللجنة المصرفيّة في مجلس الشيوخ). راوول هيلبرغ: **تدمير اليهود الأوروبيِّين** (نيويورك، ١٩٦١)، الفصل الخامس.

وزُعم أيضًا أنَّ أصحاب المصارف السويسريَّة سَرقوا ودائعَ ضحايا الهولوكوست ثمّ دَمَّروا بشكلٍ منهجيٍّ سجلّاتٍ حاسمةَ الأهميَّة من أجل محو آثار فِعْلهم، وأنَّ اليهود هم وحدهم الذين عانَوا هذه الأفعالَ البغيضة. وقد صرّحتْ عضوةُ مجلس الشيوخ الأميركيّ باربارا بوكْسِرْ في هجومها على السويسريِّين في إحدى جلسات الاستماع: «أنّ هذه 'اللَّجنة' لن تتحمَّل تصرُّفَ المصارف السويسريَّة المنافِقَ. لا تقولوا للعالم إنّكم تبحثون [عن الوثائق] حين تكونون في الواقع تمزِّقونـ [ـها]»[1].

ولكنْ، واحسرتاه، ما لبثت «القيمةُ الدعاويَّةُ» (بحسب تعبير باورْ) للمطالِبين اليهودِ الكهول، الذين قدّموا شهادتَهم عن الخداع السويسريّ، أن استَنْفدتْ نفسَها. ولهذا سعت صناعةُ الهولوكوست إلى اكتشاف فضيحة جديدة. فركَّز السعارُ الإعلاميُّ على شراء السويسريِّين الذهبَ الذي كان النازيُّون قد نهبوه من المصارف المركزيَّة في أوروبا أثناء الحرب العالميَّة الثانية. ولكنَّ هذا الأمر لم يكن جديدًا في الواقع، وإنْ أُعلن أنَّه اكتشافٌ مذهِل. فآرثر سميث، وهو مؤلِّف دراسةٍ نموذجيَّة عن الموضوع، أَخْبر لجنةَ سماع الشهادات في مجلس النواب الأميركيّ ما يلي: «لقد استمعتُ طوال هذا الصباح وبعد ظهر اليوم إلى أمور كانت، إلى حدّ كبير وفي المخطَّط العام، معروفةً منذ سنواتٍ عدّة؛ وأنا مندهشٌ لأنّ كثيرًا ممّا عُرِض يُزعَم أنّه جديد وإثاريّ». بيد أنّ جلسات الاستماع لم تهدفْ في الحقيقة إلى تقديم معلوماتٍ بل هدفتْ، بكلمات الصحفيَّة إيزابيل فِنْسَنت، إلى «خلق قصصٍ إثاريَّة». وقد افتُرِض، وهو افتراضٌ معقول، أنّ رميَ كميَّةٍ كافيةٍ من الوحل [بهدف التشهير] سَيَدْفع سويسرا إلى الاستسلام[2].

---

١ ـ جلسة لسماع الشهادات أمام لجنة الشؤون المصرفيّة والإسكانيّة والمدينيّة في مجلس الشيوخ الأميركيّ، ٦ أيار/مايو ١٩٩٧.

٢ ـ جلسة لسماع الشهادات أمام لجنة الخدمات المصرفيّة والماليّة، في مجلس النواب الأميركيّ، ١١ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٦. وقد شكا سميث للصحافة أنّ الوثائق التي أماط اللثامَ عنها منذ زمن بعيد راحَ داماتو يصفها الآن بأنّها اكتشافاتٌ جديدة. وفي دفاع غريب عجيبٍ، وأمام جلسات الاستماع في الكونغرس، أجاب ريكمان، الذي حرّك فرقةً هائلة من الباحثين عبر «متحف الهولوكوست في الولايات المتحدة»: «مع أنّني سمعتُ بكتاب سميث فقد حرصتُ على ألاّ اقرأه كي لا أُتّهم باستخدام وثائقـ 'ه'» (ص ١١٣). فنسنت: شركاء هتلر الصامتون، ص ٢٤٠.

كان الادّعاء الجديد الوحيد فعلاً هو أنّ السويسريّين تاجروا بـ «ذَهَبِ الضحايا» عن سابقِ معرفةٍ، أيْ أنّهم اشتروا كميّاتٍ ضخمةً من الذهب كان النازيُّون قد صَهَروها في سبائك بعد أن جرَّدوا ضحايا معسكرات الاعتقال والموت من ملابسهم. هنا يُورد باوِر أنّ المؤتمر اليهوديّ العالميّ «كان يحتاج إلى مسألةٍ تثير العواطفَ من أجل ربط الهولوكوست النازيّة بسويسرا». ولهذا اعتُبِر الكَشْفُ الجديدُ للخداع السويسريّ مَنّاً وسلوى. ويُكمل باوِرْ قائلاً: «نادرًا ما تكون هناك صُوَرٌ تُحْرِق عيونَ الناظرين أكثر من صور الانتزاع المنهجيّ للحَشوات الذهبيّة من أسنان الجثث اليهوديّة داخل معسكرات الإبادة بعد جرِّها من غرف الغاز». وترنّم داماتو بنغمات حِدَاديّة في جلسة من جلسات الاستماع إلى الشهادات في مجلس النواب الأميركيّ قائلاً: «إنّ الحقائق موجعةٌ جدًا، جدًا، لأنّها تتحدّث عن أخذِ وسرقةِ الموجودات من البيوت، ومن المصارف الوطنيّة، ومن معسكرات الموت، ومن الساعاتِ المذهّبة والأساورِ المذهّبة وإطاراتِ النظّارات المذهّبة والحشواتِ المذهّبة داخل أسنان الناس»[1].

واتُّهم السويسريُّون ـ بالإضافة إلى منعهم اليهودَ من الحصول على حسابات ضحايا الهولوكوست، وشراءِ الذهبِ المسروق ـ بالتآمر مع بولندا وهنغاريا لسلب اليهود احتيالاً. وكانت التُّهمة هي أنّ الأموال الموجودة في حسابات سويسريّة لم يُطالَبْ بها، وتخصّ مواطنين بولنديِّين وهنغاريِّين (كثيرٌ منهم، لا كلُّهم، يهودٌ)، قد استخدمتْها سويسرا تعويضًا عن أملاك سويسريّة أمّمتها حكومتا ذيْنك البلدين. ويسمّي ريكمان هذا الأمرَ بِ «الاكتشاف المذهلِ الذي سيُفقد السويسريِّين توازنَهم ويَخْلق عاصفةً من النار». ولكنّ هذه الحقائق كانت معروفةً من قبل، وسبق أن أوردتْها المجلاتُ الأميركيّةُ القانونيّةُ في أوائل الخمسينيّات. ومع ذلك، وبرغم الدعاية الإعلاميّة الصاخبة، لم يَبْلغ مجموعُ الأموال في النهاية إلاّ أقلّ من مليون دولار بحسب القيمة الراهنة[2].

---

١ ـ باورْ: **الذهب النازيّ**، ص ٣٠٧. جلسات الاستماع أمام لجنة الخدمات المصرفيّة والماليّة، في مجلس النواب الأميركيّ، ٢٥ حزيران/يونيو ١٩٩٧.

٢ ـ ريكمان: **المصارف السويسريّة**، ص ٧٧. ولمعالجةٍ حاسمة لهذا الموضوع انظرْ كتاب بيتر هاغ Hug ومارك پرنود Perrenoud: **أموال ضحايا النازيّة في سويسرا واتفاقيّات التعويض المبرمة مع دول الكتلة الشرقيّة** (برْن، ١٩٩٧). ولنقاش مبكّر لهذه المسألة في الولايات المتحدة، انظرْ سيمور ج. روبن Rubin وآبا پ. شوارتز: «اللاجئون والتعويضات» في مجلة **لو اندْ كونتمْپرَري پروبلمزْ** [القانون والمشاكل المعاصرة] (الصادرة عن كليّة الحقوق في جامعةِ دْيُوكْ، ١٩٥١)، ص ٢٨٣.

كانت المصارفُ السويسريّة قد وافقتْ، حتى قبل جلسة السماع الأولى في مجلس الشيوخ في نيسان/أبريل ١٩٩٦ بصدد الحسابات الهاجعة، على أن تشكّل لجنةَ تحقيقٍ وأن تلتزم بما تتوصّل إليه. وفي «مذكرة تفاهمٍ» أُبرمتْ في أيار/مايو ١٩٩٦ كُلِّفتْ رسميًا [بهذا الأمر] «لجنةٌ مستقلّة من أشخاص بارزين» مؤلّفةٌ من ستة أعضاء، ثلاثةٌ منهم أعضاء في «المنظمة اليهوديّة العالميّة لاستعادة الأملاك»، والثلاثةُ الآخرون من «جمعية أصحاب المصارف السويسريّين»، ويرأسها پول ڤولكر Volcker وهو الرئيسُ الأسبقُ لمصرف «الاحتياط الاتّحاديّ في الولايات المتحدة». وعلاوةً على ذلك عيَّنتِ الحكومةُ السويسريّةُ في كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٦ «لجنةً مستقلّةً من الخبراء» برئاسة الپروفسور جان فرانسوا برجييه Bergier، وكان فيها أيضًا الباحثُ الإسرائيليُّ البارزُ المتخصِّصُ بالهولوكوست سول فريدلاندرْ، من أجل التحقُّق من تجارة سويسرا بالذهب مع ألمانيا أثناء الحرب العالميّة الثانية.

ولكنْ قبل أن تستطيع هاتان اللجنتان وإنْ مجرَّدَ المباشرةِ بالعمل، الحَّتْ صناعةُ الهولوكوست على تسوية مالية مع سويسرا. غير أنَّ السويسريِّين احتجُّوا بأنَّ أيَّ تسوية يجب أن تنتظر نتائجَ تحقيق اللجنتَيْن، وإلاَّ جاءت هذه التسويةُ «ابتزازًا وانتزاعًا». وهنا لعب «المؤتمرُ اليهوديّ العالميّ» ورقتَه الرابحة دائمًا، فتصنَّع كَرْبًا من المأزق الذي يعيشه «الناجون من الهولوكوست المحرومون». وأَخْبر برونفمان اللجنةَ المصرفيَّةَ في مجلس النواب في كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٦ أنَّ «مشكلتي هي التوقيت، وعندي كلُّ هؤلاء الناجين من الهولوكوست الذين يُقْلقني أمرُهم». ولكنَّ المرء لَيَتَساءل لِمَ لَمْ يستطع هذا البليونيرُ المكروبُ نفسُه أن يخلِّصهم موقتًا من مأزقهم؟!. وبعد أن رَفَضَ برونفمان عرضًا سويسريًا بالتسوية لقاء ٢٥٠ مليون دولار، تَنَشَّق بازدراءٍ قائلاً: «لا تمنُّونا. سأعطي المالَ بنفسي». ولكنّه لم يفعل!. غير أنّ سويسرا وافقتْ في شباط/فبراير ١٩٩٧ على تشكيل «الصندوق الخاص لضحايا الهولوكوست المحرومين»، وقيمتُه ٢٠٠ مليون دولار، من أجل مساعدة «الأشخاص الذين يريدون العونَ أو الدعمَ من خلال طرقٍ خاصة» إلى حين انتهاء اللجنتَيْن من عملهما. (كان الصندوقُ أنذاك مايزال يملك الأموال حين أصدرتْ لجنتا برجييه وڤولكر تقريريْهما). بيْد أنّ ضغوطَ صناعةِ الهولوكوست من أجل الوصول إلى تسوية نهائيّة لم تكلّ، بل واصلت التصاعد. ومن جديدٍ لم تَلْقَ

المناشداتُ السويسريَّةُ المتجدِّدةُ، المطالِبةُ بتأجيل الوصول إلى التسوية بانتظار نتائج اللجنتَيْن، آذانًا صاغية، مع أنَّ المؤتمر اليهوديَّ العالميَّ كان هو الذي دعا في الأصل إلى المحاسبة الأخلاقيَّة. والحقّ أنَّ صناعة الهولوكوست ما كانت إلا لتَخْسر من تلك النتائج : فإنْ ثَبَتَ أنَّ بضعةَ مطالب فحسب هي مطالبُ مشروعةٌ خسرتِ الدعوى المرفوعةُ ضدَّ المصارف السويسريَّة مصداقيَّتَها؛ وإنْ أَمْكن تعيينُ المُطالِبين الشرعيِّين - حتى وإنْ كانوا كُثُرًا - أُجْبِرَ السويسريُّون على دفع تعويضات لهؤلاء فقط ، لا للمنظمات اليهوديَّة. ولكنْ هاكم تعويذة أخرى تستخدمها صناعةُ الهولوكوست، وهي أنَّ التعويض «مسألةُ حقٍّ وعدل، لا مسألةُ مال». وإذّاك أَطْلق السويسريُّون تعليقًا ساخرًا: «حقًّا، إنَّ المسألة ليست مسألةَ مالٍ، بل مسألةُ المزيدِ من الأموال!»[1].

وفي خطوةٍ تتجاوز إثارة الهستيريا العامَّة، عمدتْ صناعةُ الهولوكوست إلى تنسيقِ استراتيجيَّةٍ ذاتِ شعبتَيْن لـ «إرهاب» السويسريِّين (والكلمة لباوِرْ) من اجل دفعهم إلى الخضوع: إقامة دعاوى جماعيَّة [ضدَّ مصارف سويسرا]، والقيام بمقاطعة اقتصاديَّة لها. وقد قدّم إدوارد فايغن وروبرت سويفت الدعوى الأولى في أوائل تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٦ بالنيابة عن جيزلاَ ڤايسهاوس (وكان أبوها قد تحدَّث عن أموال أُودعتْ في سويسرا قبل أن يَقْضي في معسكر آوشڤيتز، ولكنَّ المصارف ردَّتْ طلباتِها بعد الحرب العالميّة الثانيَة)، وبالنيابة أيضًا عن «آخرين في وضعٍ مشابه»، وكلُّ هؤلاء يطالبون بمبلغ ٢٠ بليون دولار. وبعد أسابيع قدَّم مركزُ سايمون ڤيزنْتال دعوى جماعيَّةً ثانيـة، مجنِّدًا في خدمته المحاميَيْن مايكل هاوسفَلْد ومِلْڤِن ڤايس. وفي كانون الثاني/يناير ١٩٩٧ قدّم «المجلسُ العالميّ للجاليات اليهوديّة الأرثوذكسيّة» دعوى ثالثةً.

---

١ - لڤين: **الوديعة الأخيرة**، ص ٩٣ - ١٨٦. جلسة سماع الشهادات أمام لجنة الخدمات المصرفيَّة والماليَّة، في مجلس النواب الأميركيّ، ١١ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٦. ريكمان: **المصارف السويسريَّة**، ص ٢١٨. باوِرْ: **الذهب النازيّ**، ص ٣١٨، ٣٢٣. وبعد أسبوع على إنشاء الصندوق الخاصّ المذكور أَعْلن الرئيسُ السويسريّ، بعد «أن روّعته العداوةُ المتواصلة في أميركا» (بكلمات باوِرْ)، إنشاءَ «مؤسسة تضامن» من ٥ بلايين دولار «من أجل التخفيف من الفقر واليأس والعنف» في الكرة الأرضيَّة. غير أنَّ الموافقة على تأسيس هذه المؤسَّسة تحتاج إلى استفتاء شعبيّ وطنيّ، وسرعان ما برزتْ معارضةٌ محليَّةٌ [سويسريّة] لهذا المشروع. ويبقى مصيرُها اليومَ غامضًا.

ولقد قُدِّمت الدعاوى الثلاثُ إلى القاضي إدوارد كورمان، وهو قاضي محكمة مُقاطعيّة أميركيّةٍ في بروكلين [في نيويورك]، فدَمَجَها في دعوى واحدة. غير أنّ طرفًا واحدًا على الأقلّ في هذه القضيّة، وهو المحامي سيرجيو كاراس ومكتبه الأساسيُّ في تورونتو، رثى لهذا التكتيك قائلاً: «إنّ الدعاوى الجماعيّة لم تؤدِّ إلاّ إلى إثارة هستيريا جماعيّة وحملةِ نقدٍ عنيفةٍ ضد السويسريِّين. إنّ هذه الدعاوى لا تعدو أن تُديم أسطورةَ المحامِين اليهود الذين يريدون المالَ فقط». وعارض پول فولكر [رئيس «اللّجنة المستقلّة..»] الدعاوى الجماعيّةَ أيضًا على أساس أنّها «ستعوّق عملنا، وربّما تؤدّي به إلى نقطة انعدام الفعاليّة»؛ ولكنّ هذا ليس شاغلاً ذا بال بالنسبة إلى صناعة الهولوكوست، إنْ لم يكن حافزًا إضافيًا [لها على مواصلة الابتزاز]![1].

بيد أنّ السلاح الأمضى الذي استُخدم لكسر المقاومة السويسريّة قد كان المقاطعةَ الاقتصاديّةَ. «ستكون المعركةُ الآن أوسعَ بكثير»؛ هذا ما حذّر منه في كانون الثاني/يناير ١٩٩٧ افرام بورغ Burg رئيسُ «الوكالة اليهوديّة» ورجلُ إسرائيل الرئيسيُّ في الدعوى ضدّ المصارف السويسريّة. ثم تابع: «إلى الآن مازلنا نكْبح جماحَ الضغط اليهوديّ العالميّ!». ولكنّ الواقع هو أنّ المؤتمر اليهوديّ العالميّ كان قد بدأ بالتخطيط للمقاطعة الاقتصاديّة منذ كانون الثاني/يناير ١٩٩٦. واتّصل برونفمان وسينغر بمراقبِ حسابات مدينة نيويورك واسمه آلان هيڤيسي Hevesi (وكان أبوه مسؤولاً بارزًا في المؤتمر الأميركيّ اليهوديّ) وبمراقبِ حساباتِ ولايةِ نيويورك كارل ماككال McCall. والمراقبان كلاهما وَظّفا بلايين الدولارات من معاشات التقاعد*. وقد ترأس هيڤيسي أيضًا «جمعيةَ مراقبي الحسابات في الولايات المتحدة»، وهي منظّمة وظّفتْ ٣٠ تريليون دولار من معاشات التقاعد. وفي أواخر كانون الثاني/يناير جلس سينغر مع حاكم نيويورك جورج پاتاكي، ومع داماتو وبرونفمان أيضًا، يخطّطون معًا في حفل زفاف ابنته: «انظروا أيُّ رجلٍ هو أنا»، قال الحاخام سينغرْ متأمِّلاً، «إني أقوم بالصفقات في حفل زفاف ابنتي!»[2].

---

١ ـ باوِرْ: الذهب النازيّ، ص ٣١٥. ڤِنسنت: شركاء هتلر الصامتون، ص ٢١١. ريكمان: المصارف اليهوديّة، ص ١٨٤ (الكلام لڤولْكِرْ).

* ـ أموال تخصّصها نقاباتُ العمّال لتقاعُدِ عمّالها، وتستثمرها قبل حصول ذلك التقاعد. (م)

٢ ـ الوديعة الأخيرة، ص ١٨٧ ـ ١٨٨، ١٢٥.

في شباط/فبراير ١٩٩٦ كتب هيڤيسي وماككال إلى المصارف السويسريّة تهديدات بفرض عقوبات عليها. وفي تشرين الأول/أكتوبر دَعَمَهما علنًا حاكمُ نيويورك پاتاكي. وخلال الشهور التالية قامت حكوماتُ ولايات نيويورك ونيوجرزي وورود آيلاند وإيلينويْ وبلدياتُها بمناقشةِ قرارات على جدول أعمالها تهدِّد بفرض المقاطعة الاقتصاديّة ما لم تعترف المصارفُ السويسريّةُ بالقصة كاملةً. وفي أيار/مايو ١٩٩٧ فَرضتْ مدينةُ لوس أنجلس العقوباتِ الأولى، بأنْ سحبتْ من أحد المصارف السويسريّة مئاتِ ملايين الدولارات التي كانت قد خُصصتْ لتعويضات موظَّفي المدينة. وسُرعان ما حذا هيڤيسي حذوَها فيما يختصّ بمدينة نيويورك. وخلال أيام انضمّت إلى مدينتيْ لوس أنجلس ونيويورك كلٌّ من ولايات كاليفورنيا وماساتشوستس وإيلينويْ.

«أريد ٣ بلايين دولار، أو ما فوق ذلك، كي أنهيَ كلَّ شيء: الدعاوى الجماعيّة، ودعوى ڤولكر، والأمورَ الباقية»؛ هذا ما صرَّح به برونفمان في كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٧!. وفي هذه الأثناء كان داماتو ومسؤولون مصرفيُّون في ولاية نيويورك يَسْعون إلى منع «بنك سويسرا المتَّحِد» الذي شُيِّد حديثًا (وهو حصيلةُ اندماج مصارف سويسريّةٍ رئيسيّة) من العمل في الولايات المتحدة. وحذَّر برونفمان في آذار/مارس ١٩٩٨ من أنّه «لو أصرّ السويسريُّون على موقفهم فسأُضطرّ إلى أن أَطْلب من جميع حملةِ الأسهم الماليّة الاميركيِّين أن يُوقفوا تعاملَهم مع السويسريِّين. لقد بلغت المسألةُ حدًا يستوجب إمّا الحلَّ، وإمّا الحربَ الشاملة». وفي نيسان/أبريل بدأ السويسريُّون بالانثناء تحت الضغط، ولكنّهم بقوا رافضين للاستسلام المذلّ. (ووردتْ تقاريرُ تفيد أنّ السويسريِّين أنْفقوا خلال عام ١٩٩٧ مبلغَ ٥٠٠ مليون دولار لاتقاء هجمات صناعة الهولوكوست). وتفجَّع ملڤِن ڤايس، وهو واحدٌ من محامي الدعاوى الجماعيّة، على أنّ «هناك سرطانًا خبيثًا على امتداد المجتمع السويسريّ. لقد أعطينا السويسريِّين فرصةً للتخلُّص منه، وبجرعةٍ هائلة من الإشعاع، وبكلفةٍ زهيدةٍ جدًا، ولكنّهم رفضوا هذه الفرصة». وفي حزيران/يونيو قَدّمتِ المصارفُ السويسريّةُ «عرضًا نهائيًا» مقدارُه ٦٠٠ مليون دولار. فإذا بأبراهام فوكسمان، رئيسِ «الرابطة المعادية للتشهير»، وقد صَدَمتْه العجرفةُ السويسريّة، يكاد لا يسيطر على غيظه: «إنّ هذا الإنذار لَهُوَ إهانةٌ لذكرى الضحايا، وللناجين، وللأفراد

الجالية اليهوديّة الذين - بنيّةٍ صافية - اتّصلوا بالسويسريّين ليعملوا معًا على إيجاد حلٍّ لهذا الأمر العويص!»(١).

في تموز/يوليو ١٩٩٨ هدّد هيفيسي وماككال بعقوبات جديدة قاسية. وانضمّتْ خلال أيامٍ ولاياتُ نيوجرزي، وبنسلِفانيا، وكونتيكيت، وفلوريدا، وميشيغان، وكاليفورنيا. وفي منتصف آب/أغسطس استسلم السويسريُّون في خاتمة المطاف، فوافقوا على دفع ١،٢٥ بليون دولار، وذلك في تسوية مع الدعوى الجماعيّة التي تَوَسَّط لها القاضي كورمان. «إنّ هدف الدفعة الإضافيّة من الأموال»، على نحوِ ما جاء في بيانٍ صحفيّ صادرٍ عن المصارف السويسريّة، «هو تجنُّبُ التهديد بفرض العقوبات، وتجنُّبُ مَحاضرِ جلساتٍ طويلةٍ وغالية»(٢).

«لقد كنتَ رائدًا حقيقيًا في هذه المأثرة البطوليّة»؛ بهذه الكلمات هنّأ بنيامين ناتانياهو - رئيسُ الوزراء الإسرائيليّ - ألفونس داماتو. وأكْمل قائلاً: «النتيجة ليست إنجازًا ماديًا فحسب، بل هي أيضًا نصرٌ معنويٌّ وانتصارٌ للروح»(٣). ومن أسفٍ أنّ ناتانياهو لم يَقُل «... وانتصارٌ للإرادة أيضًا»*.

غطّى مبلغُ ١،٢٥ بليون دولار الناجمُ عن التسوية مع سويسرا تعويضاتٍ لثلاث فئات بشكلٍ مبدئيّ: فئةِ المطالبين بالحسابات السويسريّة الهاجعةِ، وفئةِ اللاجئين الذين حُرموا اتخاذَ سويسرا ملاذًا لهم [أثناء المحرقة]، وفئةِ ضحايا نظام السُّخرة الذي أفاد السويسريُّون منه(٤). بيد أنّه أيًا كان السخطُ الأخلاقويُّ على

---

١ - لفين: **الوديعة الأخيرة**، ص ٢١٨. ريكمان: **المصارف السويسريّة**، ص ٢١٤، ٢٢٣، ٢٢١.

٢ - ريكمان: **المصارف السويسريّة**، ص ٢٣١.

٣ - المصدر السابق. وقد عنونَ ريكمان هذا الفصلَ من تقريره عنوانًا مناسبًا هو: «المقاطَعات [أفعال المقاطعة] والإمْلاءات».

* - ثمّة لعبٌ على المفرداتِ هنا. فـ «انتصارُ الإرادة» هو أيضًا عنوانٌ لفيلمٍ مؤيِّدٍ للنازيّة من عمل «لَني ريفِنْستال» Riefenstahl. (م)

٤ - من أجلِ الحصول على النصّ الكامل لِـ «اتفاق التسوية الناجم عن الدعوى الجماعيّة» انظر: اللّجنة المستقلّة للأشخاص البارزين: **تقرير عن الحسابات الهاجعة لضحايا الاضطهاد النازيّ في المصارف السويسريّة** (برن، ١٩٩٩)، الملحق O. وبالإضافة إلى المئتيْ مليون دولار الآتية من «الصندوق الخاصّ» والبليون وربع البليون من الدولارات الآتيةِ من التسوية المذكورة، استطاعت صناعةُ الهولوكوست أن تحتال في سحب ٧٠ مليون دولار أيضًا من الولايات المتحدة ومن حلفائها أثناء مؤتمرٍ عُقِد في لندن عام ١٩٩٧ ومحورُه: «الذهبُ السويسريّ».

«السويسريّين المخادعين»، فإنَّ السجلَ الأميركيَّ القابلَ للمقارنة لَهُوَ بمثل هذا السوء، إنْ لم يكن أسوأ. وسأتحدَّثُ لاحقًا عن قضية الحسابات اليهوديّة [لضحايا الهولوكوست] الهاجعةِ في المصارف الأميركيّة. وأما بالنسبة إلى قضية اللاجئين، فإنّ الولايات المتحدة، شأنها شأن سويسرا، مَنعتِ اللاجئين اليهودَ الهاربين من النازيّةِ، قبل الحرب العالميّة الثانيّة وأثناءها، من دخول أراضيها. ومع ذلك فإنّ الحكومة الأميركيّة مازالت ترى أنّه من غير الملائم أن تعوِّض، مثلاً، اللاجئين اليهودَ الذين كانوا على ظهر السفينة المنحوسة «سانت لويس»*. تصَوَّرْ ردَّ الفعل لو أنَّ الآلاف من اللاجئين من أميركا الوسطى وهاييتي، الذين حُرموا اللجوءَ إلى أميركا بعد أن نجوا من عصابات القتل التي رعتها الولاياتُ المتحدةُ في المكانَيْن، التمسوا التعويضاتِ هنا [من الولايات المتحدة]!. ثم إنّ سويسرا سمحتْ بدخول أعدادٍ من اللاجئين اليهود إلى أراضيها أثناء الهولوكوست النازيّة تساوي الأعدادَ التي سمحت الولاياتُ المتحدة بدخولها (حوالى ٢٠ ألفًا)، على الرغم من أنّ سويسرا قَزمٌ حجمًا ومواردَ مقارنةً بالولايات المتحدة[١].

إنّ السبيل الوحيد للتكفير عن خطايا الماضي، بحسب ما حاضَرَ السياسيُّون الأميركيُّون أمام سويسرا، هو تقديمُ التعويض الماديّ. واعتَبَرَ سيتوارت أيزنستات

* ـ سفينةٌ كانت محمّلةً باللأجئين اليهود الهاربين من بطش ألمانيا النازيّة، اتّجهتْ نحو شواطئ الولايات المتحدّة، فمُنعتْ من الدخول. (م)

١ ـ لمعرفة سياسة الولايات المتحدة تجاه اللاجئين اليهود أثناء هذه السنوات، انظرْ: دايفيد س. وايمان Wyman: جدرانٌ ورقيّة (نيويورك، ١٩٨٥) والتخلّي عن اليهود (نيويورك، ١٩٨٤). ولمعرفة السياسة السويسريّة، انظرْ: اللّجنة المستقلّة من الخبراء، في سويسرا ـ أثناء الحرب العالميّة الثانيّة: سويسرا واللاجئون في الحقبة النازيّة (برْن، ١٩٩٩). ويُعلَّل مزيجٌ مشابهٌ من العوامل ـ أي الانكماش الاقتصاديّ، ورهاب الأجانب، ومعاداة الساميّة، وهاجس الأمن لاحقًا ـ حصتَّي الولايات المتحدة وسويسرا المحدودتَيْن من اللاجئين. وإذا استدعت «اللّجنةُ المستقلّةُ» إلى الأذهان «النفاقَ في خطابات الأمم الأخرى، ولاسيّما الولايات المتحدة التي لم تكن مهتمّةً على الإطلاق بتحرير قوانين الهجرة»، فإنّها تورد في تقريرها، على الرغم من نقدها القاسي لسويسرا، أنّ السياسة التي اتبعتْها هذه الأخيرةُ في ما يخصّ اللاجئين كانت «مثلَ سياسة حكومات أكثر الدول الأخرى» (ص ٤٦، ٢٦٣). لكنّني لم أجد ذِكْرًا لهذه النقطة في التغطية الإعلاميّة الأميركيّة الواسعة لنتائج «اللّجنة» الانتقاديّة.

Eizenstat، وهو وكيلُ وزارة التجارة ومبعوثُ كلينتون الخاصّ إلى لجنة «استعادة الأملاك»، أنّ تعويضات سويسرا لليهود «اختبارٌ مهمّ لاستعداد هذا الجيل لمواجهة الماضي وإصلاحِ أخطائه». وعلى الرغم من أنّ السويسريِّين لا يُمْكن «تحميلُهم مسؤوليةَ ما جرى منذ أعوام»، بحسب إقرار داماتو أثناء جلسة الاستماع ذاتِها أمام مجلس الشيوخ، فإنّ عليهم «واجبَ الخضوع للمحاسبة وواجبَ السعي إلى فعل الصواب في هذه الفترة من الزمن». وبطريقة مماثلة فكّر الرئيس كلينتون، بعد أن صادَقَ علنًا على المطالب التعويضيَّة لِـ «المؤتمر اليهوديّ العالميّ»، في أنّ علينا «أن نواجِه، وسنستطيع في أحسن الأحوال أن نصحِّحَ، مظالمَ الماضي الرهيبةَ». وقال جايمس ليتش Leach، أثناء جلسات الاستماع، أمام اللجنة المصرفيَّة في مجلس النواب: «ليس في التاريخ قانونٌ يَمْنع استعادة الحقوق بعد مضيِّ زمنٍ معيَّن»، و«على الماضي ألا يُنسى أبدًا». وكَتَبَ زعماءُ الحزبَيْن الديموقراطيّ والجمهوريّ في الكونغرس رسالةً إلى وزيرة الخارجيَّة قالوا فيها «ينبغي أن يكون واضحًا أنّ الاستجابة لمسألة التعويض هذه ستُعتبر امتحانًا لاحترام حقوق الإنسان الأساسيَّة ولحُكمِ القانون». وشرحتْ وزيرةُ الخارجيَّة الأميركيَّة مادلين أولبرايت، في خطابها أمام البرلمان السويسريّ، أنّ الفوائد الاقتصاديَّة التي حصّلها السويسريُّون من جرّاء الإمساك بالحسابات اليهوديَّة «انتقلتْ إلى الأجيال السويسريَّة التالية، ولهذا يتطلَّع العالَمُ اليومَ إلى شعب سويسرا لا لكي يتحمَّل مسؤوليَّةَ أعمالٍ أدّاها أسلافُه بل لكي يكون سخيّاً في فعلِ ما يمكن فعلُه لتصحيح أخطاء الماضي في هذه المرحلة من التاريخ»[1]. وإنّ كل هذه المشاعر لهي مشاعرُ نبيلةٌ حقًا، ولكنّنا لا

---

١ - جلسة سماع الشهادات أمام لجنة الشؤون المصرفيّة والإسكانيّة والمدينيّة، في مجلس الشيوخ الأميركيّ، ١٥ أيار/مايو ١٩٩٧ (بالنسبة إلى كلام ايزنستات وداماتو). جلسة سماع الشهادات أمام لجنة الشؤون المصرفيّة والإسكانيّة والمدينيّة، في مجلس الشيوخ الأميركيّ، ٢٣ نيسان/ابريل ١٩٩٦ (بالنسبة إلى كلام برونفمان، مستشهدًا بكلينتون، ورسالة زعماء الكونغرس). جلسة سماع الشهادات أمام لجنة الخدمات المصرفيّة والماليّة، في مجلس النواب، ١١ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٦ (بالنسبة إلى كلام ليتش). جلسة سماع الشهادات أمام لجنة الخدمات المصرفيّة والماليّة، في مجلس النواب، ٢٥ حزيران/يونيو ١٩٩٧ (بالنسبة إلى كلام ليتش). ريكمان: المصارف السويسريّة، ص ٢٠٤ (لكلام أولبرايت).

نسمعها أبدًا ـ إلاَّ على سبيل السخرية العلنيّة ـ حين يتعلّق الأمرُ بتعويض الأفارقة الأميركيّين من العبوديّة التي عانوها![1].

ويبقى غيرَ واضح ما سيكون مصيرُ «الناجين من الهولوكوست المحرومين» في التسوية النهائيّة. فها هي جيزلاً ڤايسهاوس، وهي أوّل مُطالِبٍ بحسابٍ هاجعٍ أقامت دعوى، تُعفي وكيلها إدوارد فايغن بعد أن اتّهمتْه بمرارةٍ باستغلالها. ومع ذلك فإنَّ فاتورة فايغن إلى المحكمة بلغتْ ٤ ملايين دولار!. وَتَبْلغ رسومُ المحامين الإجماليّة ١٥ مليون دولار، وضِمْنَها «عدةُ» فواتير بمعدّل ٦٠٠$ في الساعة الواحدة. ويطلب أحدُ المحامين مبلغ ٢٤٠٠ دولار لقاء قراءة كتاب توم باورْ:

---

١ ـ كانت النقمةُ النافرة الوحيدة، أثناء جلسات الاستماع المتعدِّدة في الكونغرس بصدد التعويضات عن الهولوكوست، هي التي أطلقتْها عضوةُ الكونغرس ماكسين واترز ممثّلةُ كاليفورنيا. ففي حين سجّلتْ دعمها «١٠٠٠٪ من أجل تحقيق العدالة لجميع ضحايا الهولوكوست» تساءلتْ عن كيفيّة «أخذِ هذه الخطّة واستخدامها من أجل التعامل مع قضيّةِ السُّخرة التي عاناها أجدادي هنا في الولايات المتحدة. إنّه لمن الغريب جدًا أن أجْلس هنا... دون أن أتساءل عمّا أستطيع أن أفعله... للإقرار بوجود سُخرةٍ في الولايات المتحدة.... لقد دينتِ المطالبةُ بدفع تعويضات إلى الجالية الأفريقيّة ـ الأميركيّة بوصف تلك المطالبة فكرةً متطرِّفة في الأساس. كما سُخِرَ من كثيرين... حاولوا جاهدين أن يَعْرضوا هذه المسألة أمام الكونغرس». واقترحتْ بشكلٍ محدَّد أن تُوَجَّهَ الوكالاتُ الحكوميّةُ، المعنيّةُ بتحصيل تعويضات لضحايا الهولوكوست، من أجل تحصيل تعويضاتٍ لضحايا «السُّخرة في الولايات المتحدة». وقد أجاب جايمس ليتش من اللّجنة المصرفيّة في مجلس النوّاب بالقول «إنَّ هذه السيدة الرقيقة تَطْرح موضوعًا بالغَ العمق، وسيُخْضِعه كرسيُّ القضاء لتفكير طويل... إنّ عمق المسألة التي تطرحينها في المشهد التاريخيّ الأميركيّ، كما في مشهدِ حقوق الإنسان برمّته، لَهُوَ عميق [!]». غير أنّ هذه المسألة ستُودَعُ دون ريبٍ في أعمق ثقبِ ذاكرةِ «اللّجنة». (راجعْ جلسة سماع الشهادات أمام لجنة الخدمات المصرفيّة والماليّة، في مجلس النواب، ٩ شباط/فبراير ٢٠٠٠). وقد قارَنَ راندِلْ روبنسون، الذي يقود حاليًا حملةً لتعويض الأفارقة الأميركيّين من عبوديّتهم، بين «صمتِ» حكومة الولايات المتحدة على هذه السرقة «وعملِ وكيلِ وزارة الخارجيّة الأميركيّة ستيوارت ايزنستات الذي جهد كي يجعل ١٦ شركة ألمانيّة تعوِّض اليهودَ الذين سُخِّروا للعمل أثناء الحقبة النازيّة». (راندل روبنسون: «عوِّضوا ضحايا هولوكوست السخرة الأميركيّة المنسيّين»، في لوس أنجلس تايمز، ١١ شباط/فبراير ٢٠٠٠؛ وراجعْ: راندل روبنسون: الدَّيْن [نيويورك ٢٠٠٠]، ص ٢٤٥).

الذهب النازيّ !. وكتبتْ مجلة جُوويش وِيك التي تَصْدر في نيويورك أنّ «المجموعات اليهوديّة لا تَرْحم، وأنّ الناجين اليهود لا يَرْحمون، عند التنافس في الحصول على البليون وربع البليون من الدولارات الأميركيّة التي قدّمتْها المصارفُ السويسريّة في التسوية التي أعقبتْ حقبةَ الهولوكوست». ويشدِّد الناجون وجانبُ الادّعاء على أنّ المال بأجمعه يجب أن يَذْهب إليهم مباشرةً، ولكنّ المنظمات اليهوديّة تطالب بأن تكون لها حصةٌ منه. ودانَتْ غريتا بِير Beer، وهي شاهدةٌ رئيسيّة في الكونغرس ضد المصارف السويسريّة، تعظيمَ دور المنظّمات اليهوديّة، وقَدّمتِ التماسًا لدى محكمة القاضي كورمان قائلةً: «أنا لا أريد أن 'أُسحق تحت الأقدام كحشرةٍ صغيرة'». وعلى الرغم من «قلق» المؤتمر اليهوديّ العالميّ على «الناجين من الهولوكوست المحرومين»، فإنّه يريد أن يخصِّص نصفَ الأموال السويسريّة تقريبًا للمنظمات اليهوديّة و«لتعليم الهولوكوست». ويشدِّد مركزُ سايمون فِيزِنتال على أنّه إذا تلقّت منظماتٌ يهوديّةٌ «جديرةٌ» الأموالَ، فإنّ «جزءًا منها يجب أن يَذْهب إلى المراكز التعليميّة اليهوديّة». وزعمتْ المنظمات الإصلاحيّة والاورثوذكسيّة اليهوديّة، في سعيها إلى الحصول على نصيب أكبر من الغنيمة عن «طريق الاحتيال»، أنّ الملايين الستة الذين قَضَوْا في الهولوكوست كانوا سيُؤْثرون أن يكون مذهبُ هذه المنظّمة أو تلك هو المستفيدَ الماليَّ من تلك الغنيمة. وفي هذه الأثناء كانت صناعةُ الهولوكوست قد أَجبرتْ سويسرا على التسوية، لأنّ الوقت ـ كما زُعِمَ ـ أمرٌ حاسم: «فالناجون من الهولكوست المحرومون يموتون كلَّ يوم». ولكنْ ما إنْ تنازل السويسريُّون عن المال حتى زالت الحاجةُ الملحّةُ بأعجوبة. فها قد مضى أكثرُ من عام على التوصُّل إلى التسوية ولم توضعْ بعدُ خطّةٌ لتوزيع تلك الأموال. وإلى حين تقاسُمِ الأموال يكون «الناجون من الهولوكوست المحرومون» قد تُوفّوا كلُّهم على الأرجح!. فالواقع أنّه ابتداءً من كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٩ كان أقلُّ من نصف المنتيْ مليون دولار الآتية من «الصندوق الخاص لضحايا الهولوكوست المحرومين» الذي تأسَّس في شباط/فبراير ١٩٩٧ قد وُزِّعَ على الضحايا الفعليِّين. وبعد أن تُدفع أتعابُ

المحامين ستتدفّق الأموالُ السويسريّة... على خَزْنات المنظّمات اليهوديّة «الجديرة» ![1].

وفي جريدة نيويورك تايمز كتب بُرْت نوبورن Neuborne، وهو أستاذُ قانون في جامعة نيويورك وعضوٌ في فريق الدعوى القانونيّة الجماعيّة، أنّه «لا يمكن بأيِّ حالٍ الدفاعُ عن أيِّ تسوية إنْ هي اجازتْ للهولوكوست أَنْ تبدو مشروعًا تجني منه المصارفُ السويسريّةُ الأرباحَ». وشَهِدَ إدغار برونفمان شهادةً مثيرةً للمشاعر أمام اللجنة المصرفيّة في مجلس النوّاب الأميركيّ، فقال إنّه «لا ينبغي أن يُسمح [للسويسريّين] بأن يَجْنوا أرباحًا من رماد الهولوكوست»، ولكنّه أقرَّ مؤخّرًا بأنّ خزينة «المؤتمر اليهوديّ العالميّ» جَمَعَتْ ما لا يقلّ عن ٧ بلايين دولار تقريبًا من أموال التعويضات[2].

---

١ ـ ڤيليب لَنْتز Lentz: «ويلاتُ التعويض»، في كراينز (١٥ ـ ٢١ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٩). مايكل شابيرو Shapiro: «المحامون في التسوية مع المصارف السويسريّة يقدِّمون الفاتورة، مُغْضِبين المجموعاتِ اليهوديّة»، في جوويش تلغرافيك ايجنسي (٢٣ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٩). ريبيكّا سبنس Spence: «جلسة لسماع الشهادات بخصوص المصاريف القانونيّة في دعوى المصارف السويسريّة»، في مجلة فوروارد (٢٦ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٩). جايمس بون Bone: «الناجون من الهولوكوست يحتجّون على رسوم المحامين»، في جريدة ذا تايمس (لندن) (١ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٩). نَڤْلين بارتّ Barrett: «أرصدة الهولوكوست» في جريدة نيويورك بوست (٢ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٩). ستيوارت ايْن Ain: «نزاع دينيّ يتفجّر في الصراع على الأموال السويسريّة»، في أسبوعيّة جوويش وِيك (١٤ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٠) (وذلك لعبارة «... عن طريق الاحتيال»). ادَم دِكْتر Dickter: «خلاف في المحكمة»، في أسبوعية جُوويش وِيك (٢١ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٠). تقرير الصندوق السويسريّ لضحايا الهولوكوست/شوّوا: «نظرة عامة إلى الموارد الماليّة والمدفوعات والطلبات المعلّقة» (٣٠ تشرين الثاني/نوفمبر). ولم يتلقَّ الناجون من الهولوكوست في إسرائيل أيًا من أموال «الصندوق الخاص» المخصّصة لهم؛ انظرْ في هذا الصدد: يائير شيليغ Sheleg: «النجاة من البيروقراطيّة الإسرائيليّة»، في جريدة هاارتز (٦ شباط/فبراير ٢٠٠٠).

٢ ـ بُرْت نوبورن: «حسابُ مجموع الذنوب السويسريّة»، في جريدة نيويورك تايمز (٢٤ حزيران/يونيو ١٩٩٨). جلسة لسماع الشهادات أمام لجنة الخدمات المصرفيّة والماليّة، في مجلس النواب الأميركيّ، ١١ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٦. «مؤتمر عن الهولوكوست في ستوكهولم»، في جريدة فرانكفورتر الجِمَايْن تزايتُنغ (٢٦ كانون الثاني/يناير، ٢٠٠٠) (الكلام برونفمان).

في هذه الأثناء نُشرتِ التقاريرُ الموثوقةُ عن المصارف السويسريّة. وبات بإمكان المرء أن يَحْكم ما إذا كانت هناك حقًا، كما يدّعي باوِرْ، «مؤامرةٌ سويسريّةٌ - نازيّةٌ عمرُها خمسون عامًا تَهْدف إلى سرقة بلايين الدولارات من يهود أوروبا ومن الناجين من الهولوكوست».

ففي تموز/يوليو ١٩٩٨ أصدرتْ «اللجنة المستقلّة من الخبراء» (لجنة «برْجيِيه») تقريرَها، وعنوانُه **سويسرا ومعاملاتُ الذهب في الحرب العالميّة الثانية**[1]. وأكّدت اللّجنة أنّ المصارف السويسريّة اشترتْ ذهبًا من ألمانيا النازيّة تبلغ قيمتُه حوالى ٤ بلايين دولار بالقيمة الراهنة، وأنّ تلك المصارف كانت تَعْلم أنّ ذلك الذهب كان قد نُهِبَ من المصارف المركزيّة في أوروبا المحتلّة [من قِبل النازيّين]. وعلى امتداد جلسات سماع الشهادات في مبنى الكونغرس (الكابيتول هِلْ) عَبَّرَ أعضاءُ الكونغرس عن صدمتهم لأنّ المصارف السويسريّة تاجرتْ بالأرصدة المنهُوبة، والأسوأ من ذلك أنّها واصلتِ الانغماسَ في هذه الممارسات الفظيعة. وإذْ رثى أحدُ أعضاء الكونغرس لحقيقةِ أنّ السياسيِّين الفاسدين يُودِعُون أرباحَهم الحرامَ في المصارف السويسريّة، طالَبَ سويسرا بأن تَسنّ قانونًا ضدّ «حركة الأموال السريّة هذه... التي يقوم بها أناسٌ ذوو شهرة سياسيّة أو قياديّة، ضدّ أناسٍ يَنْهبون خزائنَهم». وتساءل عضوٌ آخر بصوتٍ عالٍ، ناديًا «العددَ [الكبيرَ] من رجالِ الأعمال ومن موظفي الحكومات البارزين الفاسدين على امتداد العالم الذين وَجَدوا في المصارف السويسريّة مَلاذًا لثرواتهم الضخمة»، ما إذا كان «النظامُ المصرفيُّ السويسريَ يأوي لصوصَ هذا الجيل والبلادَ التي يمثّلونها بالطرق التي قُدِّمَ بها هذا الملاذُ قبل ٥٥ عامًا للنظام النازيّ؟»[2]. والحقّ أنّ هذه المشكلة تستحقّ

---

١ - صدر في برن، عام ١٩٩٨.

٢ - جلسة لسماع الشهادات أمام لجنة الخدمات المصرفيّة والماليّة، في مجلس النواب الأميركيّ، ١١ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٦. وقد استُدعي شاهدًا خبيرًا المؤرِّخ غيرهارد ل. واينبرغ من جامعة نورث كارولاينا، فشهد زُورًا أنّ «الحكومة السويسريّة في ذلك الزمن، وفي السنوات التي تلت مباشرةً نهايةَ الحرب العالميّة الثانية، قد اتخذتْ موقفًا يقول بأنّ النهبَ أمرٌ مشروع» وأنّ «الأولويّة رقم واحد» للمصارف السويسريّة قد كانت «جنيَ أكبر قدر ممكن من الأموال... وأنْ تقومَ بذلك بصرف النظر عن الالتزامات القانونيّة أو الأخلاق أو الأدب أو أيِّ شيء آخر». (جلسة لسماع الشهادات أمام لجنة الخدمات المصرفيّة والماليّة، في مجلس النواب الأميركيّ، ٢٥ حزيران/يونيو ١٩٩٧).

الاهتمام. وذلك لأنَّ ما يقدَّر بما بين ١٠٠ بليون دولار إلى ٢٠٠ بليون دولار من الأموال الناجمة عن الفساد السياسيّ تَعْبر الحدودَ على امتداد العالم وتُودَعُ مصارفَ خاصةً. غير أنَّ تأنيباتِ اللجنة المصرفيّة في الكونغرس كانت ستكون أكبرَ شأنًا لو لم يكن نصفُ «الرأسمال غيرِ الشرعيّ المسحوبِ» هذا قد أُودِعَ مصارفَ أميركيّةً، وبإجازةٍ كاملة من قانون الولايات المتحدة![1]. وتَشْمل قائمةُ المستفيدين مؤخَّرًا من هذا «الملاذ» القانونيّ الأميركيّ أخا رئيسِ المكسيكِ السابق راوول ساليناس دو غورتاري، وعائلةَ الديكتاتور النيجيريّ السابق الجنرال ساني أباشا. ويلاحِظ جان زيغلر، وهو عضوٌ في مجلسِ النواب السويسريّ وناقدٌ شرسٌ للمصارف السويسريّة، أنَّ «الذهب الذي نَهَبَه أدولف هتلر وأتباعُه لا يَخْتلف في الجوهر عن أجر القتل» الذي تَحْفَظُه الآن حساباتٌ تابعةٌ لديكتاتوريِّي العالم الثالث في مصارف سويسريّة. «لقد دَفَعَ لصوصُ هتلر، وبتكليفٍ منه، ملايينَ الرجال والنساء والأطفال إلى حَتْفهم، ومئاتُ الآلاف من الأطفال يموتون يوميًا من جرّاء الأمراض وسوءِ التغذية» في العالم الثالث لأنَّ «الطغاة نَهَبوا بلادَهم بمساعدة أسماك القِرْش الماليّة السويسريّة»[2]... وبمساعدة أسماك القرش الماليّة **الأميركيّة** أيضًا. وسأضع جانبًا نقطةً أهمَّ، وهي أنَّ عددًا كبيرًا من أولئك الطغاة إنَّما تمّ تنصيبُهم وتمّتْ حمايتُهم بفضل القوّة الأميركيّة، وقد فوّضتْهم الولاياتُ المتحدة بنهب بلادهم!

استنتجتِ «اللّجنةُ المستقلّةُ من الخبراء»، في ما يتعلّق بالهولوكوست النازيّة تحديدًا، أنَّ المصارف السويسريّة اشترتْ حقًّا «سبائكَ تحتوي ذهبًا نَهَبه المجرمون النازيّون من ضحايا معسكرات العمل ومعسكرات الإبادة». ولكنَّ اللّجنة تقول إنَّ المصارف لم تفعلْ ذلك عن سابق معرفة: «فليستْ ثمّة إشارةٌ إلى أنَّ صنّاع القرار

---

١ - رايموند و. بايكر Baker: «المَهْرَبُ الأعظمُ في نظام السوق الحرة»، في مجلة **واشنطن كوارتيرْلي** (خريف ١٩٩٩). وقسمٌ كبيرٌ من الأموال المقدَّرة بما بين ٥٠٠ بليون إلى تريليونٍ واحدٍ من الدولارات «المُبَيَّضة» سنويًا من تجارة المخدِّرات «تُودَع بأمانٍ هي الأخرى مصارفَ في الولايات المتحدة» (المصدر السابق)، مع أنَّ هذا غيرُ مجازٍ في القانون الأميركيّ.

٢ - زيغلر: **السويسريّون**....، ص xii؛ راجع ص ١٩، ٢٦٥.

في المصرف المركزيُ السويسريَ كانوا يَعْلمون أنّ السبائك المحتوية مثلَ ذلك الذهب كانت تُرْسَل إلى سويسرا من قِبل بنكِ الرايخ». وتقدِّر «اللُّجنةُ المستقلّةُ» قيمةَ «ذهب الضحايا» الذي اشترتْه سويسرا عن غير قصد بـ ١٣٤،٤٢٨$، أيْ حوالى مليون دولار بالقيمة الراهنة. ويتضمّن هذا الرقمُ قيمةَ «ذهب الضحايا» المنتَزعِ من نزلاء المعسكرات اليهود وغيرِ اليهود أيضًا[١].

في كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٩ أصدرتِ «اللُّجنةُ المستقلّةُ للأشخاص البارزين» (لجنة ڤولكر) تقريرَها المعنونَ: **تقرير عن الحسابات الهاجعة لضحايا الاضطهاد النازيّ في المصارف السويسريّة**[٢]. ويوثِّق هذا التقريرُ نتائجَ تحقيقٍ ماليّ استَغْرق وضعُه ثلاثةَ أعوام وكلّف ما لا يقلّ عن ٥٠٠ مليون دولار[٣]. وتستحقّ النتيجةُ المركزيّةُ لهذا التقرير، المتعلّقة بـ «التعامل مع الحسابات الهاجعة لضحايا الاضطهاد النازيّ» اقتباسًا مطوّلاً، هو التالي:

«بالنسبة إلى ضحايا الاضطهاد النازيّ لم يكن ثمّة دليلٌ على تمييزٍ منهجيّ ضدّهم، أو تعويقٍ دون حصولهم [على حساباتهم]، أو اختلاس، أو انتهاكٍ لمتطلّبات القانون السويسريّ القاضية بالاحتفاظ بالوثائق. ولكنّ التقرير يَنْتقد أيضًا أفعالَ بعض المصارف في تعاملها مع حسابات ضحايا الاضطهاد النازيّ. ويجب التشديدُ على كلمة 'بعض' الواردةِ في الجملة السابقة، وذلك لأنّ الأفعال المنتَقَدَة تشير بشكلٍ رئيسيٍّ إلى أفعالِ مصارف محدّدةٍ في تعاملها مع حساباتِ أفرادٍ خاصةٍ بضحايا الاضطهاد النازيّ في سياق تحقيقٍ عن ٢٥٤ مصرفًا طوال ٦٠ عامًا تقريبًا. ويُقرّ التقرير، في ما يخصّ الأفعالَ المنتَقَدَةَ، بوجود ظروفٍ مخفِّفةٍ لتصرُّف المصارف التي اشتركتْ في هذه النشاطات. وعلاوةً على ذلك

---

١ ـ سويسرا ومعاملات الذهب في الحرب العالميّة الثانية، الفصل الرابع، ص ٤٨.

٢ ـ صدر في بَرْن عام ١٩٩٩ (وسأرْمز إليه من الآن فصاعدًا بكلمة: التقرير).

٣ ـ قُدِّرت «التكاليفُ الخارجيّة» لهذا التحقيق الماليّ بـ ٢٠٠ مليون دولار (التقرير، ص ٤، المقطع ١٧). وقُدِّرتْ الكلفة المتوجِّبة على المصارف السويسريّة بـ ٣٠٠ مليون دولار إضافيّ (راجع البيانَ الصحفيّ الذي أصْدرته «اللجنةُ السويسريّة الاتّحاديّة المصرفيّة» في ٦ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٩).

يعترف التقرير بوجود أدلّة وافرة على حالاتٍ كثيرةٍ بحثتْ فيها المصارفُ بجدٍّ عن مالكي الحسابات المفقودين أو عن وَرَثتهم، بمن فيهم ضحايا الهولوكوست، وسدَّدتْ أرصدةَ الحسابات الهاجعة إلى أصحابِ الشأن».

ويَسْتنتج ذلك المقطعُ من التقرير باعتدالٍ أنَّ «اللجنة تُؤْمن أنَّ الأفعال المنتَقَدة هي من الأهميَّة بحيث يُستحْسَنُ أن توثَّقَ في هذا القسم [من التقرير] الأمورَ التي انحرفتْ حقًّا عن جادة الصواب لكي يصبح ممكنًا التعلُّمُ من الماضي بدلاً من تكرار أخطائه»[1].

ووجد التقريرُ أيضًا، بالرّغم من أنَّ «اللجنة» لم تستطع أن تتعقَّبَ كلَّ السجلاّت المصرفيَّة الخاصَّة بِـ «الفترة المعنيَّة» (١٩٣٣ ـ ١٩٤٥)، أنَّ تدمير السجلاّت من دون أن يُكْتَشفَ هذا التدميرُ «سيكون صعبًا إنْ لم يكن مستحيلاً»، وأنّه «لم يوجد ثمَّة دليلٌ، في الحقيقة، على حصول تدميرٍ منهجيٍّ لسجلاّت الحسابات بهدف إخفاءِ تصرُّفاتٍ حدثتْ في الماضي». ويَخْلص التقريرُ إلى أنَّ نسبة السجلاّت التي تمّ العثورُ عليها (وهي ٦٠٪) كانت «رائعةً حقًّا» و«لافتةً حقًّا»، ولاسيَّما بالنظر إلى أنَّ القانون السويسريَّ لا يتطلَّب الاحتفاظَ بالسجلاّت بما يتجاوز الأعوامَ العشرة[2].

ولكنْ قارنْ ذلك كلَّه بصياغة نيويورك تايمز لنتائج «لجنة ڤولكر». فَتَحْتَ عنوان افتتاحيَّ هو «خُدَعُ المصارف السويسريّة»[3] أوردت الجريدةُ أنَّ «اللجنة» لم تجد «دليلاً حاسمًا» على أنَّ المصارف السويسريّة أساءتِ التعاملَ مع الحسابات اليهوديّة الهاجعة. ولكنَّ التقرير كان قد ذَكَرَ أنّه «لم يوجد ثمَّة دليلٌ»، من دون أن يقيِّد [ذلك الدليلَ بأيِّ صفة]. وتتابع نيويورك تايمز فَتَذْكر أنَّ «اللجنة وجدتْ أنَّ المصارف السويسريّة تدبَّرتْ، بطريقةٍ ما، إضاعةَ آثارِ عددٍ ضخمٍ جدًّا من هذه

---

١ ـ التقرير: الملحق ٥، ص ٨١، المقطع الأول (وراجع الجزء الأول، ص ١٣ ـ ١٥، المقاطع ٤١ ـ ٤٩).

٢ ـ التقرير: الجزء الأول، ص ٦، المقطع ٢٢ (من اجل جملة «لم يوجد ثمَّة دليل....»)؛ الجزء الأول، ص ٦، المقطع ٢٣ (بالنسبة إلى القوانين المصرفيّة والنسبة المئويّة)؛ الملحق ٤، ص ٥٨، المقطع ٥ (بالنسبة إلى «رائعة حقًّا»)؛ الملحق ٥، ص ٨١، المقطع ٣ (بالنسبة إلى «لافتة حقًّا»). (وراجع الجزء الأول، ص ١٥، المقطع ٤٧؛ الجزء الأول، ص ١٧، المقطع ٥٨؛ الملحق ٧، ص ١٠٧، المقطعان ٣ و ٩).

٣ ـ نيويورك تايمز (٧ كانون الأول/ديسمبر، ١٩٩٩).

الحسابات». ولكنَّ التقرير كان قد وَجَدَ أنَّ السويسريِّين احتفظوا بنسبة «رائعة حقًّا» و«لافتة حقًّا» من السجلاّت. وأخيرًا أوردت الجريدةُ أنّه، بحسب «اللّجنة»، «صَرَفَ عددٌ كبيرٌ من المصارف السويسريّة، بقسوةٍ وبخداعٍ، أفرادَ عائلاتٍ حاولوا أن يستعيدوا أرصدتَهم الضائعة». ولكنّ التقرير، في الحقيقة، كان قد شدَّد على أنَّ «بعضَ» المصارف فحسبُ قد أساءت التصرُّف، وأنّه كانت هناك «ظروفٌ مخفِّفةٌ» في هذه الحالات نفسِها؛ وأشار التقريرُ أيضًا إلى «حالات كثيرة» بحثَتْ فيها المصارفُ السويسريّةُ بجدٍّ عن المطالبين الشرعيِّين [من ورثة الضحايا].

صحيح أنَّ التقرير يَعيب على المصارف السويسريّة أنّها لم تكن «صريحةً ومباشِرةً» في تحقيقاتها السابقة عن الحسابات الهاجعة من حقبة الهولوكوست، ولكنَّه يبدو أنّه يَنْسب التقصيرَ في تلك التحقيقات إلى عوامل فنيّة [تقنيّة] أكثرَ مما ينسبه إلى ارتكابٍ [مُتعمَّد][1]. وقد حدَّد التقرير ٥٤٠٠٠ حساب «ذي صلةٍ مرجَّحةٍ أو محتملةٍ بضحايا الاضطهاد النازيّ»، ولكنّه حَكَم بأنَّ الأرجحيّة التي تسوِّغ نشرَ أسماء أصحاب الحسابات ليست كبيرة بما يكفي إلاّ في ما يخصّ حوالى نصفِ ذلك العدد (٢٥٠٠٠ حساب). وتقدَّر القيمةُ الحاليةُ لعشرة آلاف حساب (من هذه الحسابات) توافرتْ بشأنها بعضُ المعلومات بما بين ١٧٠ إلى ٢٦٠ مليون دولار. وثَبَتَ أنَّ من المستحيل تقديرَ القيمة الحالية للحسابات الباقية[2]. ويرجَّح أن تتجاوز

---

١ ـ التقرير، الملحق ٥، ص ٨١، المقطع ٢. التقرير، الملحق ٥، ص ٨٧ ـ ٨٨، المقطع ٢٧: «ثمّة تشكيلة من التفسيرات للتقصير الكبير في التقارير السابقة، ولكنَّ بعضًا من الأسباب الرئيسيّة لذلك يمكن عَزْوُه إلى استخدام المصارف السويسريّة تعريفاتٍ ضيِّقةً للحسابات 'الهاجعة'؛ أو إلى استبعادِ هذه المصارف في بحوثها أو في أبحاثها الناقصة أنواعًا معيَّنة من الحسابات؛ أو إلى عدم تحقُّقها من حساباتٍ ليست فيها أرصدةٌ تتجاوز الحدود الدنيا المعيَّنة؛ أو إلى عدم اعتبارها أصحابَ الحسابات ضحايا العنف أو الاضطهاد النازيَّينْ ما لم يقدِّم أقاربُ الضحايا طلباتٍ بذلك إلى المصرف».

٢ ـ التقرير، ص ١٠، المقطع ٣٠ (بشأن «صلةٍ مرجَّحةٍ أو محتملة...»)؛ ص ٢٠، المقاطع ٧٣ ـ ٧٥ (بشأن «الأرجحيّة التي تسوِّغ...»). التقرير، الملحق ٤، ص ٦٥ ـ ٦٧، المقاطع ٢٠ ـ ٢٦، وص ٧٢، المقاطع ٤٠ ـ ٤٣ (بشأن «القيمة الحالية»). وانسجامًا مع توصيات التقرير، وافقت «اللجنةُ المصرفيّة الاتّحاديّة السويسريّة» في آذار/مارس ٢٠٠٠ على نشر أسماء أصحاب الحسابات الخمسة والعشرين ألفًا. («اللّجنة المصرفيّة الاتّحاديّة السويسريّة تَتْبَعُ توصيات فولكر»، بيان صحفيّ، ٣٠ آذار/مارس ٢٠٠٠).

القيمةُ الكاملةُ للحسابات الهولوكوستيّة الهاجعة، وبكثير، مبلغَ الـ ٣٢ مليون دولار الذي كانت المصارفُ السويسريّةُ قد قدّرتْه أوّلَ الأمر، ولكنّه سيقلّ إلى حدٍ صاعقٍ عن مبلغ ٧ إلى ٢٠ بليون دولار الذي يدّعيه (يُطالب به) «المؤتمرُ العالميّ اليهوديّ». وقد لاحظ ڤولكر في شهادة لاحقة أمام الكونغرس أنّ عددَ الحسابات السويسرية ذاتِ «الصلة المرجَّحة أو المحتَمَلة» بضحايا الهولوكوست كان «أكثرَ بعدة أضعافٍ من العدد الذي خَلصتْ إليه تحقيقاتُ السويسريِّين السابقة». ولكنّه أكمل: «إنّني لأُشدِّدُ على كلمات 'مرجَّحة أو محتَمَلة'، لأنّنا ـ باستثناء حالات قليلةٍ نسْبيًا، وبعد أكثر من نصف قرن ـ لم نستطع أن نحدِّدَ بثقةٍ تامةٍ علاقةً لا يمكن دَحْضُها بين الضحايا وأصحابِ الحسابات [الهاجعة]»[1].

ولكنّ اكتشاف «لجنة ڤولكر» الأكثرَ تفجُّرًا لم يَرِدْ ذِكرُه في الإعلام الأميركيّ. فهذه اللّجنة تلاحِظ أنّ الولايات المتحدة قد كانت هي أيضًا (إلى جانب سويسرا) ملاذًا آمنًا للأرصدة اليهوديّة الأوروبيّة القابلة للتحويل:

«إنّ استباق اندلاع الحرب والضائقةِ الاقتصاديّة، فضلاً عن الاضطهاد الذي تعرَّض له اليهودُ وأقليّاتٌ أخرى على يد النازيّين قبل الحرب العالميّة الثانية وأثناءها، قد دفعا عددًا كبيرًا من الناس، بمن فيهم ضحايا ذلك الاضطهاد، إلى نَقْلِ أرصدتهم إلى بلدانٍ اعتُبِرتْ ملاذاتٍ آمنةً (وضِمْنها بشكلٍ رئيسيّ الولاياتُ المتحدة والمملكةُ المتحدة).... وبالنظر إلى حدود سويسرا المحايدةِ مع دول المحور، ومع الدول التي احتلّها المحورُ، كانت المصارفُ السويسريّة ووسائطُ ماليةٌ سويسريّةٌ أخرى متلقّيةً هي أيضًا لقسمٍ من الأموال الباحثة عن الأمان».

---

١ ـ جلسة لسماع الشهادات أمام لجنة الخدمات المصرفيّة والماليّة، في مجلس النواب الأميركيّ، ٩ شباط/فبراير ٢٠٠٠ (مُقتَبَسٌ عن شهادة ڤولكر المعدّة). انظر التوضيحات التي أدخلتْها اللّجنةُ المصرفيّة الاتّحاديّة السويسريّة، وهي أنّ «كل الإشارات إلى القيمة الحالية المحتملة للحسابات التي أمْكن تحديدُها تعتمد أساسًا على افتراضاتٍ وتصوُّراتٍ» وأنّه «لم يَثْبت دليلٌ حقيقيّ، مدعومٌ من مصادر مصرفيّة داخليّة معاصرة، على أنّ أصحاب الحسابات قد كانوا حقًا من ضحايا الهولوكوست، إلاّ في ما يتعلّق بحوالى ١٢٠٠ حساب فقط» (بيان صحفيّ، ٦ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٩).

ويعدِّد ملحق هامٌ في التقرير «الأماكنَ المفضَّلَة» للأرصدة اليهوديّة الأوروبيّة القابلة للتحويل. فإذا بالمكانَيْن الرئيسيَيْن اللذَيْن ذكرهما الملحقُ هما الولاياتُ المتحدة وسويسرا (وجاءت بريطانيا العظمى «أدنى منهما بكثيرٍ في المرتبة الثالثة»)[1].

السؤال الواضح هنا هو: ماذا حَلَّ بالحسابات الهاجعة من حقبة الهولوكوست في المصارف الأميركيّة؟ لقد استدعت اللجنةُ المصرفيّة في مجلس النوّاب الأميركيّ خبيرًا ليدلي بشهادته في هذه القضيّة. كان سيمور روبِنْ Rubin نائبَ رئيس وفد الولايات المتحدة إلى المفاوضات مع سويسرا بعد الحرب العالميّة الثانية، وهو اليوم أستاذٌ في الجامعة الأميركيّة [في واشنطن]. وعمل روبن أيضًا في الخمسينيّات، وتحت رعاية المنظّمات الأميركيّة اليهوديّة، مع «فريق من المختصّين في الحياة الجمعيّة اليهوديّةِ في أوروبا»، على تحديد الحسابات الهاجعة في المصارف الأميركيّة من حقبة الهولوكوست. فصَرَّحَ في شهادته أمام مجلس النوّاب الأميركيّ أنّ قيمة هذه الحسابات قُدِّرَتْ بـ ٦ ملايين دولار، وذلك وفقًا لتحقيق ماليٍّ شديدِ السطحية والبدائيّة عن مصارف نيويورك وحدها. وطالبت المنظماتُ اليهوديّةُ آنذاك الكونغرسَ بهذا المبلغ لإعطائه إلى «الناجينَ المحرومين» (وذلك لأنّ الحسابات الهاجعة المهجورة في الولايات المتحدة تُنقل إلى الدولة بحسب مبدإ الاستيراث). ويتذكّر رُوبِن بعد ذلك ما يلي:

> «رفضَ رعاةٌ محتملون للتشريع اللازم في الكونغرس التقديرَ الأوليَّ البالغَ ستة ملايين دولار، ووُضِع في مسوَّدة التشريع الأولى حدٌّ أقصى هو ٣ ملايين دولار.... ثم خُفِّضت الملايينُ الثلاثة في جلسات استماع اللّجنة إلى مليون واحد. وعاد مرسومٌ قانونيٌّ فخفَّض المبلغَ إلى ٥٠٠ ألف دولار. ولكنّ هذا المبلغ نفسه عارَضَهُ 'مكتبُ الميزانية'، الذي اقتَرَحَ حدًا أقصى هو ٢٥٠ ألف دولار. غير أنّ القانون أُقِرَّ ونَصَّ على أن يكون المبلغ هو ٥٠٠ ألف دولار».

---

١ ـ التقرير، ص ٢، المقطع ٨ (وراجعْ ص ٢٣، المقطع ٩٢). التقرير، الملحق S، ص A ـ ١٣٤؛ ولتصنيفٍ أدقّ راجعْ ص A ـ ١٣٥ وما بعدها.

وخلص رُوبِن إلى أنّ «الولايات المتحدة اتَّخذتْ إجراءاتٍ محدَّدةً جدًا فقط لكي تعيِّن الأرصدةَ التي لا وَرَثَة لها في الولايات المتحدة... وقدَّمتْ ٥٠٠ ألف دولار فحسب، خلافًا لمبلغ ٣٢ مليون دولار كانت المصارفُ السويسريّةُ قد أقرّتْ به حتى قبل تحقيقات لجنة فولكر!»[١]. وبكلمات أخرى: **إنّ سِجلَ الولايات المتحدة لَهُوَ أسْوأُ بكثيرٍ من سجلّ سويسرا**. وجديرٌ بالتشديد أنّه، باستثناء ملاحظةٍ عابرةٍ أبداها آيزنستات، لم يكن ثمّة أيُّ ذِكْرٍ للحسابات الهاجعة في المصارف الأميركيّة، أثناء جلسة سماع الشهادات التي خصّصتها اللجنتان المصرفيّتان في مجلس النوّاب ومجلس الشيوخ لقضيّة المصارف السويسريّة. وبالرُّغم من أنّ روبن يؤدِّي دورًا بالغَ الأهميّة في التقارير الكثيرة التي تُعلَّق على قضيّة المصارف السويسريّة (ويُخَصِّص باورْ صفحاتٍ لا حصرَ لها لهذا «المقاتل [الممتلئ حماسًا] في وزارة الخارجيّة الأميركيّة»)، فليس هناك تقريرٌ واحدٌ يَذْكر شهادتَه أمام مجلس النواب. وقد عبَّر روبن أيضًا أثناء جلسة سماع الشهادات في مجلس النوّاب «عن قدرٍ من الشكِّ حيال المبالغ الضخمة [الموجودة في الحسابات السويسريّة الهاجعة] التي يُتَحَدَّثُ عنها». وغنيّ عن القول إنّ رؤى رُوبِن المتبصِّرة الدقيقةَ إلى هذا الأمر قد تمَّ تجاهُلُها بعمدٍ هي الأخرى.

تُرى أين كان الصراخُ والزعيقُ في الكونغرس على أصحاب المصارف الأميركيّة «المخادِعين»؟ لقد راح أعضاءُ اللُّجنتَيْن المصرفيتَيْن في مجلس الشيوخ ومجلس النوّاب، الواحدُ في إثر الآخر، يَسْتصرخون السويسريِّين «أنِ ادفَعوا كلَّ ما عليكم الآن»، ولكنَّ أحدًا منهم لم يطالِب الولاياتِ المتحدةَ بأن تفعل ذلك!. بل إنّ أحد أعضاء اللُّجنة المصرفيّة في مجلس النوّاب جَزَمَ، دونَ حياءٍ، وبموافقةٍ من برونفمان، أنَّ سويسرا

١ ـ جلسة لسماع الشهادات أمام لجنة الخدمات المصرفيّة والماليّة في مجلس النواب، ٢٥ حزيران/يونيو ١٩٩٧ (مُقتبَس عن شهادة روبن المعدّة). (ولخلفيّة لهذا الأمر انظرْ: سيمور ج. رُوبِن وأبا پ شوارتز: «اللاجئون والتعويضات»، في مجلة **لو اند كونتمْپرَري پروبلمز** [القانون والمشاكل المعاصرة] الصادرة عن كليّة الحقوق في جامعة ديُوكْ، ١٩٥١، ص ٢٨٦ ـ ٢٨٩).

«وحدَها لم تُظْهر الجرأةَ على مواجهة ماضيها»[1]. وليس غريبًا الا تُطْلِقَ صناعةُ الهولوكوست حملةً للتحقُّق من المصارف الأميركيّة. وذلك أنَّ تحقيقًا ماليًا عن مصارفنا من نوع التحقيق الماليّ السويسريَ لن يكلِّف دافعي الضرائب الأميركيِّين الملايينَ بل البلايينَ من الدولارات[2]. وقبل أن ينتهي مثلُ هذا التحقيق الماليِّ الأميركيٍّ سيكون الأميركيُّون اليهود قد باتوا يبحثون عن ملاذ في ميونيخ. إنَّ للشجاعة حدودًا!*.

لقد سبق للسويسريِّين حتى في نهاية الأربعينيُات من القرن العشرين، حين كانت الولاياتُ المتحدة تُلحّ على سويسرا بتعيين أيٍّ من الحسابات الهاجعة تخصّ ناجين من الهولوكوست، أنِ احتجّوا قائلين إنَّ على الأميركيِّين أن يَهتموا بشِعَابهم[3]. وفي منتصف عام ١٩٩٧ أعلن حاكمُ نيويورك «باتاكي» إنشاءَ «لجنةِ ولايةِ نيويورك لاستعادة أرصدة ضحايا الهولوكوست»، وذلك من أجل إقامة الدعاوى على المصارف السويسريّة. ولكنَّ السويسريِّين لم يتأثَّروا بذلك، واقترحوا أنّه قد يكون من الأفضل أن تُقيم «اللجنةُ» المذكورةُ دعاوى ضدّ المصارف الاميركيّة والإسرائيليّة.[4] والحق أنَ باور يتذكّر أنَّ أصحاب المصارف الإسرائيليّة كانوا قد «رَفَضوا أن يقدِّموا لوائحَ من حسابات اليهود الهاجعة» بعد حرب ١٩٤٨، وَوَرَد مؤخَّرًا أنَّ «مصارفَ إسرائيل

١ ـ جلسة لسماع الشهادات امام لجنة الخدمات المصرفيّة والماليّة، في مجلس النواب، ٢٥ حزيران/يونيو ١٩٩٧.

٢ ـ قُدِّر عددُ سكان سويسرا في «الفترة المعنيّة» (١٩٣٣ ـ ١٩٤٥) بِـ ٤ ملايين نسمة، وأما عدد سكّان الولايات المتحدة فقُدِّر حينها بِـ ١٣٠ مليونًا. وقد قامت لجنة فولكر بالتحقيق في كل حسابٍ في المصارف السويسريّة، كان قد فُتح أو أُغلق او بقي هاجعًا، خلال تلك الأعوام.

* ـ المقصود بالجملتين الأخيرتين: ١) لو طَلبتْ صناعةُ الهولوكوست تحقيقًا ماليًا من المصارف الأميركيّة شاملاً شموليةَ التحقيق الذي كانت قد طلبتْه من المصارف السويسريّة، لكان الغضبُ في الولايات المتحدة سيَدْفع اليهودَ الأميركيِّين إلى اللجوء إلى ميونيخ (مدينة هتلر الاثيرة!). ٢) تدّعي صناعةُ الهولوكوست الشجاعةَ في مهاجمة سويسرا ولكنّها لا تنبس ببنت شفة إذا تعرضتْ للخطر في الولايات المتحدة. والجملتان ساخرتان كما لا يخفى. (م)

٣ ـ لڤين: **الوديعة الاخيرة**، ص ٢٣. باور: **الذهب النازيّ**، ص ٢٥٦. ويَعُدُّ باور طلبَ سويسرا هذا «لغوًا [خطابًا] ولا تمكن الإجابةُ عنه». أن تكون الإجابة عنه غير ممكنة فهذا مما لا شكَّ فيه، ولكنّه لماذا يكون لغوًا؟

٤ ـ ريكمان: **المصارف السويسريّة**، ص ١٩٤ ـ ١٩٥.

والمنظمات الصهيونيّة، خلافًا لما يحدث في دول أوروبا، تقاوِم الضغوط من أجل تشكيل لجان مستقلّة تحدِّد كميةَ الأملاك وعددَ الحسابات الهاجعة التي كانت في حوزة الناجين من الهولوكوست وكيفيةَ إيجاد أصحاب تلك الأملاك وهذه الحسابات» (بحسب فاينانشال تايمز). (وكان يهودٌ أوروبيُّون قد اشتروا أراضيَ، وفتحوا حساباتٍ مصرفيّةً، في فلسطين أثناء الانتداب البريطانيّ من أجل دعم المشروع الصهيونيّ أو من أجل التحضير للهجرة في فترة لاحقة [إلى فلسطين]). وفي تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٨ توصّل «المؤتمرُ اليهوديّ العالميّ» و«المنظمةُ اليهوديّة العالميّة لاستعادة الأملاك» إلى «قرارٍ مبدئيٍّ بالامتناع عن التعامل مع موضوع أرصدة ضحايا الهولوكوست الموجودةِ في إسرائيل، على أساسِ أنّ مسؤوليّةَ هذا الموضوع تقع على عاتق الحكومة الإسرائيليّة» (بحسب جريدة هاآرتز). وهكذا فإنّ الأوامر القضائيّةَ الصادرةَ عن هذه المنظَّمات اليهوديّة تَشْمل سويسرا، ولكنّها لا تَشْمل الدولة اليهوديّة !. وكانت أكثرُ تهمةٍ مثيرةٍ للمشاعر وُجِّهتْ إلى المصارف السويسريّة هي أنّ هذه الأخيرة طلبتْ شهاداتٍ من ورثة ضحايا الهولوكوست النازية تُثْبت موتَ هذه الضحايا. ولكنّ المصارف الإسرائيليّة كانت هي أيضًا قد طلبتْ مثل هذه الشهادات، ومع ذلك فإنّ المرء لَيَبحثُ عبثًا عن كتاباتٍ تدين «الإسرائيليِّين المخادعين». ولكي تُثْبت جريدةُ نيويورك تايمز أنّه «لا يمكن استنتاجُ معادلةٍ أخلاقيّةٍ بين المصارف في إسرائيل والمصارف في سويسرا»، فقد عمدتْ إلى اقتباس قولٍ لأحد المشرِّعين الإسرائيليِّين السابقين جاء فيه: «هنا [في إسرائيل] المسألة مسألةُ إهمالٍ لا غير؛ وأما في سويسرا فقد كانت جريمةً بحق»[1]. ولا حاجة إلى التعليق على هذا القول!

---

١ ـ باوِرْ: الذهب النازيّ، ص ٣٥٠ ـ ٣٥١. أكيفا إلْدار Eldar: «المملكة المتحدة: إسرائيل لم تسلِّم التعويضات إلى الناجين»، في جريدة هاآرتز (٢١ شباط/فبراير ٢٠٠٠). جودي دَمْبسِي Dempsey: «اليهود يَسْتصعبون المطالبةَ بأملاكهم من زمن الحرب في إسرائيل»، في جريدة فاينانشال تايمز (١ نيسان/أبريل ٢٠٠٠). جاك كاتزنَلّ Katzenell: «إسرائيل تملك أرصدةً من الحرب العالميّة الثانية»، في أسوشيتِدْ پرَسْ (١٣ نيسان/أبريل ٢٠٠٠). جول غرينْبرغ Greenberg: «التفتيش عن أملاك ضحايا الهولوكوست يتّجه وجهةً جديدة: إلى إسرائيل»، في نيويورك تايمز (١٥ نيسان/أبريل ٢٠٠٠). أكيفا إلْدار: «الناس والسياسة»، في هاآرتز (٢٧ نيسان/أبريل ٢٠٠٠).

في أيار/مايو ١٩٩٨ كَلَّفَ الكونغرس «لجنةً رئاسيّةً استشاريّةً بصدد أرصدة [ضحايا] الهولوكوست في الولايات المتحدة» بـ «إجراء تحقيقٍ جديدٍ عن مصير الأموال التي أُخذتْ من ضحايا الهولوكوست وصارت في حوزة الحكومة الاتّحاديّة في الولايات المتحدة». وكلّفها أيضًا بِ «تقديم النصيحة إلى الرئيس الأميركيّ بشأن السياسات التي ينبغي تبنّيها من أجل تعويض الأصحاب الشرعيِّين أو ورثتهم عن أملاكهم المسروقة». وصرَّح رئيسُ هذه اللّجنة برونفمان أنّ «عمل اللّجنة يبيِّن، بما لا يَقْبل الدُّحضَ، أنّنا نحن في الولايات المتحدة على استعداد لأن نضع أنفسَنا، في ما يخصّ أموالَ ضحايا الهولوكوست، في الدرجة العليا من سلّم الحقيقة حيث وَضَعْنا الأممَ الأخرى». ومع ذلك فإنّ لجنة رئاسيّة استشاريّة [أميركيّة] ميزانيّتُها الكاملةُ ٦ ملايين دولار مختلفةٌ نوعًا ما عن تحقيق ماليّ عالميّ شامل [لا يقوم به أصحابُ المصارف السويسريّة أنفسُهم] ميزانيّتُه ٥٠٠ مليون دولار ويَطُول نظامًا مصرفيًا لأمّةٍ بأكملها وذي إمكانيّاتٍ لا حَصْرَ لها في الاطّلاع على جميع سجلّات المصارف(١). ومن أجل تبديد أيّ شكوكٍ عالقةٍ في أنّ الولايات المتحدة تقف في صدارة الجهود الآيلة إلى استعادة الأملاك اليهوديّة المسروقة في حقبة الهولوكوست، أَعْلن جيمس ليتش (وهو رئيسُ اللّجنة المصرفيّة في مجلس النواب الأميركيّ)، وبفخرٍ، في شباط/فبراير ٢٠٠٠، أنّ متحفًا في ولاية نورث كارولاينا قد أعادَ لوحةً فنيّةً واحدة إلى إحدى العائلات النمساويّة [!]. وقال: «إنّ هذا العمل يؤكّد قبولَ الولايات المتحدة لمسؤوليّاتها... وأعتقد أنّ ذلك أمرٌ يَحْسن بهذه اللّجنة أن تشدِّد عليه»(٢).

بالنسبة إلى صناعة الهولوكوست كانت قضيةُ المصارف السويسريّة ـ شأنها في ذلك شأن «العذابات» التي قاساها بعد الحرب العالميّة الثانية بنجامين

---

١ ـ لمعلومات عن هذه اللّجنة، انظرْ: الموقع الالكترونيّ التالي: www.pcha.gov. (وكلام برونفمان مقتَبَسٌ من بيان صحفيّ صدر عن هذه «اللّجنة» في ٢١ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٩).

٢ ـ جلسة لسماع الشهادات أمام لجنة الخدمات المصرفيّة والماليّة، في مجلس النوّاب الأميركيّ، ٩ شباط/فبراير ٢٠٠٠.

ويلكومرسكي «الناجي» من الهولوكوست السويسريّة ـ برهانًا إضافيًا على مَكْرِ الأغيار اللاعقلانيّ الذي يَتَعَذّر استئصالُه. فايتامار لڤين يَخْلص إلى أنّ هذه القضية دلّت على انعدامٍ مفرطٍ للحساسيّة حتى من قِبل «دولة أوروبيّة ليبراليّة ديموقراطيّة» كسويسرا تجاه «أولئك الذين يَحْملون ندوبًا جسديةً وعاطفيّةً من أسوإ جريمة في التاريخ». واللافتُ أنّ دراسةً من جامعة تل أبيب في نيسان/أبريل ١٩٩٧ أوردتِ «ارتفاعًا واضحًا» في معاداة السويسريِّين للساميّة، ولكنّ هذا التطوُّر المشؤوم لا يمكن ربطُهُ [بزعم صناعة الهولوكوست] بابتزازِ هذه الصناعة لسويسرا. وها هو برونفمان يتنشّق بازدراء قائلاً: «اليهودُ لا يَصْنعون معاداة الساميّة. المعادون للساميّة [هم الذين] يَصْنعون معاداةَ السامية!»[1].

يؤكّد إيتامار لڤين أنّ التعويض الماديّ عن الهولوكوست «هو الامتحان الأخلاقيّ الأعظم الذي يواجِه أوروبا في نهاية القرن العشرين. وهو سيكون الامتحانَ الحقيقيّ لمعاملة هذه القارة للشعب اليهوديّ»[2]. والحقُّ أنّ صناعة الهولوكوست، بعد أن شجّعها نجاحُها في ابتزاز سويسرا، انتقلتْ سريعًا إلى «امتحانِ» بقيةِ أوروبا. وكانت المحطة التالية هي ألمانيا.

فبعد أن توصلتْ صناعةُ الهولوكوست إلى تسوية مع سويسرا في آب/أغسطس ١٩٩٨، استخدمتِ الاستراتيجيّةَ الرابحةَ ذاتَها ضد ألمانيا في أيلول من ذلك العام. وهكذا قدّمتِ الفرقُ القانونيّةُ الثلاثةُ نفسُها (وهي هاوسفَلْد ـ ڤايس، وفايغين ـ سويفت، و«المجلس العالميّ للجاليات اليهوديّة الأورثوذكسيّة») دعاوى جماعيّةً ضد شركاتٍ ألمانيّة خاصّة، مطالبةً إيّاها بما لا يقلّ عن ٢٠ بليون دولار على سبيل التعويض. وبدأ مُحاسِبُ مدينة نيويورك هيڤيسي بـ «مراقبة» المفاوضات مع ألمانيا في نيسان/أبريل ١٩٩٩، ملوِّحًا بالمقاطعة الاقتصاديّة.

---

١ ـ لڤين: الوديعة الأخيرة، ص ٢٢٣، ٢٠٤. «موقفٌ دفاعيٌّ سويسريّ عن دور [سويسرا] في الحرب العالميّة الثانية»، في اسوشيِاتِدْ پرسْ (١٥ آذار/مارس ٢٠٠٠). تايم (٢٤ شباط/فبراير ١٩٩٧) (الكلام برونفمان).

٢ ـ لڤين: الوديعة الأخيرة، ص ٢٢٤.

وعقدت اللُّجنةُ المصرفيَّة في مجلس النواب الأميركيّ جلساتٍ لسماع الشهادات في أيلول/سبتمبر. وصرَّحتْ عضوةُ الكونغرس كارولين مالوني Maloney أنَّ «مضيَّ الزمن لا ينبغي أن يكون حجَّةً للإثراء غيرِ المشروع» (الناتج عن أعمال تسخير اليهود في معسكرات العمل النازيَّة على كل حال، وأمَّا تسخيرُ الأفارقة الأميركيِّين للعمل فقصة أخرى!). وترنَّمَ رئيسُ اللُّجنة ليتش - وهو يقرأ من مخطوطة المسرحيَّة القديمة ذاتِها - بأنَّ «التاريخ لا يَعْترف بقانون يُبْطِل إحقاقَ الحق بعد زمنٍ معيَّن». وأَخْبر آيزنستات اللُّجنةَ بأنَّ «الشركات الألمانيَّة التي تَعْمل في الولايات المتحدة تثمِّن الامتيازاتِ التي تتمتَّع بها هنا، وتودّ أن تواصل المواطنيَّةَ الجيِّدةَ التي أظهرتْها وماتزال تُظْهرها هذه الشركاتُ في الولايات المتحدة وفي ألمانيا». وبعد أن تخلَّى عضوُ الكونغرس ريك لازيو عن اللياقات الدبلوماسيَّة، حَثَّ اللجنةَ بفظاظةٍ على «أن تركِّز على الشركات الألمانيَّة العاملة في القطاع الخاصّ، ولاسيَّما تلك العاملة في الولايات المتحدة»[1]. ولإثارة حمّى الهستيريا الجماعيَّة ضد ألمانيا، عمدتْ صناعةُ الهولوكوست في تشرين الأول/أكتوبر إلى شراء صفحاتٍ كاملةٍ متعدِّدةٍ من الجرائد لنشر إعلاناتها. فالحقيقة المروِّعة لم تَكْفِ في حدِّ ذاتها؛ ولذلك تمّ استحضارُ كلّ القضايا الهولوكوستيَّة الساخنة. وهكذا قام إعلانٌ يدين شركةَ «باير» الصيدليَّة بإقحام [الطبيب النازيّ] جوزيف منغل في المسألة، مع أنَّه ليس ثمَّة دليلٌ على الإطلاق يُثْبت أنَّ باير «أدارت» تجاربَ منغل القاتلة. وإذ أدرك الألمانُ أنَّ قوة الهولوكوست الماحقة لا تُمكن مقاومتُها، فقد استسلموا لتسويةٍ ماليَّةٍ ضخمة بحلول نهاية تلك السنة. وَعَزَتْ جريدةُ ذا تايمس اللندنيَّة هذا الاستسلامَ إلى الحملة «الهولو - ماليَّة» Holocash في الولايات المتحدة. وفي وقت لاحقٍ أَخْبر آيزنستات اللجنةَ المصرفيَّة في مجلس النواب الأميركيّ «أنَّنا لم نكن لنستطيعَ أن نصل إلى اتفاقٍ [مع الألمان] لولا التدخُّل

---

١ - جلسات لاستماع الشهادات أمام لجنة الخدمات المصرفيَّة والماليَّة، في مجلس النوّاب الأميركيّ، ١٤ أيلول/سبتمبر ١٩٩٩.

الشخصيُّ والقيادةُ الشخصيةُ للرئيس كلينتون... ومسؤولين آخرين رفيعي المستوى» في حكومة الولايات المتحدة[1].

ادّعتْ صناعةُ الهولوكوست أنّ على ألمانيا «واجبًا أخلاقيًا وقانونيًا» في تعويض عمّال السُّخرة اليهود السابقين. وترافَعَ آيزنستادت قائلاً: «إنّ عمّال السُّخرة هؤلاء يستحقُّون قَدْرًا قليلاً من العدالة في السنوات القليلة المتبقية من أعمارهم». ولكنّه ليس من الصحيح، كما ذَكَرْنا آنفًا، أنّ هؤلاء العمال لم يكونوا قد قَبَضوا أيَّ تعويض. فالاتفاقيّاتُ الأولى مع ألمانيا، والتي عُوِّض بموجبها نزلاءُ معسكرات الاعتقال، كانت قد غطّت أيضًا عمّالَ السُّخرة اليهود. وقد عوّضتِ الحكومةُ الألمانيّةُ عمّالَ السخرة اليهود السابقين بسبب «حرمانهم من الحريّة» و«بسبب الأذى الذي لَحِقَهم جَسَدًا وروحًا». وَحْدَها الأجورُ التي لم تكن قد دُفِعتْ [لعمّال السُّخرة] هي التي لم تُعَوَّض رسميًا. وتلقّى كلُّ مَنْ قاسى عاهاتٍ دائمةً تعويضًا تقاعديًا كبيرًا مدى الحياة[2]. وكانت ألمانيا

---

١ - يائير شيليغ Sheleg: «أجرُ أقلّ من الحدّ الأدنى نفسِه»، في **هاآرتز** (٦ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٩). ويليام دروزدياك Drozdiak: «الألمان يرفعون عرضَهم للعاملين بالسُّخرة عند النازيِّين»، في **واشنطن بوست** (١٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٩). بُرْت هِرْمان Herman: «المحادثات بصدد التسخير النازيّ تنتهي دون اتفاقية»، في **فوروارد** (٢٠ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٩). «صداعُ بايرِ الأكبرُ»، في جريدة **نيويورك تايمز** (٥ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٩). جان شينسكي Cienski: «إعلاناتُ الناجين من السخرة زمنَ الحرب تَرِدُ»، في **ناشيونال بوست** (٧ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٩). إدموند ل. أندروز Andrews: «الألمان لإنشاء صندوقٍ لعمّال السُّخرة عند النازيِّين بمبلغ ٥،١ بليون دولار»، في **نيويورك تايمز** (١٥ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٩). إدموند ل. أندروز: «ألمانيا توافق على اتفاق بمبلغ ٥،١ بليون دولار لإنهاء دعاوى عُمّال السُّخرة عند النازيِّين»، في **نيويورك تايمز** (١٨ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٩). آلان هال Hall: «قوائم السُّخرة تورد أسماءَ ٢٥٥ شركة ألمانيّة»، في **ذا تايمس** (لندن) (٩ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٩). جلسة لسماع الشهادات أمام لجنة الخدمات المصرفيّة والماليّة في مجلس النواب، ٩ شباط/فبراير ٢٠٠٠ (مقتَبَسٌ عن شهادة آيزنستات المعدّة).

٢ - ساغي: **التعويضات الألمانيّة**، ص ١٦١. ولعلّ رُبْع عمّال السُّخرة اليهود تلقّوا مثلَ ذلك التعويض، وكان أبي (وهو نزيلُ معسكر أوشفيتز) واحدًا منهم. والحقّ أنّ عدد عمّال السُّخرة اليهود الذين مازالوا على قيد الحياة يَسْتند، بحسب «مؤتمر المطالب» في المفاوضات الحاليّة، إلى أولئك الذين يتلقون أصلاً معاشاتٍ تقاعديّةً وتعويضاتٍ من ألمانيا! (البرلمان السويسريّ، في جلسته الثانية والتسعين، ١٥ آذار/مارس ٢٠٠٠).

قد منحتْ «مؤتمرَ المطالب اليهوديّة» أيضًا حوالى بليون دولار بالعملة الراهنة من أجل نزلاء المعسكرات اليهود السابقين الذين كانوا قد تلقوا تعويضاتٍ متدنيةً فقط. ولكنْ مؤتمر المطالب، على نحوِ ما أوضحنا سابقًا، انتَهَكَ الاتفاقَ مع المانيا، فاستَخْدم الأموالَ لمشروعاتٍ مختلفةٍ أثيرةٍ لديه. وقد برّرَ المؤتمرُ (إساءةَ) استخدام التعويضات الألمانيّة هذا بحجّة أنّ «حاجات ضحايا النازية 'المحرومين' كانت قد أُشبعتْ إلى حدٍّ كبيرٍ حتى قبل أن تتوافر الأموالُ من المانيا»[1]. ومع ذلك راحت صناعةُ الهولوكوست بعد ٥٠ سنة من هذه الحادثة تطالِبُ بالأموال من أجل «ضحايا الهولوكوست المحرومين» الذين كانوا يعيشون في الفقر لأنّ الألمان ـ كما زُعِمَ ـ لم يعوِّضوهم البتةَ!

ولكنْ ما تُراه يُشكِّل تعويضًا «عادلاً» لعمّال السُّخرة اليهود السابقين؟ ذلك هو، بصراحة، سؤالٌ لا تُمْكن الإجابةُ عنه. بَيْدَ أنّ المرء يُمْكن أن يقولَ ما يلي: وفقًا لشروط التسوية الجديدة مع المانيا، يُفترض أن يتلقّى كلُّ عامل سُخرةٍ يهوديٍّ سابقٍ حوالى ٧٥٠٠ دولار. فلو كان مؤتمرُ المطالب قد وزّع التعويضاتِ الألمانيّةَ الأولى توزيعًا عادلاً لكان عددٌ أكبرُ بكثير من عمّال السُّخرة اليهود السابقين قد تلقّوا مبالغَ أكبرَ بكثيرٍ وبوقتٍ أقلّ بكثير.

أما إذا كان «ضحايا الهولوكوست المحرومون» سيرَوْن يومًا ما شيئًا من الأموال الألمانيّة الجديدة، فذلك سؤال لم يُفصلْ فيه بعدُ. فمؤتمر المطالب يريد حصةً كبيرةً توضَعُ على حِدة وتُفْرَدُ لـ «الصندوق الخاصّ» التابع له. وبحسب **جيروزالم ريبروت** فإنّ أمام المؤتمر «الكثيرَ من الأرباح إذا ضَمِنَ ألاّ يتلقّى الناجون شيئًا». ووبّخَ عضوُ الكنيست الإسرائيليّ مايكل كلاينر (من حزب حيروت [اليمنيّ الصهيونيّ]) «مؤتمرَ المطالِب»، واصفًا إياه بـ «بمجلس عميل Judenrat* يواصِلُ أعمالَ النازيِّين بطرقٍ مختلفة». واتّهم المؤتمرَ بأنّه «هيئةٌ مخادعةٌ، تَعْمل في خفاءٍ مُحترِف، وموصومةٌ بالفساد الخلقيّ والعلنيّ البشع؛ إنّه هيئةٌ ظلاميّة تسيء معاملةَ اليهود الناجين من الهولوكوست وورثَتِهم، فيما هي تَجْلس على كومةٍ هائلةٍ من المال

---

١ ـ زفايغ: التعويضات الألمانيّة والعالم اليهوديّ، ص ٩٨؛ وراجعْ ص ٢٥.

* ـ Judenrat: كلمةٌ ألمانيّةٌ تشير إلى مجالس يهوديّة تعاملتْ مع النازيِّين أثناء الهولوكوست. (م)

الذي يَخُصّ أفرادًا ولكنّها تَجْهد في أن ترثَ المالَ في حياتهم!»[1]. وفي هذه الأثناء واصل أيزنستات، الذي كان يُدْلي بشهادته أمام اللّجنة المصرفيّة في مجلس النوّاب، إغداقَ الثناء على «العمليّة الشفّافة التي يقوم بها مؤتمرُ المطالب اليهوديّة الماديّة منذ نيِّفٍ وأربعين سنة».

غير أنّ الحاخام إسرائيل سينغر هو الذي تصدّر الكلبيِّين السافرين دون مُنازع. فبالإضافة إلى كونه سكرتيرًا عامًا للمؤتمر اليهوديّ العالميّ، كان أيضًا نائبَ رئيسِ مؤتمر المطالب اليهوديّة ورئيسَ المفاوضين في المحادثات مع ألمانيا بشأن عمّال السُّخرة اليهود. وهو قد كرّر، بتقوى [زائفة] أمام اللّجنة المصرفيّة في مجلس النوّاب الأميركيّ بعد التسويتَيْن السويسريّة والألمانيّة، أنّه سيكون أمرًا معيبًا إن دُفِعتْ أموالُ تعويضات الهولوكوست «للوَرَثةِ بدلاً من الناجين أنفسهم». وقال: «نحن لا نريد أن يُدفع ذلك المالُ للورثة. نريد أن يُدفَعَ ذلك المالُ للضحايا». ولكنّ جريدة هاارتز تورد أنّ سينغر هو المؤيِّدُ الرئيسيُّ لفكرة استخدام أموالِ تعويضات الهولوكوست «من أجل الوفاء بحاجات الشعب اليهوديّ بأكمله، فلا يُقْتصر على أولئك اليهود الذين حالفهم الحظُّ فنجَوْا من الهولوكوست وبلغوا مرحلةَ الشيخوخة!»[2].

في كتابٍ من منشورات متحف الهولوكوست التذكاريّ في الولايات المتحدة، رَسَمَ هنري فريدلاندرْ ـ المؤرِّخُ المحترمُ للحقبة النازيّة الهولوكوستيّة ونزيلُ معسكر أوشفيتز سابقًا ـ الصورةَ الرقميّةَ التالية عند انتهاء الحرب العالميّة الثانية:

---

١ ـ مؤتمر عن المطالب اليهوديّة من ألمانيا: «ورقةُ توصيةٍ ـ عُمّال السُّخرة، الصندوق المقترح للتذكُّر والمسؤوليّة» (١٥ حزيران/يونيو ١٩٩٩). نَتي غروس: «صفقة ٥،١ بليون دولار الخاصة بعُمّال السُّخرة قد لا تعطي أصحابَ الدعوى اليهودَ إلاّ القليل من المال»، في جيروزالم ريبورت (٣١ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٠). زفي لافي Lavi: «كلايْنر (من حيروت): مؤتمرُ المطالب في ألمانيا أصبح مجلسًا عميلاً، ويواصِل أعمالَ النازيِّين»، في غلوبز (٢٤ شباط/فبراير ٢٠٠٠). يانير شيليغ: «عضوُ الكنيست كلاينر: مؤتمر المطالب لا يحوِّل التعويضات إلى الناجين من الهولوكوست»، في هاارتز (٢٤ شباط/فبراير ٢٠٠٠).

٢ ـ جلسة لسماع الشهادات أمام لجنة الخدمات المصرفيّة والماليّة، في مجلس النواب الأميركيّ، ٩ شباط/فبراير ٢٠٠٠. يانير شيليغ: «تثبيتُ حقٍّ في المطالب اليهوديّة»، في هاارتز (٣١ آذار/مارس ٢٠٠٠).

«إذا كان هناك حوالى ٧١٥ ألف سجين في المعسكرات عند بداية عام ١٩٤٥، وثلثُ هؤلاء على الأقلّ - أيْ حوالى ٢٣٨ ألفًا - قَضَوْا أثناء ربيع ١٩٤٥، فباستطاعتنا أن نفترض أنّ ٤٧٥ ألف سجين على الأكثر قد نَجَوا. فلما كان اليهودُ يُقْتلون بشكل منهجيّ، ووحدَهم الذين اختيروا للسُّخرة - حوالى ١٥٪ من معسكر أوشڤيتز - كان لديهم وإنْ حظٌّ واحدٌ من النجاة، فعلينا أن نَفْترض أنَّ اليهود لم يشكّلوا أكثر من ٢٠٪ من نزلاء معسكرات الاعتقال».

وخلص فريدلاندرْ إلى أنّ «بإمكاننا إذنْ أن نقدِّر عددَ الناجين اليهود بما لا يتجاوز المئةَ ألف». وبالمناسبة، فإنَّ الرقم الذي أَدْلى به فريدلاندرْ للناجين اليهود من معسكرات السُّخرة عند نهاية الحرب العالميّة الثانية مرتفعٌ بالنسبة إلى أرقام الباحثين الآخرين. فلانِرْد دينرشتايْن أورد في بحثٍ موثوقٍ أنَّ «ستين ألف يهوديّ... خَرَجوا من معسكرات الاعتقال سالمين؛ وخلال أسبوع واحدٍ مات أكثرُ من ٢٠ ألفًا منهم»[١].

وفي موجزٍ صَدَرَ عن وزارة الخارجيّة الأميركيّة في أيار/مايو ١٩٩٩، قَدَّرَ ستيوارت آيزنستات عددَ عمال السُّخرة الإجماليّ، الذين مازالوا أحياءً، يهودًا وغيْرَ يهود، «بما بين ٧٠ و ٩٠ ألفًا ربّما»، مُقْتبِسًا الرقمَ الذي قدمتْه «مجموعاتٌ تمثِّل أولئك العمّالَ»[٢]. وكان آيزنستات مبعوثَ الولايات المتحدة الرئيسيّ إلى المفاوضات

---

١ - هنري فريدلاندرْ: «الظلام والفجْر في عام ١٩٤٥: النازيُّون والحلفاء والناجون»، في كتاب متحف الهولوكوست التذكاريّ في الولايات المتحدة، ١٩٤٥ - عام التحرير (واشنطن، ١٩٩٥)، ص ١١ - ٣٥. دينرشتايْن: اميركا والناجون من الهولوكوست، ص ٢٨. ويورد المؤرِّخ الإسرائيليُّ شلومو شافير أنّ «أعداد الناجين اليهود عند نهاية الحرب الثانية في أوروبا تُراوِح بين ٥٠ ألفًا و٧٠ ألفًا» (علاقات غامضة، ص ٣٨، هامش ١). ولكنَّ الرقم الإجماليّ الذي أَدْلى به فريدلاندرْ لعمّال السُّخرة الناجين، يهودًا وغيرَ يهود، هو الرقم المألوف؛ أنظرْ: بنجامين فَرَنْز Ferencz: اقلُّ من عبيد (كامبريدج، ١٩٧٩) حيث يقول: «حوالى نصف مليون شخص وُجدوا أحياء، إلى هذا الحد أو ذاك، في المعسكرات التي حرَرتْها جيوشُ الحلفاء» (ص xvii؛ وراجعْ ص ٢٤٠، هامش ٥).

٢ - ستيوارت آيزنستات، وكيلُ وزير شؤون الاقتصاد والزراعة والأعمال، مبعوثُ الولايات المتحدة الرئيسيّ إلى المفاوضات مع ألمانيا بشأن عمال السُّخرة: «موجز وزارة الخارجيّة»، ١٢ أيار/مايو ١٩٩٩.

مع ألمانيا بشأن عمّال السُّخرة، وكان وثيقَ الصلّة بمؤتمر المطالب اليهوديّة[1]. وهذا يُخَفِّض عددَ عمال السُّخرة اليهود الذين مازالوا أحياء إلى ما بين ١٤ ألفًا و١٨ ألفًا (أيْ ٢٠٪ من الـ ٧٠ ـ ٩٠ ألفًا). ومع ذلك طالبتْ صناعةُ الهولوكوست، ما إنْ دخلتِ المفاوضاتِ مع ألمانيا، بتعويضاتٍ تُقدَّم إلى ١٣٥ ألف عاملِ سُخرةٍ يهوديٍّ سابق مازالوا أحياء. وقدَّرتْ صناعةُ الهولوكوست العددَ الإجماليَّ لعمال السُّخرة السابقين الذين مازالوا أحياء، يهودًا وغيرَ يهود، بـ ٢٥٠ ألفًا[2]. وبكلمات أخرى، فإنَّ عددَ عُمال السُّخرة اليهود السابقين الذين مازالوا أحياء قد زاد منذ أيار/مايو ١٩٩٩ عشرةَ أضعاف تقريبًا [!]، وتغيّرتْ بشكلٍ حادٍّ النسبةُ بين عُمّال السُّخرة الأحياء اليهود وعمّالِ السخرة الأحياء من غير اليهود. والحقّ أنّنا إذا صدّقْنا صناعةَ الهولوكوست وَجَبَ أن يفوق عددُ عمالِ السُّخرةِ اليهود السابقين الأحياء ما كان عليه قبل نصف قرن. ويَحْضرني في هذا السياق ما كتبه والتر سكوت ذاتَ يوم: «أيُّ نسيجٍ متشابكٍ نَخيطه إنْ بدانا بممارسة الكذب!».

وفي الوقت الذي كانت فيه صناعةُ الهولوكوست تتلاعب بالأرقام لتَرْفع من مطالبها التعويضيّة، كان المعادون للسامية يهزأون طَرَبًا بـ «اليهود الكذّابين» الذين بَلَغَ بهم الأمرُ أنْ جَعَلوا «يتاجرون» بموتاهم. لقد كانت صناعةُ الهولوكوست، بتلاعبها بهذه الأرقام، تبيِّض صفحةَ النازيةَ، بصرف النظر عن عدم تعمُّدها هذا الأمرَ. فراوول هيلبرغ، وهو المصدرُ الثقةُ الأوّل في الهولوكوست النازيّة، يقدِّر عددَ اليهود المقتولين بـ ١،٥ مليون يهوديّ[3]. ولكنْ إذا كان ثمّة ١٣٥ ألف عامل سخرة يهوديّ سابقٍ مازال حيًا إلى اليوم فينبغي أن يكون هناك حوالى ٦٠٠ ألف نَجَوْا من الحرب. وهذا الرقم يزيد نصفَ مليونٍ على الأقلّ عن التقديرات المألوفة. ويجب إذّاك أن نَطْرحَ نصفَ المليون هذا من الرقم ١،٥ مليون (عدد اليهود الذين قُتِلوا). وفي

---

١ ـ انظرْ «ملاحظات أيزنستات» في الاجتماع السنويّ لـ «مؤتمر المطالب اليهوديّة الماديّة من ألمانيا والنمسا» (نيويورك، ١٤ تموز/يوليو ١٩٩٩).

٢ ـ توبي أكسِلْرود Axelrod: «صفقة الـ ١،٥ بليون دولار الناجمة عن [مفاوضات] عُمّال السُّخرة هي البداية فقط»، في جوويش بُوليتِنْ (١٢ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٩؛ بالاقتباس عن جوويش تلغرافيك ايجنْسي).

٣ ـ هيلبرغ: تدمير اليهود الأوروبيِّين، ١٩٨٥، المجلد الثالث، الملحق B .

هذه الحال لا يغدو أكثرَ استحالةً الدفاعُ عن رقم «٦ مليون» فحسب*، بل تقترب أيضًا الأرقامُ التي تُقدّمها صناعةُ الهولوكوست بسرعةٍ من الأرقام التي يقدِّمها أولئك الذين يَنْفُون حصولَ الهولوكوست أصلاً. تأملْ أنّ القائد النازيّ هاينرِشْ هِمْلِرْ قد قدّر العددَ الإجماليّ للموجودين في معسكرات الاعتقال في كانون الثاني/يناير ١٩٤٥ بما يزيد قليلاً عن ٧٠٠ الف، وأنّ ثُلُثَ هذا العدد تقريبًا (بحسب فريدلانْدِرْ) كان قد قُتِلَ بحلول أيار من ذلك العام. ولكنْ إذا كان اليهودُ يشكّلون ٢٠٪ فقط من عدد الناجين من معسكرات الاعتقال، وإذا كان ٦٠٠ الف سجين يهوديّ (كما تقترح ضمنًا صناعةُ الهولوكوست) نَجَوْا من الحرب، فإنّ ٣ ملايين سجين لا بدّ أن يكونوا قد نَجَوْا. وهكذا تكون صناعةُ الهولوكوست قد اعترفتْ بأنّ أوضاع معسكرات الاعتقال لم تكن قاسيةً على الإطلاق؛ بل يجب أن يَفْترض المرءُ وجودَ معدل خصوبةٍ عاليةٍ جدًا ومعدلِ موتٍ منخفضٍ جدًا![1].

الزعم المألوف هو أنّ الحلّ النهائيّ [الهولوكوست] قد كان إبادةً صناعيّةً فريدةً في فعّاليّتها وتَستَخدم نظام التجميع**[2]. ولكنْ إذا كان عدّةُ مئات من الألوف

* ـ معلوم أنّ صناعة الهولوكوست تقدِّر عددَ قتلى المحارق اليهوديّة بستة ملايين. (م)

١ ـ في مقابلةٍ اجرتْها معي جريدةُ دي برْلينِرْ تزايتُنغ رَميتُ بظلالٍ من الشك على الرقم ١٣٥،٠٠٠ الذي قدّمه مؤتمرُ المطالب، مقتبِسًا كلامَ فريدلاندر. ولكنّ مؤتمر المطالب ذَكَرَ في ردِّه المقتضبِ أنّ رقم ١٣٥،٠٠٠ «استَنَدَ إلى افضل المصادر واكثرها مدعاةً للثقة، وهو لذلك رقمٌ صحيح». غير أنّ أيًا من هذه المصادر المزعومة لم يُذكر. (راجعْ: «استغلال المعاناة اليهوديّة»، في الجريدة المذكورة، ٢٩ ـ ٣٠ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٠، و«مقاربة أخرى لمؤتمر المطالب اليهوديّة»، في الجريدة نفسها، ١ شباط/فبراير ٢٠٠٠). وردًا على انتقاداتي أكّد مؤتمرُ المطالب في مقابلة مع دير تاغِشْبِيغِلْ، أنّ حوالى ٧٠٠ الف عامل سُخرة يهوديّ نَجَوْا من الحرب، موزَّعين ما بين ٣٥٠،٠٠٠ إلى ٤٠٠،٠٠٠ على ارض الرايخ و٣٠٠،٠٠٠ في معسكرات اعتقال في اماكن اخرى. ولكنّ حين أُلِحَّ على مؤتمر المطالب ان يقدّم مصادره الاكاديميّة، رَفَضَ ساخطًا. ويكفي القول إنّ هذه الأرقام لا تُشْبه ابدًا أيّ رقمٍ أدْلى به أيُّ بحثٍ اكاديميّ معروفٍ في هذا الموضوع. (ايڤا شڤايتزِرْ: «تعويضات عمّال العملِ الإجباريّ»، في تاغِشْبِيغِلْ، ٦ اذار/مارس ٢٠٠٠).

** ـ Assembly-line: نظامٌ يُصنِّعُ السلعةَ بشكلٍ فعّالٍ ميكانيكيٍّ خاطف. (م)

٢ ـ «لم يَحْدث في التاريخ من قبلُ»، على حدّ ملاحظة هيلبرغ، «أن قُتِل الناسُ على أساس نظام تجميع» (تدمير اليهود الاوروبيّين، المجلد iii، ص ٨٦٣). والمعالجة الكلاسيكيّة لهذا الموضوع هي التي قام بها زيغمونت بومان Bauman في الحداثة والهولوكوست.

من اليهود قد نَجَوا، على نحوٍ ما توحي بذلك صناعةُ الهولوكوست، فذلك يعني أنَّ الحلّ النهائيّ [الهولوكوست] في نهاية المطاف ما كان ممكنًا أن يكون شديدَ الفعّالية، وأنّه لا بدّ أنّه قد كان أمرًا اتفاقيًا [غيرَ مخطَّطٍ له]. وهذا هو تمامًا ما يحاول أن يبرهنه الذين يَنْفُون حدوثَ الهولوكوست. إنَّ النقيضيْن يتلاقيان Les extrêmes se touchent!

لقد شَدَّد راوول هيلبرغ، في مقابلةٍ أُجريتْ معه أخيرًا، على أنَّ الأرقام تهمّ فعلاً في فهم الهولوكوست النازيّة. والحقّ أنَّ الأرقامَ المعدَّلة التي أدلى بها «مؤتمرُ المطالب» تستدعي استدعاءً جذريًا التشكيكَ في فهم «المؤتمر» للهولوكوست النازيّة. فـ «ورقة التوصية» التي أصدرها مؤتمرُ المطالب في مفاوضاته مع ألمانيا بخصوص السُّخرة تَذْكر أنَّ:

«السخرة كانت واحدةً من وسائل ثلاثٍ رئيسيّة استخدمها النازيُّون لقتل اليهود، وأمّا الوسيلتان الأُخريان فهما إطلاقُ النار عليهم وتسميمُهم [بأفران] الغاز. وكان أحدُ أهداف السُّخرة هو دفع الأفراد إلى العمل حتى الموت... إنَّ مصطلح 'عبد' ليس بالكلمة الدقيقة في هذا السياق. فأسيادُ العبيد، عامةً، لهم مصلحةٌ في الحفاظ على حياة عبيدهم وعلى أوضاعهم. وأما الخطّة النازيّة لـ 'العبيد' فكانت تقضي باستخدام إمكانيّات عملهم، وبعد ذلك كان على هؤلاء 'العبيد' أن يبادوا».

وباستثناء مُنْكِري الهولوكوست، لم يعارِض أحدٌ حتى الآن فكرةَ أنّ النازيّة أَسْلمت عمّالَ السُّخرة لهذه المصير الراعب. ولكنْ كيف يستطيع المرءُ أن يوفّق بين هذه الحقائق الثابتة، والزعم أنَّ عدةَ مئاتٍ من الألوف من عمّال السُّخرة اليهود نَجَوا من المعسكرات؟ ألم يَخْرقْ مؤتمرُ المطالب الجدارَ الفاصلَ بين الحقيقة المروِّعة عن الهولوكوست النازيّة، وإنكارِ وقوعِ هذه الهولوكوست؟[1].

في إعلانٍ على صفحة كاملة في جريدة نيويورك تايمز، قام نجومٌ من صناعة الهولوكوست ـ أمثالُ إيلي ڤيزل، والحاخام مارڤِنْ هير، وستيڤن ت. كاتز ـ

١ ـ غوتنبلان: «محاكمة الهولوكوست» (لكلام هيلبرغ). مؤتمر المطالب اليهوديّة الماديّة من ألمانيا: «ورقة توصية ـ قضية السُّخرة»، ١٥ حزيران/يونيو ١٩٩٩.

بإدانة «إنكار سوريا للهولوكوست». وشَجَبَ نصُّ الإعلان افتتاحيةً في إحدى الجرائد الرسميّة السوريّة زعمتْ أنّ إسرائيل «تَخْتلق قصصًا عن الهولوكوست» من أجل «كسب المزيدِ من الأموال من المانيا ومن مؤسساتٍ غربيّة أخرى». ومن أسفٍ أنّ الاتهامَ السوريَّ صحيح. ومع ذلك فإنّ المفارقة اللاذعة، التي غابتْ عن الحكومة السوريّة وعن الموقّعين على ذلك الإعلان أيضًا، أنّ تلك القصص التي تتحدّث عن مئات آلاف الناجين تُشكّل في حدّ ذاتها شكلاً من أشكال إنكار الهولوكوست[1].

* * *

كان ابتزازُ سويسرا وألمانيا مقدِّمةً فحسبُ للنهاية المهيبة : وهي ابتزازُ أوروبا الشرقيّة. فمع انهيار الكتلة السوفياتيّة انفتحتْ آفاقٌ مُغْريةٌ في ما كان سابقًا القلبَ النابضَ لليهود الأوروبيِّين. هنا لبستْ صناعةُ الهولوكوست عباءةً من النفاق اسمُها «ضحايا الهولوكوست المحرومون»، وسعت إلى انتزاع بلايينِ الدولارات من دول أوروبا الشرقيّة التي كانت تعاني الفقرَ الشديدَ أصلاً. وإذ راحت صناعةُ الهولوكوست تتعقّب هدفَها بحماسٍ متهوِّرٍ لا يَرْحم، فقد أصبحتْ هي المهيِّجةَ الأساسيةَ لنزعة العداء للسامية في أوروبا!.

---

١ ـ «ندين إنكارَ سوريا للهولوكوست»، في نيويورك تايمز (٩ شباط/فبراير ٢٠٠٠). ومن أجل توثيق «العداء المتزايد للسامية» في أوروبا، أشار دايڤيد هاريس من «اللجنة المعادية للتشهير» إلى دعم قويّ نسبيًا جاء في أحد المُسُوح لفكرةٍ تقول إنّ «اليهود يستغلّون ذكرى الإبادة النازيّة لليهود من أجل أهدافهم الخاصّة». وتحدّث هاريس أيضًا عن «الطريقة البالغة السلبيّة التي أوردتْ بها بعضُ الجرائد الألمانيّة أخبارَ مؤتمر المطالب اليهوديّة... أثناء المفاوضات الأخيرة بشأن تعويض عمّال معسكرات السُّخرة ومعسكرات العمل الإجباريّ. فلقد اتّهمتْ تقاريرُ كثيرةٌ مؤتمرَ المطالب نفسَه، والمحامين الذين غالبيتُهم من اليهود، بالطمع وخدمةِ الذات. ونشأتْ عن هذه التقارير مناقشةٌ غريبةٌ عجيبةٌ في الجرائد التقليديّة ما إذا كان هناك حقًّا ناجون يهودٌ بالأعداد التي ذَكَرَها مؤتمرُ المطالب». (جلسة لسماع الشهادات أمام لجنة العلاقات الخارجية، في مجلس الشيوخ الأميركيّ، ٥ نيسان/أبريل ٢٠٠٠). والحقّ أنّني وجدتُ أنّ إثارة هذا الأمر في ألمانيا أمرٌ يكاد يكون مستحيلاً. فمع أنّ التابو [المحرّم] كُسِرَ في النهاية بفضل الجريدة الليبراليّة الألمانيّة دي برلينر تزايتُنْغ، فإنّ الشجاعة التي أظهرها رئيسُ تحريرها مارتن سوسكيند Sueskind والمراسلُ الأميركيُّ ستيفان ألْبِنْبَائِن لم تجد إلاّ صدًى خافتًا في وسائل الإعلام الألمانيّة. ويعود ذلك، بشكلٍ رئيسيّ، إلى التهديدات القانونيّة والابتزاز الأخلاقيّ التي مارسها مؤتمرُ المطالب اليهوديّة، وإلى التردُّد الألمانيّ عامةً في نقد اليهود علنًا.

لقد قدّمتْ صناعةُ الهولوكوست نفسَها بوصفها المُطالِبَ الشرعيَّ الوحيد بكل الأرصدة، الجماعيةِ والفرديّةِ، لِمَنْ قَضَى أثناء الهولوكوست النازيّة. وأخْبر إدغار برونفمان اللجنةَ المصرفيّةَ في مجلس النوّاب الأميركيَّ أنّه «تمَّ الاتفاقُ مع حكومة إسرائيل على وجوب ضمّ الأرصدة التي لا ورثةَ لها إلى [صندوق] المنظمةِ اليهوديةِ العالميّةِ لاستعادة الأملاك». واستخدمتْ صناعةُ الهولوكوست هذا «التفويضَ»، فطالبتْ دولَ الكتلة السوفياتيّة السابقة بتسليمها كلَّ الأملاك اليهوديّة في فترةٍ ما قبل الحرب العالميّة الثانية، أو بتأمينِ تعويضاتٍ ماليّةٍ عنها[1]. ولكنّها قامت بتلك المطالبة بعيدًا عن وَهَج الإعلام، خلافًا لما سَبَقَ أن فعلتْه مع سويسرا وألمانيا. صحيح أنَّ الرأي العامَّ لم يَنْفر إلى الآن من ابتزاز تلك الصناعة لأصحاب المصارف السويسريّة ولأصحابِ المصانع الألمانيّة، ولكنّه قد يَنْظر نظرةً أقلَّ عطفًا إلى ابتزازها الفلاّحين البولنديّين الذين يتضوّرون جوعًا. بل قد يَنْظر اليهودُ الذين فَقَدوا أفرادًا من عائلتهم أثناء الهولوكوست النازيّة نظرةً عدائيّةً، هم أيضًا، إلى مكائد «المنظمة اليهوديّة العالميّة لاستعادة الأملاك». فزَعْمُ هذه المنظمة أنّها هي الوريث الشرعيَّ للموتى لكي تستولي على أموالهم، يُمْكن بسهولةٍ حسبانُه نَبْشًا للقبور. ولكنْ من جهة أخرى لا تحتاج صناعةُ الهولوكوست إلى رأيٍ عامٍّ معبّأٍ، لأنّها تستطيع ـ بمساعدة موظّفين أساسيّين في الولايات المتحدة الأميركيّة ـ أن تكْسرَ بسهولةٍ المقاومةَ الضعيفةَ التي تقوم بها دولٌ مُنْهَكَةٌ [مبطوحةٌ] أصلاً.

«من المهمَ أن نُقِرَّ بأنَّ جهودَنا من أجل استعادة الأملاك الجماعيّة»، على نحو ما أَخْبَرَ ستيوارت ايزنستات لجنةً نيابيّةً أميركيّةً، «هي جزءٌ لا يتجزأ من إعادة خَلْقِ الحياة اليهوديّة وتجديدِها» في أوروبا الشرقيّة. وبزعم «تعزيزِ إحياءِ» الحياة اليهوديّة في بولندا، تطالِبُ «المنظمةُ اليهوديّةُ العالميّةُ لاستعادة الأملاك» بحقّها في

---

١ ـ جلسة لسماع الشهادات أمام لجنة الخدمات المصرفيّة والماليّة، في مجلس النوّاب الأميركيّ، ١١ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٦. ج.د. بيندِناغِلْ Bindenagel (محرِّرًا): محاضر الجلسات: مؤتمر واشنطن عن الأرصدة في حقبة الهولوكوست: ٣٠ تشرين الثاني/نوفمبر ـ ٣ ديسمبر/كانون الأول ١٩٩٦ (المكتب الطباعيّ في حكومة الولايات المتحدة، واشنطن دي سي)، ص ٦٨٧، ٧٠٠ ـ ٧٠١، ٧٠٦.

امتلاك ٦٠٠٠ مِلْكٍ جماعيٍّ يهوديّ من فترة ما قبل الحرب العالميّة الثانية، بما في ذلك أملاكٌ تُستخدم حاليًا مدارسَ ومستشفيات!. لقد كان سكّانُ بولندا اليهودُ قبل الحرب العالميّة الثانية يُقَدَّرون بثلاثة ملايين ونصف المليون، وسكّان بولندا اليهودُ الحاليُّون يُقَدَّرون ببضع آلاف، فهل إحياءُ الحياة اليهوديّة يتطلّب حقًا كنيسًا واحدًا أو مدرسةً واحدةً لكلّ يهوديٍّ بولنديّ؟!. كما أنّ «المنظّمة» المذكورة تطالب بحقّها في امتلاك مئات آلاف القطع من الأراضي البولنديّة التي تُقَدَّر قيمتُها بعشرات البلايين من الدولارات. وتورِد مجلة جوويش وِيك أنّ «المسؤولين البولنديِّين» يخشون أن يؤدِّي ذلك الطلبُ «إلى إفلاس البلاد». وحين اقترح البرلمانُ البولنديُّ حدودًا للتعويضات تجنُّبًا للوقوع في الإفلاس، دان إلان ستاينبرغ من المؤتمر العالميّ اليهوديّ هذا الاقتراحَ معتبرًا إياه «عملاً معاديًا للأميركيِّين أساسًا»[١].

ولشدّ الخناق على بولندا أقام محامو صناعة الهولوكوست دعوى جماعيّةً في محكمة القاضي كورمان تَهْدف إلى تعويض «الناجين من الهولوكوست الشائخين والمائتينَ». وزعمت الدعوى أنّ الحكومات البولنديّة منذ الحرب العالميّة الثانية «واصلتْ خلال السنوات الأربع والخمسين الأخيرة» سياسةً إباديّةً ضدّ اليهود «من الطرد إلى الإفناء». وهنا قَفَزَ أعضاءُ مجلس مدينة نيويورك إلى الصورة، فأصدروا قرارًا بالإجماع يطالب بولندا «بإقرار قانونٍ شاملٍ بالتعويض الكامل عن أرصدة الهولوكوست»، في حين بعث ٥٧ عضوًا من الكونغرس (برئاسة عضو الكونغرس أنتوني وايْنرْ نائب نيويورك) برسالةٍ إلى البرلمان البولنديّ تُطالبه بسنّ «قانونٍ شاملٍ يعيد ١٠٠٪ من كلّ الأملاك والأرصدة المصادَرة أثناء الهولوكوست». وجاء في

---

١ - جلسة لسماع الشهادات أمام لجنة العلاقات الدوليّة في مجلس النواب الأميركي، ٦ آب/أغسطس ١٩٩٨. بيندِناغل: مؤتمر واشنطن عن الأرصدة في حقبة الهولوكوست، ص ٤٣٣. جوان غراليا Gralia: «بولندا تسعى إلى صرف النظر عن دعوى الهولوكوست»، في رويترز (٢٣ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٩). اريك. ج. غرينبرغ: «خطة استعادة الأملاك البولنديّة تُضْرَب»، في جوويش ويك (١٤ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٠). «بولندا تضع حدودًا للخطة التعويضيّة [عن أملاك] الحرب العالميّة الثانية»، في نيوزداي (٦ كانون الأول/يناير ٢٠٠٠).

الرسالة: «لمّا كان النّاسُ المعنيّون بهذا الموضوع يَشيخون يومًا بعد يوم، فإنّ الوقت يكاد أن يَنْفد قبل أن يُعوَّض المظلومون»[1].

وقد رثى ستيورات أيزنستات، في شهادته أمام اللّجنة المصرفيّة في مجلس الشيوخ، السَّيرَ الليّنَ لعمليات استرداد الأملاك في أوروبا الشرقيّة، قائلاً: «لقد نشأتْ تشكيلةٌ من المشكلات عند استرجاع الأملاك. فمثلاً في بعض البلدان حين حاول أشخاصٌ أو جالياتٌ استردادَ أملاكهم طُلِبَ منهم، وأحيانًا أُلزموا،... السماح لمستأجري هذه الأملاك الحاليِّين بالبقاء فترةً طويلةً من الزمن لقاء إيجاراتٍ محدودةِ السقف تعيِّنها الحكومة»[2]. وقد أَقْلق أيزنستات «تقصيرُ» بيلاروس بنوعٍ خاصٍّ، فأَخْبر «لجنةَ العلاقات الدوليّة» في مجلس النواب الأميركيّ أنّ بيلاروس «متأخرةٌ جدًا، جدًا» في تسليم الأملاك اليهوديّة من حقبةِ ما قبل الحرب العالميّة الثانية[3]. وللإشارة، فإنّ معدّل دَخْل الفرد البيلاروسيّ في الشهر هو: ١٠٠ دولار!

---

١ - ثيو غارب وغيره ضد جمهوريّة بولندا (محكمة مقاطعيّة في الولايات المتحدة، المقاطعة الشرقيّة لنيويورك، ١٨ حزيران/يونيو ١٩٩٩). (وقد قام بالدعوى الجماعيّة كلٌّ من إدوارد إي. كلاين ومَلْ أوربَاخ، وهذا الأخير محاربٌ قديمٌ في التسويتين السويسريّة والالمانيّة. وثمّة «شكوى معدّلة» في ٢ اذار/مارس ٢٠٠٠ انضمّ إليها عددٌ كبيرٌ اخر من المحامين، ولكنّها تُسْقط اتهاماتٍ أكثر إثارةً ضدّ الحكومات البولنديّة بعد الحرب العالميّة الثانية). «'دير' يَقُود مجلسَ مدينة نيويورك في دعوة الحكومة البولنديّة إلى تعويض ضحايا الهولوكوست عن مصادرة أملاكهم»، في اخبار من عضو المجلس نواخ دير (٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٩). (الاقتباسُ النصيّ هو من القرار الفعليّ رقم ١٠٧٢، الذي تُبنِّي في ٢٣ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٩). «[انتوني د.] واينرْ يحثّ الحكومةَ البولنديّة على إعادة مطالب الهولوكوست»، مجلس النواب الأميركيّ (بيان صحفيّ، ١٤ تشرين الاول/اكتوبر ١٩٩٩). (الاقتباسات النصيّة هي من المؤتمر الصحفيّ ومن الرسالة نفسها، والتاريخ هو ١٣ تشرين الاول/اكتوبر ١٩٩٩).

٢ - جلسة لسماع الشهادات أمام لجنة الشؤون المصرفيّة والإسكانيّة والمدينيّة، في مجلس الشيوخ الأميركيّ ٢٣ نيسان/ابريل ١٩٩٦.

٣ - جلسة لسماع الشهادات أمام لجنة العلاقات الدوليّة، في مجلس النواب الأميركيّ، ٦ اب/اغسطس ١٩٩٨.

ولإجبار الحكومات المتمرِّدة على الخضوع، استَخْدمتْ صناعةُ الهولوكوست هراوةَ العقوبات الاقتصاديّة الأميركيّة. فحثّ آيزنستات الكونغرسَ على «الرفع [من شأن]» تعويضات الهولوكوست، وَوَضْعِها على «رأس قائمة» الشروط المطلوبة من دول أوروبا الشرقيّة الساعية إلى دخول «منظمة التعاون والتنمية الاقتصاديّة» و«منظمةِ التجارة العالميّة» و«الاتحادِ الأوروبيّ» وحلفِ «الناتو» و«مجلس أوروبا»، فقال: «سوف يستمعون إذا تكلمتم... واللبيبُ من الإشارة يَفْهَمُ!». وناشد إسرائيل سينغر من المؤتمرِ اليهوديِّ العالميِّ الكونغرسَ «أن يواصِلَ النظرَ إلى لائحة التسوُّق shopping list» بهدف «التأكُّد» من أنّ كلَّ بلدٍ قد دَفَعَ كلَّ ما يتوجَّب عليه. وقال عضوُ الكونغرس بنجامين غيلمان، من لجنة العلاقات الدوليّة في مجلس النوّاب الأميركيّ، «إنّه لأمرٌ بالغُ الأهميّة أن تَفْهم الدولُ المشتركةُ في هذه القضية أنّ جوابها... هو واحد من المقاييس المتعدِّدة التي ستقوِّم الولاياتُ المتحدةُ بموجبها علاقاتِها الثنائيّةَ». وأمّا أفراهام هيرشسون Hirschson، وهو رئيسُ «لجنة استعادة الأملاك» في الكنيست الإسرائيليّ وممثِّلُ إسرائيل إلى «المنظمة اليهوديّة العالميّة لاستعادة الأملاك»، فقد حيّا اشتراكَ الكونغرس في [مؤامرة] الابتزاز. فشَهِدَ، أثناءَ تذكّره لـ «معاركه» مع رئيس الوزراء الرومانيّ، بما يلي: «طلبتُ تعليقًا واحدًا، في معمعان المعركة، فغيَّرَ [ذلك التعليقُ] الجوّ. فقد سألتُه: أنت تَعْلم أنني خلال يومَيْن سأكون في جلسةٍ لسماع الشهادات هنا في الكونغرس. فماذا تريدني أن أُخبرَهم في الجلسة؟ وإذّاك تغيّر الجوُّ برمّته». لقد خَلَقَ المؤتمرُ اليهوديُّ العالميُّ «صناعةَ هولوكوستٍ كاملةً»؛ هذا ما حَذّر منه أحدُ محامي الناجين، مُضيفًا أنّ المؤتمر «مسؤولٌ عن ترويجِ انبعاثٍ بشعٍ جدًا لنزعة العداءِ للسامية في أوروبا!»[1].

ولاحَظَ آيزنستات بحقّ، في أنشودةِ نصرٍ ترنّمَ بها أمام الكونغرس، أنّه «لولا الولاياتُ المتحدةُ الأميركيّةُ لكان عددٌ قليلٌ جدًا من هذه النشاطات مستمرًا اليوم، أو لكان انعَدَمَ هذا النشاطُ تمامًا». ولكي يبرِّر الضغوطَ التي مورستْ على أوروبا

١ ـ جلسة لسماع الشهادات أمام لجنة العلاقات الدوليّة، في مجلس النوّاب الأميركيّ، ٦ آب/اغسطس ١٩٩٨. ايزابيل فِنْسنت: «مَنْ سيَحْصد تعويضات الحقبة النازيّة؟»، في ناشيونال پوست (٢٠ شباط/فبراير، ١٩٩٩).

الشرقيّة شرَحَ أنَّ سمةً أساسيّةً من سِمات الأخلاق الغربيّة هي «إعادةُ الأملاك الجمعيّة والخاصّة التي صودرتْ، ظُلمًا وعدوانًا، إلى أصحابها، أو تعويضُهم عنها». وهو يَرى أنَّ وفاءَ «الديموقراطيّات الجديدة» في أوروبا الشرقيّة بهذا المعيار «سيتناسب مع تحوُّلِها من التوتاليتاريّة إلى الدول الديموقراطيّة». يُشار هنا إلى أنَّ أيزنستات موظَّفٌ كبيرٌ في الحكومة الأميركيّة، ومناصِرٌ بارزٌ لإسرائيل. ولكنْ بالنظر إلى مطالب السكّان الأصلانيِّين الأميركيِّين [«الهنود الحمر»] ومطالب الفلسطينيِّين، فإنَّ الولايات المتحدة وإسرائيل لم تقوما بعد بذلك التحوُّل[1].

في شهادةٍ أمام مجلس النواب استَحْضَرَ هيرشسون المنظرَ الكئيبَ لِـ «ضحايا الهولوكوست المحرومين» الهَرِمين القادِمين من بولندا «إليّ، إلى مكتبي في الكنيست كلَّ يوم، يَستجدون إعادةَ ما يخصّهم... إعادةَ البيوت التي خلّفوها، وإعادةَ المخازن التي خلّفوها». وفي هذه الأثناء كانت صناعةُ الهولوكوست تَشُنّ حربًا على جبهةٍ ثانية. فبعد أن أنكرتِ الجالياتُ اليهوديّةُ المحليّةُ في أوروبا الشرقيّة التفويضَ الكاذبَ «للمنظمة اليهوديّة العالميّة لاستعادة الأملاك»، راحت هي الآن تُطالب بملْكيّتها للأرصدة اليهوديّة التي لا وَرَثَة لها. ولكنْ لكي يستفيد اليهوديُّ من مثل هذه المطالبة فإنَّ عليه أولاً أن يَلْتزم رسميًا [بمنظمات] الجالية اليهوديّة المحليّة. وهكذا يَحْدث «انبعاثُ الحياة اليهوديّة» المأمولُ، إذ يَسْتغلّ اليهودُ الأوروبيُّون الشرقيُّون جذورَهم المكتَشَفةَ حديثًا ليحوّلوها حصّةً لهم من غنيمة الهولوكوست![2].

---

١ ـ جلسة لسماع الشهادات أمام لجنة العلاقات الدوليّة، في مجلس النواب الأميركيّ، ٦ آب/أغسطس ١٩٩٨. وايزنستات، الذي هو حاليًا نائبُ رئيسٍ فخريٌّ لـ «اللجنة الأميركيّة اليهوديّة»، قد كان الرئيسَ الأوّلَ «لمركز العلاقات اليهوديّة الأميركيّة ـ الإسرائيليّة» التابع للمؤتمر اليهوديّ العالميّ.

٢ ـ جلسة لسماع الشهادات أمام لجنة العلاقات الدوليّة، في مجلس النواب الأميركيّ، ٦ آب/أغسطس ١٩٩٨. ماريلين هنري: «دَعْوَى مَنْ هذه، أصلاً؟»، في جيروزالم بوست (٤ تموز/يوليو ١٩٩٧). بنيناغل: مؤتمر واشنطن...، ص ٧٠٥. الافتتاحيّة: «الأملاك اليهوديّة تخصّ يهودًا»، في هاآرتز (٢٦ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٩).

تتفاخر صناعةُ الهولوكوست بأنّها تخصِّص أموالَ التعويضات لقضايا يهوديّةٍ خيريّة. ولكنّ محاميًا يمثِّل الضحايا الحقيقيِّين يلاحِظُ «أنّ العمل الخيريّ قضيةٌ نبيلة، ولكنّ تأديتَه بأموال الآخرين ظُلمٌ!». وكانت واحدةٌ من القضايا الأثيرة [لدى صناعة الهولوكوست] هي قضيةُ «تعليم الهولوكوست»، وهي بحسب ايزنستات «إرثُ جهودنا الأعظمُ». وهيرشسون هو أيضًا مؤسِّسٌ لمنظمةٍ تدعى «مسيرة الأحياء»، وهي مرتكَزٌ أساسيٌّ لتعليم أحداث الهولوكوست، ومتلقّيةٌ رئيسيّة لأموال التعويضات. وفي هذا العَرْض [«مسيرة الأحياء»]، الملهَم صهيونيًا، ويمثِّلُ فيه آلافُ الممثِّلين، يتلاقى الشبابُ اليهوديُّ من كلّ أنحاء العالم أمام معسكرات الموت في بولندا ليتلقّوا تعليمًا مباشرًا عن مَكْرِ الأغيار، قبل أن يُسَفَّروا إلى إسرائيل لـ «الخلاص». وقد التقطتْ جيروزالم ريپروت هذه اللحظةَ من المسيرة التي تصوِّر الهولوكوستَ بطريقةٍ كِتشيِّة*: «'أنا خائفةٌ جدًا، أنا لا أَقْدر أن أستمرّ، ليتني أصل إلى إسرائيل فورًا' ؛ ذلك ما كانت تردِّده شابةٌ من كونتيكيت مرّةً بعد مرّةً. كان جسدُها يَرْتجف.. وفجأةً تَسْحب صديقتُها علَمًا إسرائيليًا ضخمًا. فتلفُّه حولهما وتُكمِلان الطريقَ». والعِبْرَة هي التالية: «علمٌ إسرائيليٌّ: لا تَتْرُكْ بيتَكَ من دونه!»**(1).

لقد أصبح دايفيد هاريس من «المؤتمر اليهوديّ الأميركيّ» بليغًا حين تحدَّث في مؤتمر واشنطن، المخصَّصِ للأرصدة من حقبة الهولوكوست، عن «الأثر العميق» الذي تخلِّفه رحلاتُ الحجّ إلى معسكرات الموت النازيّة في الشباب اليهوديّ.

---

* - الكيتش: مادةٌ فنيّةٌ أو أدبيّةٌ تُعتبر من نوعيةٍ رديئة، وغالبًا ما تُنتَجُ لتملُّق الأذواق ولإثارة المشاعر السطحيّة. (م)

** - يشير فنكلستين هنا إلى دعايةٍ مشهورةٍ عن بطاقة الائتمان الخاصة بشركة «اميريكان اكسپرس»، وجاء فيها: Don't leave home without it! (م)

1 - سيرجيو كاراس: «حساباتٌ لم تُصنَّفْ»، في غلوب اندمايل (ايلول/سبتمبر 1998). ستيوارت ايزنستات: «ملاحظات»، الاجتماع السنويّ لمؤتمر المطالب الماديّة اليهوديّة من المانيا والنمسا (نيويورك: 14 تموز/يوليو 1999). توم ساويكي: «6000 شاهد»، في جيروزالم ريپروت (5 ايار/مايو 1994).

وسجلّتْ جريدةُ فوروارد حادثةً مفعمةً بالعواطف المتأجّجة [الپاثوس]. فتَحْتَ عنوانٍ رئيسيٍّ هو «مراهقون إسرائيليُّون يَمْرحون مع المتعرِّيات بعد زيارة معسكر أوشفيتز»، شرَحت الجريدةُ أنَّ طلاَّب الكيبوتزات [الإسرائيليّة]، وفقًا لقول الخبراء، «استأجروا متعرِّياتٍ من أجل التخلُّص من المشاعر المُقْلقة التي أثارتها الرحلة». ويبدو أنَّ هذه «العذابات» نفسَها «أجْهَدَتْ» طلابًا يهودًا في رحلةٍ حقليّة field trip إلى متحفٍ هولوكوستيّ تذكاريّ أميركيّ، فكانوا - بحسب فوروارد - «يَرْكضون في كل مكان، ويُمْضون وقتًا رائعًا، ويتحسّسون واحدهم الآخر، وغيرَ ذلك!»[1]. وبعد ذلك كلّه، مَنْ تُراه يَرْتاب في حكمة قرار صناعة الهولوكوست تخصيصَ أموال التعويضات لتعليم أحداث الهولوكوست، بدلاً من «تبديد الأموال» (بحسب تعبير ناحوم غولدمان) على الناجين من معسكرات الموت النازيّة؟![2].

في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٠ حَضَرَ مسؤولون من خمسين دولة تقريبًا، وبينهم رئيسُ وزراء إسرائيل إيهود باراك، مؤتمرًا كبيرًا في ستوكهولم عن تعليم الهولوكوست. وقد شدّد المؤتمرُ في بيانه الختاميّ على «مسؤوليّة» المجتمع الدوليّ «الخطيرة» عن محاربة شرور الإبادة والتطهير العِرْقيّ والعنصريّة ورُهاب الأجانب. وسأل أحدُ المراسلين الصحفيَّين السويديَّين باراك بعد نهاية المؤتمر عن اللاجئين

---

١ - بندنناغل: مؤتمر واشنطن عن أرصدة حقبة الهولوكوست، ص ١٤٦. مايكل أرنولد: «مراهقون إسرائيليُّون يَمْرحون مع متعرِّيات بعد زيارة أوشفيتز»، في فوروارد (٢٦ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٩). وأَعْلَمَتْ عضوةُ الكونغرس كارولين مالوني نائبة مانهاتن، وبفخرٍ، اللّجنةَ المصرفيّةَ في مجلس النوّاب بمشروعِ قانونٍ قدّمتْه، هو «مرسوم تعليم الهولوكوست»، الذي «سيقدِّم منحًا من خلال وزارة التربيةَ إلى المؤسسات المعنيّة بالهولوكوست من أجل تدريب الأساتذة ولتزويد المدارس والجاليات بموادَّ تعزِّز تعليم الهولوكوست». ولعلّ مالوني - التي تمثِّل مدينةً ذاتَ نظامٍ للتعليم العام مشهورٍ بأنّه يَفْتقر إلى الحدّ الأدنى من الأساتذة والكتب المدرسيّة - قد اعتبَرتْ أنَّ هناك أولويّاتٍ مُختلفةً لمِنَح وزارةِ التربية القليلة [أصلاً]. (جلسة لسماع الشهادات أمام لجنة الخدمات المصرفيّة والماليّة، في مجلس النواب الأميركيّ، ٩ شباط/فبراير ٢٠٠٠).

٢ - زفايغ: التعويضات الألمانيّة والعالم اليهوديّ، ص ١١٨. وكان غولدمان مؤسِّسَ المؤتمر اليهوديّ العالميّ، والرئيسَ الأولَ لمؤتمر المطالب اليهوديّة.

الفلسطينيِّين. فأجاب باراك أنَّه، من حيث المبدأ، ضد مجيء وإنْ لاجئ واحدٍ إلى إسرائيل، قائلاً: «لا نستطيع أن نَقْبل أن نتحمّل المسؤوليّةَ الأخلاقيّة، أو القانونيّة، أو أيّة مسؤوليّة أخرى، عن اللاجئين». واضحٌ أنَّ المؤتمر أصاب نجاحًا باهرًا![1].

يورد الدليلُ الرسميُّ الذي يُصدره مؤتمرُ المطالب اليهوديَّة، وعنوانُه: **دليل إلى تعويضات الناجين من الهولوكوست وإلى استعادةِ أملاكهم**، عددًا لا حصر له من المؤسسات المرتبطة [بصناعة الـ هولوكوست]. فلقد نشأتْ بيروقراطيَّةٌ شاسعةٌ ثريّةٌ جدًا. وهناك شركاتُ تأمين، ومصارفُ، ومتاحفُ، ومصانعُ خاصَّةٌ، ومستأجِرون، ومزارِعون، في كل بلد أوروبيّ تقريبًا، تحت مراقبة مهدَّدةٍ من صناعة الهولوكوست. ولكنّ «ضحايا الهولوكوست المحرومين»، الذين تعمل صناعةُ الهولوكوست باسمهم، يَشْكون أنَّها «تُديم مصادرةَ أملاكهم فحسب». وكثيرٌ منهم قاضَوْا «مؤتمرَ المطالب». وقد يَتَّضح في المستقبل أنَّ الـ هولوكوست هي «أكبرُ سرقةٍ في تاريخ البشريّة»[2].

حين دخلتْ إسرائيلُ أولَ الأمر في مفاوضات مع ألمانيا لنيْل التعويضات بعد نهاية الحرب العالميّة الثانيّة، اقتَرَحَ وزيرُ الخارجيّة الإسرائيليّ موشي شاريت ـ على نحوِ ما يَكْتب المؤرِّخ إيلان پاپ ـ تحويلَ قسمٍ من التعويضات إلى اللاجئين

---

١ ـ ماريلين هنري: «المؤتمر العالميّ لتعليم الهولوكوست يبدأ»، في جيروزالم پوست (٢٦ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٠). ماريلين هنري: «رئيس الوزراء [الإسرائيليّ]: ليست علينا مسؤوليّة أخلاقيّة تجاه اللاجئين»، في جيروزالم پوست (٢٧ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٠). ماريلين هنري: «على الهولوكوست 'أنْ تُكْوَى في الذاكرة الجمعيّة'»، في جيروزالم پوست (٣٠ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٠).

٢ ـ مؤتمر المطالب: دليل إلى تعويضات الناجين من الهولوكوست وإلى استعادة أملاكهم (نيويورك، دون تاريخ). فِنْسنت: شركاءُ هتلر الصامتون، ص ٣٠٢ (لكلمة «مصادرة»)؛ راجعْ أيضًا ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩. رالف إيبِل Eibl، في دي فِلْت (٨ آذار/مارس ٢٠٠٠) (لـ «قاضَوْا»). وصناعةُ التعويضات عن الهولوكوست موضوعٌ محرّمٌ في الولايات المتحدة. فموقع H-Holocaust الالكترونيّ (www2.h-net.msu.cdu) مثلاً مَنَعَ الإعلاناتِ المنتقِدَةَ حتى حين تكون مدعومةً تمامًا بالبراهين الوثائقيّة (مراسلة شخصيّة مع عضو مجلس الإدارة ريتشارد س. لڤي، ١٩ ـ ٢١ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٩).

الفلسطينيِّين «من أجل تصحيحِ ما سُمِّي بالظلم الصغير (المأساة الفلسطينيّة) الذي سَبَّبَهُ ظلمٌ أفظَعُ (أي الهولوكوست)»[1]. ولكنّ شيئًا لم يَنْتج عن هذا الاقتراح قطّ. واقتَرَح باحثٌ إسرائيليٌّ بارز أن تُستخدَمَ بعضُ أموال التعويضات، التي جاءت من المصارف السويسريّة والشركات الألمانيّة، لـ «تعويض اللاجئين الفلسطينيِّين العرب»[2]. ويبدو هذا الاقتراحُ معقولاً، بالنظر إلى أنّ كلّ الناجين من الهولوكوست النازيّة تقريبًا قد ماتوا.

ولكنْ في ١٣ آذار/مارس ٢٠٠٠، وفي أسلوبٍ كلاسيكيٍّ عتيق من أساليب المؤتمر اليهوديّ العالميّ، أَدْلى إسرائيل سينغر بـ «إعلانٍ مذهل»، مفادُه أنّ وثيقة أميركيّة جديدة نُزعتْ عنها مؤخَّرًا صفةُ «السرِّيّة» كَشَفَتْ أنّ النمسا تَحْتفظ بأرصدة لا وَرَثَة لها ليهودٍ من حقبة الهولوكوست وتُقدَّر بعشرة بلايين دولار إضافيّة. وزَعم سينغر أيضًا أنّ «٥٠٪ من فنّ أميركا كلّها إنّما هو فنٌّ يهوديٌّ منهوبٌ أصلاً»[3]. وواضحٌ أنّ صناعة الـ هولوكوست قد جُنّ جُنونُها!

---

١ ـ ايلان باپ Pappe: صناعة الصراع العربيّ ـ الإسرائيليّ ١٩٤٧ ـ ١٩٥١ (لندن: ١٩٩٢)، ص ٢٦٨.

٢ ـ كلينتون بايلي Bailey: «أموال الهولوكوست إلى الفلسطينيِّين قد تغطّي بعضَ أكلاف التعويضات»، في انترناشيونال هيرالد تريبيون، وأُعيد نشرُه في جوردان تايمز (٢٠ حزيران/يونيو ١٩٩٩).

٣ ـ إيلي ولْغِلِرنتر: «المؤتمر اليهوديُّ العالميّ: النمسا تحتفظ بـ ١٠ بلايين دولار قيمة أرصدة ضحايا الهولوكوست»، في جيروزالم پوست (١٤ آذار/مارس ٢٠٠٠). وسلّط سينغر الضوءَ في شهادته اللاحقة أمام الكونغرس على اتّهام النمسا، ولكنّه كعادته صَمَتَ أمام الاتّهامات الموجَّهة إلى الولايات المتحدة. (جلسات سماع الشهادات أمام لجنة الشؤون الخارجيّة، مجلس الشيوخ الأميركيّ، ٦ نيسان/أبريل ٢٠٠٠).

خاتمة

بقي أن نتأمّل أثرَ الـ ـهولوكوست في الولايات المتحدة. وفي أثناء قيامي بذلك أودّ أن أُشْرِك ملاحظاتِ بيتر نوفِك النقديّة في هذا الموضوع.

علاوةً على الاحتفالات التذكاريّة بالهولوكوست، هناك سبع عشرة ولاية اميركيّة بالضبط تُلزِم مدارسَها أو تَنْصحُها بتعليم برامج عن الهولوكوست. وهناك عدد كبير من الجامعات والكليّات خصّصت «كراسيّ» [مناصب اكاديميّة] لدراسات الهولوكوست. ويَصْعب أن يمرّ أسبوع واحد دون أن نَعْثر في جريدة **نيويورك تايمز** على قصةٍ رئيسيّة تتعلّق بالهولوكوست. ويُقدَّر عدد الدراسات الاكاديميّة المكرّسة لموضوع «الحل النهائيّ النازيّ» [الهولوكوست] باكثر من عشرة الاف على الأقلّ. ولكنْ تأملْ، بالمقابل، الأبحاثَ الأكاديميّةَ عن مجزرة الكونغو: فبين عامَيْ ١٨٩١ و ١٩١١ قضى حوالى ١٠ ملايين أفريقيّ من جرّاء استغلال أوروبا للموارد العاجيّة والمطاطيّة في الكونغو، ومع ذلك لم يُنْشرْ اولُ كتابٍ بالإنكليزيّة كُرِّس مباشرةً لهذا الموضوع ـ بل هو الكتاب الأوحد فيه ـ إلاّ منذ عامين فقط[1].

إنّ الـ ـهولوكوست اليوم محصَّنةٌ بقوّة في الحياة الأميركيّة، بالنظر إلى العدد الهائل من المؤسسات المكرّسة والخبراءِ المكرَّسين لحماية ذكراها. ولكنّ نوفِك يعبِّر عن

١ ـ ادم هوتشايلد Hochschild: شبح الملك ليوبولد (بوسطن، ١٩٩٨).

هواجسه من أن لا يكون ذلك أمرًا حسنًا. فهو يشير، أولاً، إلى عدَّة حالات من الابتذال المحض. بل الحقَ أنَّه يَصْعب على المرء أن يسمّيَ قضيةً سياسيَّةً واحدةً [في الولايات المتحدة] لا تجنِّد الـ هولوكوستَ في خدمتها، سواء أكانت تلك القضية في تأييد حق المرأة في الإجهاض أو في تأييد حقوق الحيوان أو حقوق الولايات الاتّحاديَّة، أم في معارضتها. وإذ شَجَبَ إيلي فِيزل المقاصِدَ المبهرَجَة [الرخيصة] التي تكرِّس الـ هولوكوستُ لها، فقد صَرَّح: «أُقْسِمُ أن اتجنَّبَ... المشاهدَ المبتذلة»[1]. ولكنّ نوفِك يورد «أنَّ أكثر المشاهد الهولوكوستيّة المتأهِّبة للتصوير رهافةً وخيالاً ظَهَرَ عام ١٩٩٦، حين بدت هيلاري كلينتون ـ وكانت آنذاك تتعرَّض لهجومٍ عنيف بسببِ ما نُسِبَ إليها من أعمالٍ سيِّئة مختلفة ـ في بهوِ مجلسِ النواب أثناء خطاب الوضع في البلاد ' الذي تلاه زوجُها (وبثّه التلفزيونُ مرارًا)، وإلى جانبها كلٌّ من ابنتهما تشلْسي وإيلي فِيزل»[2]. وأمَّا بالنسبة إلى هيلاري كلينتون فإنَّ اللاجئين من كوسوفو، الذين طردتْهم صربيا أثناء قصف الناتو، يستدعي إلى الأذهان مشاهدَ هولوكوستيَّةً من [فيلم سپيلبرغ] «قائمة شيندلر». وقد أجاب أحدُ المنشقّين الصرب بلذعٍ حين قال: «لا ينبغي على مَنْ تعلَّم التاريخَ من أفلام سپيلبرغ أن يُخْبِرنا كيف نعيش حياتنا!»[3].

ويواصل نوفِك نقاشه فيقول: «إنَّ الزعم بأنَّ الهولوكوست ذكرى أميركيَّة لَهُوَ مراوغة أخلاقيَّة». فهذا الزعم «يؤدِّي إلى التهرُّب من المسؤوليَّات التي تخصّ حقًّا الأميركيِّين في مواجهتهم لماضيهم وحاضرِهم ومستقبلهم» (التشديد في الأصل)[4]. وإنّ نوفِك هنا ليثيرُ نقطة هامَّة. فاستنكار جرائم الآخرين أهونُ كثيرًا من النظر إلى أنفسنا. ولكنّ من الصحيح أيضًا أنَّه لو كانت الإرادةُ موجودةً لكان بإمكاننا أن نتعلَّم كثيرًا عن أنفسنا من التجربة النازيّة. لقد استبقتْ نظريةُ «المصير الجليّ»*

---

١ ـ فِيزل: **ضد الصمت**، المجلّد ٣، ص ١٩٠؛ وراجع المجلّد ١، ص ١٨٦، والمجلّد ٢، ص ٨٢، والمجلّد ٣، ص ٢٤٢؛ وراجعْ فِيزِل: **والبحر...** ص ١٨.

٢ ـ نوفِك: **الهولوكوست**، ص ٢٣٠ ـ ٢٣١.

٣ ـ جريدة **نيويورك تايمز** (٢٥ أيار/مايو ١٩٩٩).

٤ ـ نوفِك: **الهولوكوست**، ص ١٥.

* ـ راجع هامش المترجم**، ص ٣٣. (م)

جميعَ العناصر الإيديولوجيّة والبرامجيّة تقريبًا في سياسة هتلر المعروفة باسم «المجال الحيويّ» Lebensraum. بل الحقّ أنّ هتلر صاغَ احتلالَه للشرق وفقًا لنموذج الاحتلال الأميركيّ للغرب [الأميركيّ][1]. فخلال النصف الأول من القرن العشرين فرضتْ غالبيةُ الولايات الأميركيّة قوانينَ تعقيم، وتم تعقيمُ عشرات الآلاف من الأميركيِّين برغم إرادتهم. واستحضر النازيُّون هذه السابقةَ الأميركيّةَ استحضارًا صريحًا حين فَرضوا قوانينَهم التعقيميّةَ الخاصّةَ بهم[2]. فقد جرَّدتْ قوانينُ نورمبرغ السيِّئةُ السمعةِ اليهودَ عام ١٩٣٥ من حقوقهم الانتخابيّة، ومنعتِ التزاوجَ بين اليهود وغيرِ اليهود. وكان السودُ في الجنوب الأميركيّ قد عانوا العوائقَ القانونيّةَ ذَاتها، وكانوا هدفًا لعنفٍ شعبيٍّ عفويٍّ ومُجازٍ يفوق بكثيرٍ العنفَ الذي تعرَّض له اليهودُ في ألمانيا قبل الحرب العالميّة الثانية[3].

غالبًا ما تستدعي الولاياتُ المتحدةُ ذكرياتِ الـ هولوكوست من أجل تسليط الضوء على الجرائم الجارية خارج الولايات المتحدة. ولكنّ النقطة التي تَكْشف الأمورَ كشفًا أكبرَ هي متى تستحضر الولاياتُ المتحدةُ الـ هولوكوستَ. فالحقّ أنّ

---

١ - جون تولاند Toland: **ادولف هتلر** (نيويورك، ١٩٧٦)، ص ٧٠٢. يواكيم فَسْت: **هتلر** (نيويورك، ١٩٧٥)، ص ٢١٤، ٦٥٠. وانظرْ ايضًا كتاب فِنْكِلْستين: **الصورة والحقيقة**، الفصل الرابع.

٢ - انظرْ مثلاً: ستيفان كول Kühl: **الصلّة النازيّة** (اوكسفورد، ١٩٩٤).

٣ - انظرْ مثلاً: ليون ف. ليتواك Litwack: **اضطراب في البال** (نيويورك، ١٩٩٨)، ولاسيَّما الفصلان الخامس والسادس. والحقّ أنّ التقليد الغربيّ [الفلسفيّ]، الذي يُتبجَّحُ به، متورِّطٌ تورطًا عميقًا في النازيّة هو الآخر. فقد وظّفَ الأطباءُ النازيُّون مفهومَ «الحياة التي لا تستحقّ الحياة» (lebensunwertes Leben) من أجل تبرير إبادة المعوَّقين؛ وكانت هذه الإبادة هي النذير بـ «الحلّ النهائيّ» (الهولوكوست). وكان افلاطون في **غورغياس** قد كَتَبَ: «لا أستطيع ان أرى أنّ الحياة جديرةٌ بأن تُعاش إذا كان جسدُ المرء في وضعٍ مريع». وفي **الجمهوريّة** أجاز افلاطون قتلَ الأطفال المعوَّقين [جسديًا وعقليًا]. وفي موضعٍ متّصل بهذا كله، استَبَقَ معارضةَ هتلر في كتابه **كفاحي** لتحديد النسل، بحجّة أنّ هذا التحديد يَعْمل ضدّ الانتقاء الطبيعيّ، ما كان قد كتبه روسّو في **خطاب في اصول اللامساواة**. وبعيْد الحرب العالميّة الثانية كتبتْ حنة أرنت متأمِّلةً، فقالت: «إنّ التيار الخفيّ في التاريخ الغربيّ قد برز أخيرًا إلى السطح واغتَصَبَ كرامةَ تقليدنا» (**اصول التوتاليتاريّة**، ص ix).

جرائم أعداء الولايات المتحدة الرسميِّين ـ كحمّامات الدم التي ارتكبها الخميرُ الحمرُ في كمبوديا، والاجتياحِ السوڤياتيّ لأفغانستان، والاجتياحِ العراقيّ للكويت، والتطهيرِ العرقيّ الصربيّ في كوسوڤو ـ تُذكِّر بالـ ـهولوكوست؛ في حين أنّ الجرائم التي تشترك الولاياتُ المتحدة في اقترافها لا تذكِّر بها!.

ففي الوقت الذي كانت تتكشّف فيه فظائعُ الخمير الحمر في كمبوديا، كانت الحكومةُ الأندونيسيّةُ المدعومةُ من الولايات المتحدة تَقْتل ثُلثَ سكّان تيمور الشرقيّة. ومع ذلك فإنّ الإبادة الجماعيّة في تيمور الشرقيّة، خلافًا لكمبوديا، لم «تستحقّ» أن تُقارَنَ بـ الـ ـهولوكوست، بل هي لم تستحقّ أن تُغطّى في نشرات الأخبار [الأميركيّة][1]. وفي الوقت الذي كان الاتحادُ السوڤياتيُّ يَرْتكب فيه ما أسماه مركزُ سايمون ڤيزنثال «إبادةً أخرى» في أفغانستان، كان النظامُ المدعومُ من الولايات المتحدة في غواتيمالا يَرْتكب ما أسمَتْه مؤخّرًا «اللجنةُ الغواتيماليّةُ [للبحث عن] الحقيقة» «إبادةً» بحقّ شعبِ مايا الأصليِّين. ولكنّ الرئيس ريغان رفض الاتهاماتِ الموجَّهةَ إلى الحكومة الغواتيماليّة ووصفها بـ «المكيدة». ومَنَحَ مركزُ سايمون ڤيزنثال جين كيرپاتريك جائزةَ «إنسانيُّ هذا العام» تكريمًا لإنجازاتها بصفتها المبرِّرَ الرئيسيَّ في إدارة ريغان للجرائم المتكشِّفة تباعًا في أميركا الوسطى[2]. وقد تمّ التوسُّلُ في جلسات خاصة إلى سايمون ڤيزنثال نفسِه لكي يعيد النظرَ في منح جائزته تلك، ولكنّه رفض. وطُلِبَ من إيلي ڤيزل في جلسات خاصة أن يتوسّط لدى الحكومة الإسرائيليّة، لكون هذه الحكومة مسلِّحًا رئيسيًا للجزّارين الغواتيماليِّين، ولكنّه رفض هو أيضًا. واستَحْضرتْ إدارةُ كارتر ذاكرةَ الـ ـهولوكوست، حين سعت إلى إيجاد ملاذٍ لـ «ركّاب القوارب» الڤيتناميِّين الهاربين من وجه النظام الشيوعيّ، ولكنّ هذه الإدارة نسيَتِ الـ ـهولوكوست حين أَجبرتْ «ركّابَ القوارب» الهايتيِّين الهاربين من وجه عصابات القتل المدعومةِ من الولايات المتحدة على الرجوع من حيث أتوا[3].

---

١ ـ انظرْ، مثلاً: ادوارد هِرْمان ونعوم تشومسكي: **الاقتصاد السياسيّ لحقوق الإنسان، المجلّد الأوّل: الصلة الواشنطنيّة وفاشيةُ العالم الثالث** (بوسطن، ١٩٧٩)، ص ١٢٩ ـ ٢٠٤.

٢ ـ مجلّة ريسپونس (آذار/مارس ١٩٨٣، وكانون الثاني/يناير ١٩٨٦).

٣ ـ نعوم تشومسكي: **ردّ [أوْ قَلْب] التيار** (بوسطن، ١٩٨٥)، ص ٣٦. وكلام ڤيزل مُقْتَبَسٌ من مقابلةٍ أجرَتْها معه الصحافة العِبْريّة. بِرِنباوم: **على العالم ان يَعْلم**، ص ٣.

ولاحت ذاكرةُ الـ هولوكوست بشكل يُنْذر بالخطر حين بدا قصفُ حلف الناتو ـ بقيادة الولايات المتحدة ـ لصربيا في ربيع ١٩٩٩*. وكنا قد رأينا أنّ دانيال غولدهاغن قارَنَ بين الجرائم الصربيّة بحقّ كوسوفو و«الحلّ النهائيّ» [الهولوكوست]. وبناءً على دعوةٍ من الرئيس كلينتون سافر إيلي ڤيزل إلى مخيّمات اللاجئين الكوسوڤيّين في مقدونيا وألبانيا. ولكنْ قبل أن يَذْهب ڤيزل، حين حان دورُه [في المسرحيّة]، ليَذْرف دموعَه على الكوسوڤيّين، كان النظامُ الأندونيسيُّ المدعومُ من الولايات المتحدة قد أكْمَل ما كان قد توقف عنه في نهاية السبعينيّات، فارتكب مجازرَ جديدةً في تيمور الشرقيّة. غير أنّ الـ هولوكوست تلاشت من الذاكرة [الأميركيّة]، مع إذعان إدارة كلينتون لإراقة الدماء هناك. وقد شرح أحدُ الديبلوماسيِّين الغربيِّين الموقفَ بقوله: «أندونيسيا تَهمُّ، ولكنّ تيمور الشرقيّة لا تهمّ»[1].

ويشير نوفِك إلى اشتراك الولايات المتحدة السلبيّ في كوارث إنسانيّةٍ تُمْكن مقارنتُها من حيث ضخامتُها بالإبادة النازيّة، وإنِ اختلفتْ معها في نواحٍ أخرى. فبعد أن يستدعي إلى الذاكرة مثلاً الأطفالَ المليونَ الذين قُتلوا في الحلّ النهائيّ [الهولوكوست]، يلاحِظ أنّ الرؤساء الأميركيِّين لم يزيدوا عن إطلاق «الرسميّات» [الكليشيهات الأخلاقويّة] في الوقت الذي «يموت فيه من جرّاء سوء التغذية والأمراض التي يُمْكن تجنُّبُها» أضعافُ هذا العدد من الأطفال كلَّ عام في جميع أنحاء العالم[2]. وبإمكان المرء أن يأخذ في عين الاعتبار حالةً وثيقةً بموضوعنا، تدلّ على اشتراك الولاياتِ المتحدة الفاعل في الكوارث الإنسانيّة. فبعد أن دَمَّرَ التحالفُ الذي قادتْه الولاياتُ المتحدةُ العراقَ عام ١٩٩١ من أجل معاقبة «صدّام ـ هتلر»، فَرَضت الولاياتُ المتحدةُ وبريطانيا عقوباتٍ قاتلةً من قِبل الأمم المتحدة على ذلك البلدِ القليلِ الحظّ سعيًا إلى خلعِ رئيسه. ومن المرجّح أن يكون مليونُ طفل قد ماتوا هناك، كما حدث في الهولوكوستِ النازيّة[3]. وحين سُئلتْ وزيرةُ الخارجيّة الأميركيّة مادلين

---

* ـ من المفيد جدًا هنا مراجعةُ كتاب تشومسكي الصادر حديثًا عن دار الآداب: **النزعة «الإنسانيّة» العسكريّة الجديدة ـ دروسٌ من كوسوفو**. (م)

١ ـ **فاينانْشال تايمز** (٨ أيلول/سبتمبر ١٩٩٩).

٢ ـ نوفِك: **الهولوكوست**، ص ٢٥٥.

٣ ـ انظرْ مثلاً: جَفْ سيمونز Simons: **التنكيل بالعراق** (نيويورك، ١٩٩٨) [وقد صدرتْ طبعته العربيّة عام ١٩٩٩ عن مركز دراسات الوحدة العربيّة في بيروت. (م)]

أولبرايت على التلفزيون الأميركيّ عن ضريبة الموت المروِّعة هذه، أجابت: «الأمر يستأهل (The price is worth it)!».

«إنّ كونَ الهولوكوست واقعةً عند أقصى تخوم [الفظاعة] لَيَحُدُّ، على نحوٍ خطير، من قدرتِها على تقديم دروس يُمْكن تطبيقُها على عالمنا اليوميّ»؛ هذا ما يَطْرحه نوفِك. فلكونها «مقياسًا فاصلاً للقمع والفظاعة»، فإنّها تميل إلى «تَتْفيهِ الجرائم التي تقلّ عنها حجمًا»[١]. ومع ذلك فإنّ بمقدور الهولوكوست النازيّة أن تَجْعلنا أشدَّ حسّاسيّةً إزاء هذه المظالم. إنّ ما كان يُسَلَّم به تسليمًا ـ كالتعصُّب المتشنِّج مثلاً ـ لا يُمْكن التسليمُ به إذا نُظر إليه الآن بنظّارات أوشفيتز[٢]. والحقّ أنّ الهولوكوست النازيّة هي التي كَذَّبت العنصريةَ العِلْمويَّةَ التي كانت سمةً واسعةَ الانتشار في الحياة الفكريّة الأميركيّة قبل الحرب العالميّة الثانية[٣].

في عُرف أولئك الذين التزموا سبيلَ إصلاح البشريّة، لا يَحُول وجودُ مقياسٍ للشرّ دون إجراء المقارنات، بل هو يستدعيها بالأحرى. لقد سبق للعبوديّة أن احتلّت في أواخر القرن التاسع عشر الموقعَ نفسَه من عالم الفكر الأخلاقيّ الذي تحتلّه الهولوكوستُ النازيّةُ اليوم، ولهذا كانت غالبًا ما تُستحْضَرُ لتسلِّط الضوءَ على شرورٍ أخرى لم تكن تُدْرَك إدراكًا تامًا. وها هو جون ستيوارت مِلْ يقارن بين العبوديّة، ووضعِ المرأة في تلك المؤسّسة الڤيكتوريّة الأشدّ قداسةً: العائلة. بل هو تجرّأ على أن يقول إنّ وضع المرأة أسوأُ من العبوديّة في بعض الاعتبارات الحاسمة: «لا أزعم أبدًا أنّ الزوجات عامةً لا يعامَلْنَ أفضلَ من العبيد، ولكنْ لا عبدَ ـ بتلك الأبعادِ وبكلِّ ما في كلمة 'عبدٍ' من معنى ـ كالزوجة»[٤]. إنّ أولئك الذين يَسْتخدمون مقياسَ الشرّ لا كبوصلةٍ أخلاقيّةٍ بل كهراوة إيديولوجيّة هم وحدَهم

---

١ ـ نوفِك: **الهولوكوست**، ص ٢٤٤، ١٤.

٢ ـ عن هذه النقطة، انظرْ بخاصة: شومون: **تنافُسُ الضحايا**، ص ٢١٦ ـ ٢١٨.

٣ ـ انظرْ، مثلاً: كارل ن. دَغْلِرْ Degler: **بحثًا عن الطبيعة البشريّة** (أوكسفورد، ١٩٩١)، ص ٢٠٢ وما بعدها.

٤ ـ جون ستيوارت مِلْ: **عن إخضاع النساء** (كامبريدج، ١٩٩١)، ص ١٤٨.

الذين سيُجْفَلون أمام تناظراتٍ (تماثُلاتٍ) كالتي تحدثنا عنها. «لا تقارِنْ»: تلك هي تعويذةُ المبتزِّين عن طريق الأخلاق[1].

لقد استغلَت الحركةُ الأميركيّةُ اليهوديّةُ المنظّمةُ الهولوكوستَ النازيّةَ، وماتزال تستغلّها، من أجل حَرْفِ النقد عن سياسة إسرائيل وسياسةِ تلك الحركةِ نفسِها، وهما سياستان لا يُمْكن الدفاعُ عنهما أخلاقيًا. واتّباعُ هاتَيْن السياستَيْن مازال يَضَعُ إسرائيلَ واليهودَ الأميركيِّين في موضع متطابق من الناحية البنيويّة: فمصير الطرفَيْن معلّق اليومَ بخيطٍ دقيقٍ يتّصل بالنخب الأميركيّة الحاكمة. وإنْ قررتْ هذه النخبُ في أيّ يومٍ من الأيام أنّ إسرائيل عائقٌ، أو أنّ اليهود الأميركيِّين يُمْكن الاستغناءُ عنهم [لهدفٍ أكبر]، فقد يُقْطَعُ ذلك الخيطُ. ولا شك أنّ هذا تخمينٌ [من قِبلي]، إنذاريٌّ ربّما على نحوٍ غير ملائم؛ وربّما كان غيرَ ذلك.

بيد أنّ التنبُّؤَ بما ستكون عليه وقْفةُ النُّخب الأميركيّة اليهوديّة إنْ حدثتْ هذه الاحتمالاتُ لَهُوَ عملٌ بالغُ البساطة. فإنْ سقطتْ إسرائيلُ في عيْن الولايات المتحدة، فإنّ عددًا كبيرًا من الزعماء الذين يدافِعون اليومَ عن إسرائيل بثباتٍ سيُفصحون بشجاعةٍ عن نفورهم من هذه الدولة اليهوديّة، وسوف يَشْجبون اليهودَ الأميركيِّين لتحويلهم إسرائيلَ إلى دين. وإنْ قررتِ الدوائرُ الحاكمةُ في الولايات المتحدة أن تَسْتخدم اليهودَ كبشَ محرقةٍ، فليس علينا أن نستغرب إذا تصرّف القادةُ الأميركيّون اليهودُ كما فعل أسلافُهم تمامًا خلال الهولوكوست النازيّة؛ وفي هذا الصدد يقول إسحاق زوكرمان، وهو أحدُ منظِّمي انتفاضة غيتو وارسو، متذكِّرًا: «لم نَحْسب أن يُدخِل الألمانُ العنصرَ اليهوديَّ في المعادلة؛ لم نتوقّع أن يقودَ يهودٌ يهودًا إلى الموت!»[2].

* * *

١ - وليسَ بأقلّ بُغْضًا أن تقارَنَ الهولوكوستُ النازيّةُ [بالفظائع الأخرى]، على نحو ما يقترح مايكل بِرنباوم، لمجرّد «تبيان ادّعاء فرادة تلك الهولوكوست». (راجعْ: بعد الكارثة والنصر، ص ٢٩).

٢ - زوكرمان: فائض من الذكريات، ص ٢١٠. [والإشارة هنا إلى دور المتعاملين اليهود مع النازيّين]. (م)

في سلسلة من الحوارات المفتوحة المتبادلة في ثمانينيّات القرن العشرين احتجّ عددٌ كبيرٌ من الباحثين البارزين الألمان وغير الألمان ضدّ «تطبيع» الأعمال الشائنة النازيّة*، خشيةَ أن يحثّ هذا التطبيعُ على الارتخاء الأخلاقي[1]. ولكنْ أيًا كانت صحةُ ذلك الموقف آنذاك فإنّه لم يَعُدْ مُقْنِعًا الآن. إنّ الأبعاد المذهلة لـ «حلّ» هتلر «النهائيّ» [الهولوكوست] صارت معروفةً جدًا في الحاضر. ولكنْ أليس تاريخُ البشريّة «الطبيعيّ» مُتْرَعًا بفصولٍ راعبةٍ من اللاإنسانيّة؟ لا تحتاجُ جريمةٌ إلى أن تكون غير عاديّة لتستحقّ تكفيرًا عنها. بل إنّ التحدّي اليوم هو إعادةُ النظر إلى الهولوكوست النازيّة بوصفها موضوعًا عقلانيًا للبحث. وإذّاك فقط نستطيع أن نتعلّم منها حقًا. إنّ شذوذ الهولوكوست النازيّة لا يَنْبع من الحدث ذاتِه بل من الصناعة الاستغلاليّة التي نَمَتْ حولها. لقد كانت صناعةُ الهولوكوست ومازالت مُفْلِسةً على الدوام. ويبقى التصريحُ بذلك الإفلاس علنًا أمرًا واجبًا. ولقد آن الأوان منذ وقتٍ بعيدٍ لإغلاق مصنعها تمامًا.

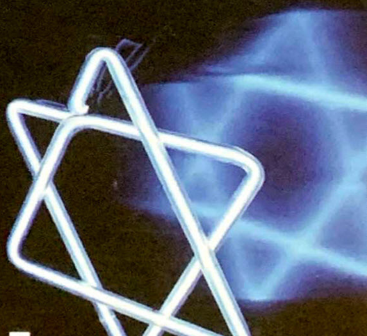
إنّ العمل الرمزيّ الأنبل الذي يُمْكن القيامُ به لأولئك الذين قَضَوْا هو أن نَحْفظ ذكراهم، وأن نتعلّمَ من معاناتهم، وأن نَدَعَهُمْ - في الختام - يَرْقدون بسلام.

* - أيْ ضدّ جعْلها تبدو أمرًا طبيعيًا. (م)

١ - أحيل هنا على Historikerstreit (النزاع التاريخيّ)، وعلى المراسلات المنشورة بين سول فريدلاندرْ ومارتن بروسذات Broszat. ففي الحالَيْن دار النِقاشُ بشكلٍ رئيسيّ على طبيعة الجرائم النازيّة: أَمُطْلقة هي أم نسبيّة ؟ وهل يصحّ مثلاً مقارنتُها بـ «الغولاغ» [معسكرات العمل السوفياتيّة]. انظرْ: بيتر بالْدوِنْ محرّرًا: إعادة تركيب الماضي؛ وريتشارد ج. ايفانز Evans: في ظلّ هتلر (نيويورك ١٩٨٩)؛ وجايمس نولتون Knowlton وتُرويتّ كايتس Cates: أبدًا في ظلّ هتلر؟ (اتلانتيك هايلاندز، نيوجرزي، ١٩٩٣)؛ وأهارون ڤايس Weiss (محرّرًا): ياد ڤاشيم ستاديز XIX (القدس، ١٩٨٨).

في هذا الكتاب، يكشف البروفسّور نورمان فنكِلستين حقائق طُمستْ في أكثر الدراسات المتعلِّقة بالهولوكوست (أو المحرقة اليهوديَّة) إنْ لم يكن في جميعها. فالحديث عن الهولوكوست لم يبدأ في الولايات المتحدة إلّا بعد حرب حزيران ١٩٦٧ من أجل حرف النقد عن سياسة «إسرائيل» التوسُّعيَّة. ويَكْشف الكاتب زَيفَ عددٍ كبير من شهادات «الناجين من الهولوكوست». كما يَفضح الخداعَ الذي تمارسه المنظَّمات اليهوديَّة الأميركيَّة بحقّ الدول الأوروبيَّة وبحقّ «الوَرَثة الشرعيِّين» للحسابات اليهوديَّة الهاجعة في البنوك الأوروبيَّة من أجل ابتزاز أكبر قدرٍ من المال لدعم خزائن تلك المنظَّمات ولدعم إسرائيل وتسهيل الهجرة إليها.

والبروفسور نورمان فنكِلستين أستاذ في «جامعة المدينة» في نيويورك. وهو مؤلِّف عدَّة كتب منها: الصورة والحقيقة في الصراع الإسرائيليّ - العربيّ. وصعود فلسطين وأفولها. وقر نشر عددًا من المقالات في مجلّة الآداب عام ١٩٩٨. ويَعتبر واحدًا من أبرز المدافعين عن القضيَّة الفلسطينيَّة في العالم.



دار الآداب